وأحصــته
دفاتر القدر

الكاتب: أحمد شافعي.

تدقيق لغوي: أحمد إبراهيم.

الإخراج الفني: ضياء فريد.

تصميم غلاف: محمد محسن.

رقم الإيداع: ٢٠٢٠/١٧٧٧٠

الترقيم الدولي: ٤-٥٣-٦٦٨٩-٩٧٧-٩٧٨

9 شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين
بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.

موبايل 01126026691 01061813345

01009823984

وأحصته
دفاتر القدر

رواية

أحمد شافعي

إهداء

إلى الأنقياء، المستعصمين بالصبر..
الواثقين بأن هناك على الضفة الأخرى
حياة أخرى تخلو من الهم والكدر

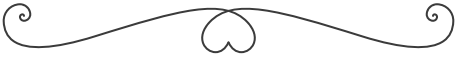

كل غلطة لا يعاقب عليها
القانون تولد ذرية من الأغلاط.

هربرت سبنسر

1

دقات الساعة تُعلن عن منتصف الليل، يسود المكان صمت قاتل سوى من وقع أقدام تروح جيئة وذهابًا، يدان تحترقان من قسوة الاحتكاك ببعضهما، وعويل قلب يعتصره الخوف ويحزّه القلق.

لم تكن تلك عادتها أن تتأخر لمثل هذا الوقت من الليل، فعملها ينتهي قبل الأفول، وقبل أن يتم الليل إرخاء ستائره تكون في حضن البيت!

الأم لا تدري ما العمل، فالوقت يواصل ركضه نحو الصباح لا يرحم نظراتها تستعطف عقارب الساعة التريّث قليلًا.

ابنها الصغير يكابد نومًا يتناوشه من وقت للآخر، فالصبي الذي ما زال في مهد الدراسة، لم يعتد السهر لمثل تلك الأوقات.

أسئلة تواصل طرق عقلها تزيد من هلع قلبها:

ـ أين ذهبت؟! ما الذي حدث؟! أمكروه أصابها؟!

روحها تلهج بالدعاء:

ـ يا رب لا تفجعني فيها، فهي سندنا في الحياة.

اتصالاتها بصاحب العمل وبصويحباتها جاءت بنتيجة واحدة «ذهبت في ميعادها اليومي» مع تمنيّات بعودتها سالمة وبوعود بالاتصال للاطمئنان فيما بعد.

يتسلل الإرهاق شيئًا فشيئًا لقدميها، فتحضر مقعدًا تضعه بجوار النافذة ترجو الطريق أن ينشق عنها!

بعد أن سيطر النوم على الصغير، وجّه قوّاته صوب الأم وبعد طول مقاومة تمّكن من إلحاقها بابنها، حتى لأن السائر في الطريق يمكنه أن يلمح رأسها.

صوت الأذان يصدح من الجهات كافة، يتقهقر النوم تأثّرًا بكلماته... عيناها تنفتحان بتثاقل، تتابع أقدام السائرين في الظُلم نحو بيت الله، تصوّب نظراتها نحو السماء، ترجو من الله أن يمنّ على ابنتها بالنجاة، تنفض عن كاهلها هواجس الشيطان، تنهمر دموعها على هيئة ابنها يُصارع المقعد ليحتويه.

بأقدام واهنة تتوجه لأداء فريضة الله، يستولي باب غرفة ابنتها على عينيها، تفتحه ببطء شديد كأنّها تخشى مواجهة ما وراءه، تجول بنظرها في أرجاء الغرفة: النافذة تستجدي مَن يغلقها، سريرها يشكو فراق أنيسته، دولابها يكتم لوعته وأحزان ملابسها بأعماقه، حتى نعلها يئن من برد يكتنفه!

تعاود إغلاق الباب فيصدر صريرًا كأنّه آلامًا لم يقوَ على كتمانها.

ينهمر الماء بين كفّيها فتنكمش مفاصلها إثر برودته القارصة. يختلط به ماء عينيها الساخن، تبسط سجّادتها تؤدي الصلاة، نحيبها

المتقطع يوقف همهماتها المتواصلة، تهوي نحو سَجَدَاتها تسبقها عَبرَاتها سرعان ما تتخفّى خلف خيوط النسيج. استقطع الدعاء القدر الأكبر من صلاتها. يداها تطويان السجادة مع أمل بقرب وقوع شيء يطوي قلقها.

أنفاس الصباح تطارد فلول الظلام إيذانًا بميلاد يوم جديد. يلملم الليل أشلاءه هاربًا وقد استولى على آخر ما تبقّى للأم من أمل. تعود لخطواتها الوئيدة ثانية، عيناها مع أول الطريق، أذناها مع الباب ودرجات السلم، تكاد ترتمي في أحضان اليأس، لكن نزغات أمومة مكلومة تضرب قلبها تدفعها للحراك مجددًا.

ـ الانتظار لن يفيد، يجب الآن فعل شيء.

هكذا يحدثها عقلها. فلم تدر بنفسها إلا وطرقاتها تنهال على باب الجار.

صوت من الداخل يستفسر ببعض القلق عن الطارق، رجل بملابس النوم يفتح الباب في عجالة، يبادرها على الفور متسائلًا:

ـ خيرًا إن شاء الله يا مدام (ألفت)! ماذا هناك؟!

بوجه يعلوه الشحوب:

ـ معذرة يا حاج (حسن) ابنتي لم تعد منذ أمس، ولا أدري ما العمل؟

امرأة تحاول إيجاد مكانًا بجوار زوجها وبوجه يشوبه الامتعاض تقول:

ـ خيرًا يا (ألفت)! ماذا حدث؟!

تعيد على أسماعها ما قالته لزوجها مع قلق يتزايد بمضي الوقت.

تنظر المرأة لزوجها كأنّها تنتظر ردّه، فينطلق لسانه بمزيد من الأسئلة. أجوبة باقتضاب تخرج من المبتلاة.

ينتهي الحديث بقوله:

ـ لا مفر الآن من إبلاغ الشرطة، فقط أحضري صورة لها، وأنا سأبدّل ملابسي لنذهب سويًّا.

ينتشر الفزع على وجهها (الشرطة!) تلك كلمة تثير من المخاوف الكثير بداخلها!

بقلق عارم وخوف عتيد تغلق بابها بجسدها بعد عودتها من رحلتها الأليمة لقسم الشرطة!

روحها تذوب من الجزع والقنوط: أسئلة ضابط الشرطة وعباراته المتكررة بل وتعامله مع الأمر برمّته يوحي بأن ابنتها لن تعود في القريب، همس من الشيطان يدفعها لتكمل أو ... أو ربما لن تعود!

يستيقظ الصغير على صوت شهقات أمه، لا يلبث أن يعتريه الفزع، يصيح:

ـ أمي لمَ لم توقظيني؟ كيف سأذهب الآن للمدرسة وقد أغلقت أبوابها؟!

تمسح على رأسه برفق بلا كلمات، تعود لمقعدها تُلاصق النافذة. وجه الشارع يزداد سوادًا، بعض تشققاته توحى بتجهّمه، بقايا من مياه الأمطار تختلط ببعض من مياه الصرف وكأنّها دموعه حزنًا على فراق الفتاة!

تمرّ الساعات بطيئة على فتات قلبها تحمل بعضًا منها مع وعد بعدم العودة.

ما إن تشرق شمس يوم جديد أو تختفي لتفسح مكانًا للظلام؛ إلا وهي وجهًا لوجه مع الضابط فيصفعها بعبارة لا يتورّع عن تكرارها:

ـ لا يزال البحث جاريًا، وإن جدّ جديدٌ سنخبركِ وأنتِ بمنزلكِ.

عقارب الساعة تشير إلى ما بعد الواحدة من سواد الليل، تفيق (ألفت) من غفوتها القسريّة فزعة على صوت الباب يُفتح ويُغلق.

ـ هاااا، هه ... هنااااء!!

تقفز من رقدتها كأنّ قوى الأرض تجمّعت في قدميها. فيضان من القبلات والأحضان يُغرق الابنة، تُسكِنها صدرها، تُذهب بردها، تضغطها بعمق.

تبدو الفتاة كجسد فقط، أطرافها تتحرك حسب رغبة الأم، نظرات تائهة والهة، شعر ثائر مغبّر، ملابس مهترئة متّسخة، كأنّها خارجة لتوّها من قبر!

طغى فرح الأم على نظرها فلم تلاحظ هيئة ابنتها الرثّة إلا بعد حين. حينها انطلق لسانها بالأسئلة:

ـ أين كنتِ يا ابنتي؟ ماذا أصابكِ؟ ما سرّ ما يعتريكِ الآن؟ لما لا تجيبين؟!

اطفئي النيران في قلب أمكِ، هنااااء!

بالكاد طبعت على يد أمها قبلة مع بعض إشارات توحي بوعد بالحديث في الصباح. تتحرك كأنّ أثقالاً مثبتة بإحكامٍ في قدميها، تفتح باب غرفتها ببطء، تغلقه بجسدها تدفعه.

جبين الأم يعانق الأرض شكرًا لله في سجدة طويلة مع كثير من دعاء ينساب من قلبها تعكسه دموعها تغسل الأرض.

2

رأسها يستند لرأس السرير، أجفانها تنطبق بقوة تعتصر الدموع. شهقاتها متتابعة، أنينها خافت متقطع، جسدها يرتعش ويرتعد وهي تستدعي من ذاكرتها أهوال ليلاتها الكئيبة لحظة بلحظة:

بعد أن استأذنت صاحب العمل في الانصراف وودعها بإشارات من يديه دون اهتمام؛ سارت سيرها المعتاد لتستقل الأتوبيس، حجزت لجسدها مكانًا بجوار بعض السيدات على الرصيف هربًا من نظرات الرجال التي تلاحقها أينما حلّت. تقاسيمها الفائرة ووجهها البديع كثيرًا ما أوقعوها بالأزمات، كلمات الغزل العفيف منها والقبيح تنهمر عليها في كل مكان ومن كل الطبقات! بل تعدى الأمر ذلك حتى وصل للمس والتحرّش في بعض الأحيان!

لكن ليس من الأمر بدّ؛ فحاجتها الملحّة للعمل تضطرّها للاحتمال والصبر، بدأت رحلتها مع الشقاء بنهاية حياة أبيها حينما أفضى روحه إلى بارئها على مقدمة سيارة أطاحت به من الدنيا!

أبت الحياة إلا أن تضع بصمتها عليه؛ فقد أصيب بالصمم قبل رحيله بقليل. ساهمت حالته تلك بعزله عن الواقع وصخبه كأنه أسير قفص من زجاج!

وضِعت كلمة النهاية لمستقبلها إثر تلقّيها خبر وفاته، ذهبت كلمات الثناء والتشجيع من مدرسيها أدراج الرياح، التعليم الفني كان مآلها، انتهت منه سريعًا أملًا في الحصول على عمل أو زوج ينتشلها مما تلاقيه.

ـ لماذا تأخر الأتوبيس هكذا؟!

سؤال تردد كثيرًا على لسان المحيطين.

ـ ربما عطل أصابه.. ربما شيء في الطريق يعترضه.. أو ربما سيتخلّف عن الحضور اليوم.

تلك بعض من الردود مع تمنيّات بعدم صدقها.

انشق الطريق فجأة عن سيارة زاهية ألوانها تسرّ الناظرين، اجتذبت نحوها أبصار الكثيرين، حسرات أورثت الحلق مرارة حصاد لتلك النظرات، أصوات أغانٍ فجة طرقت أسماع الواقفين عبر نوافذها المفتوحة.

ـ أيأتي يوم وأكون بداخل سيارة هكذا! آه. يا لها من أحلام بعيدة المنال.

حديث دار بداخلها، اختصر كثيرًا من أمنيات لم تجد بها الأيام بعد.

عيناها لا تزالان تلاحقان السيارة التي تشبثت إطارتها بالأرض دون سابق تمهيد!

نزل قائدها، تطوعت يده لتكشف عن عينيه غمامة النظارة، صوّب بصره تجاه المنتظرات.

شعرت (هناء) بأنّ نظراته لها فقط، فأشاحت بوجهها تلقاء الجهة الأخرى، حتى أحسّت أنّه عاد لمقعده بالداخل. تذكرت أن الوقت يمرّ فتملّكها الضجر وتسلل لبعض ممن بجوارها، عادت عيناها تتأرجح ما بين أول الطريق وساعة يدها.

وفجأة.. وعلى حين غرّه من إدراك الجميع.. حدث ما لم يتوقعه أحد أو خطر في حسبان بشر.

السيارة تراجعت بأقصى سرعتها للخلف، توقفت أمامها بطريقة أفزعتها. سرعان ما انفتحت أبوابها عن آخرها كأبواب الجحيم! شابان قفزا باتجاهها، أمسك بها أحدهما واحتضنها من الخلف وشلّ حركتها بحزام حقيبتها، والآخر أحكم ذراعيه على قدميها، أدخلوها السيارة من جهة رأسها التي تلقّفها ثالث من الداخل وأغلق فمها!

اندلعت صراخاتها تملأ الآفاق، تستنجد بمروءات الرجال، لكن لا مجيب ولا خبر! سرعة الأحداث وغرابتها ألجمت عقول الجميع، حتى إن بعضهم تراجع للوراء خوفًا وهلعًا!

بيديها ضربت، بقدميها ركلت، بلسانها صاحت وبدمعها استعطفت، لكن إصرار المهاجمَين كان أقوى وأعتى حتى تمكنوا من أسرها!

تحرر الضمير أخيرًا واندفعت إحدى الواقفات وتشبثت بأحد الشابَين من أطراف ملابسه قبل أن يحكم إغلاق الأبواب، فعاجلها بصفعة هوت على إثرها واصطدم رأسها بالأرض، انفجر أنفها بالدماء وخضلت سواد الأسفلت! لكن عينها كانت في مهمة أخرى وهي التحديق بلوحة السيارة التي فرّت بغنيمتها هاربة!

في مقعد السيارة الخلفي أحكم أحدهم الخناق حولها، كادت أنفاسها تنقطع من ثقل يديه اللتين اعتصرتا جسدها، بدا مستمتعًا للغاية وهو جاثم عليها قائلًا:

ـ ألا يوجد شيء نقيدها به ونُغلق فمها أيضًا، صراخها هذا سيلفت الأنظار. ها، ما العمل يا (خالـ...)!

لم يتم كلمته كأنّه اقترف إثمًا عظيمًا.

التفت إليه قائد السيارة بعيون تتقد:

ـ يا لك من غبي أحمق! أهذا ما اتفقنا عليه، حسنًا إذًا لنكمل التعارف.

أكمل بغضب تملّكه:

انصتي يا حلوة؛ هذا الذي بجواري يدعى (هاني) وأما حارساكِ؛ فعن اليمين الغبي (عصام) والذي عن اليسار (جلال).

اكتنف الثلاثة مزيج من الدهشة والخوف، إلى أن نطق واحد من الخلف:

ـ لمَ فعلت هذا وأنت من حذرنا منه؟!

تواصل غضب قائد السيارة:

ـ اسأل مَن بجوارك، فلن أحملها وحدي إذا انكشف الأمر! دعك من هذا الآن، وحاول أن تقطع أي شيء من ملابسها لتقيدها به.

صرخت بأقصى ما جادت به حبال صوتها، دفعتهم بكل أجزائها، لكن الشرّ قد استحكم وتمكنوا من تمزيق عباءتها وشدّوا وثاقها! وبخرقة بالية تستخدم لنظافة السيارة أغلقوا فمها!

أصبح جسدها كتلة واحدة، ما عاد بوسعها فعل شيء سوى البكاء. دموعها فاضت بغزارة، جسدها انتفض من الفزع، قلبها اقترب من التوقف عن أداء مهامه!

أيقنت أنها سقطت بين أنياب خبيثة، وسط قلوب لا تعرف الشفقة، لا تقيم وزنًا لدين أو خُلق. إلا أنّ الذي حطّمها حقًّا؛ أن الناس تركوها لهم لقمة سائغة! لم يحرّك أحدهم ولو رمش عين كأنّهم يتابعون عرضًا مسرحيًّا نهايته مؤسفة! ذلك الشعور أخذ في الازدياد مفتتًا كيانها كلما ابتعدت السيارة أكثر عن مسرح الحدث الكئيب.

يد السائق ضربت على عجلة القيادة بإيقاع تخللته كلماته:

ـ ألم أخبركم بأنّ الأمور ستسير كما رسمتها في ذهني؟

اضطراب استولى على مَن بجواره:

ـ لكن تلك المرأة، ألا يمكنها أن تفعل شيئًا بعدما تشبّثت بي؟!

تتوقف يده عن إيقاعها لتوكزه بوجهه:

ـ دعك من تلك الوساوس، واستعدّ لما هو قادم، لقد تمسك الرجال بصمتهم فما بالك بامرأة!!

تحدث الفتاة نفسها: المرأة!! ساعدني يا ربي بأن تؤدي أمانتها، فربما تستنقذني من بين أنيابهم.

هكذا جأر قلبها بالدعاء.

صوت خرج من على يمينها متسائلًا:

ـ أين سنذهب بها الآن؟

إجابة واثقة خرجت من الأمام:

ـ أتظن أنني أتكبد كل هذا وليس في مخيّلتي موضع نذهب إليه آمنين؟

رمى له بمفتاح وحيد:

ـ هذا مفتاح شاليه بالإسكندرية؛ سيذهب عمرك سدى دون أن تمتلك مثله. ها ما رأيك؟

تدارك الأول:

ـ أعلم أنك لا تغفل شيئًا، فقط كنّا نبغي الاطمئنان.

ختم كلماته بضحكات مصطنعة، علّها تلطّف الأجواء.

مخططهم لانتهاك البراءة ما زال يمضي قدُمًا، ملامح ثلاثة منهم تكاد تكون متشابهة، نظراتهم للفتاة من حين لآخر تظهر جمعًا من الشياطين يقيمون الأفراح بعيونهم.

أما الرابع فتنكسر نظراته على دموع الفتاة تهز كيانه، هيئتها وهي مكممة ترتجف، تخلع قلبه من موقعه! ندم يتقاطر من عينيه، أسئلة لا يجد بداخله أجوبة لها تنتهش عقله:

ـ لماذا وافقهم على ذلك من البداية؟ ماذا سيكون موقفه غدًا أمام نفسه وضميره بل وأمام ربه؟ ما ذنب تلك البريئة لتدفع ثمن عقول استحوذ عليها الشيطان؟ ما الذي يمكنه أن يفعله الآن؟ هل لو تركها أو ساعدها على الهرب، سيشفع ذلك له عندها؟ ما الذي سيخبئه القدر له إذا أتم معهم الخطة للنهاية؟

صوت أزهق أسئلته:

ـ يا ابن الأستاذ ماذا بك؟ تلوذ بالصمت من البداية؟

رفع رأسه ناظرًا للأمام باتجاه مصدر الصوت:

ـ لا، لا شيء كنت أفكر ماذا سيكون بعد ذلك؟

بعجالة طمئنه:

ـ لا تقلق يا صاحبي، فكل شيء محسوب حسابه بدقة فأنا لا أترك شيئًا للصُّدف.

كلمات أخرى خرجت من الآخر الذي بالأمام:

ـ سنعود بعد ثلاثة أيام، لا بل أسبوع كامل، لا يَنْقُص يوم.

يد مَن بجواره تشير إليه بالصمت، قال صاحبها:

ـ بل يوم أو اثنين على الأكثر، فأبي قد يعود من الخارج في أي وقت.

لا تزال السيارة تطوي الأرض طيًّا كأنها مثل أصحابها متعجلة لإتمام الأمر! إطاراتها تنهب الطريق لا تعترف بكل ما يعترضها من معوقات، المهم قطع المسافة في أقصر وقت.

دقائق شدّ بعضها بعضًا أسرعت بالمرور، لتكشف النقاب عن ملامح بناء ظهر من بعيد، ازداد وضوحًا كلما اقتربت السيارة من أحضانه (إنه محطة تحصيل الرسوم على الطرق)!

توقفت السيارة فجأة، حتى كاد مَن بالخلف أن يشاركوا مَن بالأمام مقاعدهم!

بضيق ارتفع صوت قائدها:

ـ كيف غاب هذا الأمر عن ذهني؟ كيف لم أنتبه إليه؟

بلا تردد تساءل الجميع:

ـ ماذا هناك؟ أحدث شيء؟

بدا كمن يحدّث نفسه، يوازن بين رأيين:

إن وضعناها بحقيبة السيارة، قد تحدث صخبًا وجلبة، فيتكاثر الأمن علينا وحينها سنأكل أصابعنا من الندم، لكن إن ظلّت هكذا مكانها فقد لا تلفت إلا انتباه موظف الشباك، وإن حاولت فعل شيء يمكننا إيقافها، أما هو فيمكننا شراؤه.

لم ينتظر ليسمع آراءهم، وعاودت السيارة سيرتها الأولى، تقدمت لا تخشى شيئًا تستمد الثقة من قائدها!

بدت محطة الرسوم خاوية سوى من أفراد أمن تظهر هيئتهم من بعيد، استعاد عقلها بعضًا من نشاطه، تلك آخر فرصها للنجاة فيجب استغلالها مهما كانت النتائج. لكن كيف؟!

توقفت السيارة أمام الشباك، نظرات الموظف تفحّصت وجه قائدها ذوي الملامح الواثقة، عيناه لمحت في الخلف ظلًّا لأشخاص ثلاثة، لم تستطع نظارته الكبيرة أن تحدد ملامحهم.

وفجأة! صوت أنات ظهر! شيء ارتطم بالزجاج! صوت صفعة قوية انهالت على خد! نحيب مختنق مصحوب بآلام مكبوتة حاول الظهور!

أسرع الموظف وأحضر كشافًا بجواره، أسقط ضوءه على مَن بالخلف، لوهلة غطّت سحابة من الدهشة وجهه: فتاة كأنها أحد الأسرى تتوسط شابين، يتحسس أحدهما رأسه، الآخر نظر للجهة الأخرى محاولًا إخفاء ملامحه.

نطق الموظف بضع كلمات ببطء شديد:

ـ بدأت الآن أفهم حقيقة الأمر.

نظر بطرف عينه لهاتف عن يمينه يهددهم.

يد قائد السيارة انغرست بأحد جيوبه وأخرجت حفنة من النقود ألقاها في وجهه:

ـ ألا يكفي هذا لإلجام لسانك؟

ابتسامة خبيثة استولت على ملامحه:

ـ هذا عن لساني، فماذا عن يدي؟

صاح أحدهم بغضب لم يستطع إخفاءه:

ـ حقًّا ما أنت إلا طماع جشع.

ضحكات بلا صوت انتابته:

ـ أنا طماع وجشع؟ وماذا عنك أنت يا صاحب الأخلاق الفاضلة؟

هنا لم يجد صاحب السيارة سوى ساعته الثمينة، نزعها من يده بعنف

ـ هذا عن باقي أعضائك.

تلقّاها الموظف بلهفة:

ـ هون عليك عزيزي فبين يديكم صيد لا يقدر بثمن، فلا تبتئس فتفسد على نفسك المتعة!

انتزعت أنفاسها بمشقة، كأنّ جبال الأرض نصبت بإحكام فوق صدرها! روحها على حافة التفسّخ، اتزانها على شفا الانهيار، قلبها تلّفّت في كل اتجاه عله يجد بين أضلعها ثقبًا يفر منه!

أهكذا تنتحر الأخلاق عند أقدام المادة؟! أكلّ ما تربت عليه وعرفته وزُرع بداخلها عن المبادئ ومحاسن الخصال كان وهمًا وخيالات؟! أهكذا يذبح الشرف بنصل المال البارد؟! أهكذا تسحق المروءة بلا هوادة تحت نعال الجشع؟! أأصبحت الدنيا ميدانًا خصبًا لبذور الشر لتنبت حدائق قبح ترتع فيها الشهوات؟!

صوت المحرك أعادها ثانية لواقعها المر. تقطعت أفكارها البائسة على صوت قائد مركبة الشر:

ـ أخذتَ ما تريد ولكن احذر إن انكشف الأمر؛ أعدك لن تكون في مكانك هذا عندما أعود.

نطق لسانه مسرعًا:

ـ لا، لا تقلق يا عزيزي، فبمجرد ذهابكم كأن شيئًا لم يكن.

اندفعت السيارة لا تلوي على شيء، مرّت الدقائق بتثاقل أسأم الجميع، استبد الصمت بالأركان حتى قال مَن بيده عجلة القيادة مخاطبًا مَن بالخلف:

ـ يمكنكم الآن فكّ قيودها، فبعد ذلك لن يمكنها فعل شيء سوى الطاعة.

تحسس مَن عن يمينها وجهها بلهفة، سرعان ما قاوم نفسه لينزع الرباط عن فمها.

حاولت جاهدة لملمت شتاتها، الإمساك بما تبقى من أعصابها، خرج صوتها متقطعًا كأنّ سكينًا تناوبه بين كلمة وأخرى، سقطت كلماتها مضرجة بالانكسار:

ـ بالله أستحلفكم دعوني، ماذا فعلت بكم لتدمروني هكذا!
أليس عندكم أمهات، أخوات، أليس منكم رجل رشيد!

لا تزال الخرقة التي كانت على فمها بيده، حرّكها يمنة ويسرة كقائد فرقة موسيقية ينظم أداء عازفيها من أبناء الشيطان قائلًا:

ـ أكملي، فصوتك حقًّا بديع، أريدك أن تطربيني أكثر وأكثر. معكِ كل الحق فأنتِ لم تؤذينا، لكن يمكنكِ أن تمتعينا.

انخرط ثلاثة منهم بالضحك، رابعهم ملتزم بصمت شديد! كأنّه معهم بجسده فقط!

قطعت السيارة الطريق الخالي من غيرها بنهم، كأنّها تختبر أقصى قدراتها على وجهه إلى أن وصل لأسماع ركابها أصوات الأمواج تتلاطم في البحر الثائر. تباطأت شيئًا فشيئًا، لتستقر بجوار أحد الشاليهات، المكان يستبد به الصمت إلا من هدير الموج يصفع الشاطئ.

تلّفت الثلاثة يستقصون أرجاء الشارع؛ حيث لا قدم تدب ولا حسيس يسمع، كأنّ المكان كان يتجهّز لهم! بإشارةٍ من قائدهم حُملت الفتاة على ظهر أحدهم، انطلق وراءه آخر ممسكًا بيديها من خلف حاملها، لم تعد بها طاقة للصراخ فاستسلمت لهم.

الرابع كأنّه لم ينتبه أنّ السيارة قد توقفت، نظر عن يمينه فلم يجد سوى حقيبتها فالتقطها وهمّ بالنزول.

قائد السيارة لا يزال منهمكًا في النظر لمختلف النواحي والزوايا إلى أن اختفى البقيّة في جوف الشاليه، فأسرع يحكم إغلاق السيارة ليلحق بهم، تعاجل خطواته درجات السلم الصغير حتى استبقهم للباب، استل مفتاحه فاستعصى قليلًا عليه كأنه يأبى الاشتراك بجرمهم. ما إن وصل الشقيان تعلوهما الفتاة حتى انفتح باب الهاوية فتقدموا يسرعون الخطى للداخل ليلقوا بها على أريكة في الوسط، ببطء تبعهما الأخير ولا تزال الحقيبة في يده.

يد صاحب المكان أغلقت الباب من الداخل بإحكام، تقدم باتجاهها وهي تحتضن جسدها بيديها، يسبقه صوته:

ـ هنا لن تجدى من يستمع لصرخاتك، فمن الأفضل لكِ ولنا أن تتعاوني معنا ولكِ مني الوعد بأنهما يومان لا أكثر.

لم تجب سوى بجسد مرتجف ودمع منهمر.

اقترب منه مَن بيده حقيبتها، وضعها بجوار صاحبتها والتفت إليه فجأة:

ـ لن أشترك في تلك الجريمة، ولن أدعكم تدنسون عرض تلك البريئة!

أطاح بالمفتاح بعيدًا:

ـ ها! ماذا! ماذا تقول؟! أَبَعْدَ كل ما تكبدناه وخسرناه تأتي لتتفوه بتلك الترهات؟! أين كانت كلماتك تلك من البداية؟! لماذا وافقتنا؟!

توجه نحو الحائط يضربه بغيظ:

ـ كنت مغيّبًا وعقلي بيد الشيطان، لكن ضميري وثب الآن لينقذ ما تبقّى لديّ من شرف، وهذا كلامي الأخير ولن أحيد عنه!

أسرع واحد من الآخَرِيْن نحو المطبخ، ما لبث أن عاد وبيده سكينًا وهو يصيح:

ـ انظر إليّ يا بطل، سنفعل ما أتينا من أجله واتفقنا عليه. وأقسم بكل ما هو غالٍ، إن حاولت منعنا فلن أتردد في قتلك! وهذا كلامي الأخير أيضًا.

رابعهم تكاد دهشته تقتله!

أما هي فقد حثت جراحها على وقف أنّاتها انتظارًا لما سيكون.

ـ أنت تقتلني! احذر فقد تجرح نفسك، أنصحك بأن تعيد السكين مكانها وإلا غرستها في حلقك.

هكذا تفوه صاحب الضمير الوليد في وجه حامل السكين.

فاندفع نحوه الأخر بسكّينه محاولًا طعنه، ولكنه كان متنبهًا فتحرك مسرعًا متفاديًا الضربة وعاجله بركلة من قدمه صدمته بالحائط فشجت رأسه!

هنا ارتفع صوت صاحب المكان:

ـ كفى.

ثم توجه نحو المصاب وأنهضه بعنف:

أعد السكين مكانه، واذهب ضمّد جرحك ولا شأن لك بهذا الأمر، فأنا كفيل بأن أضع حدًّا له، أفهمت؟

تحامل صاحب الرأس المدماة على نفسه، عيناه تبرق بالغضب، قلبه كاد ينفجر من غل يتمدد يدفع أركانه، تراجع بظهره حتى اصطدم بالحائط ثم اختفى بالداخل.

اقترب رابعهم منها، جلس بجوارها، همس بخبث محاولًا تبديد آمالها:

ـ لا تقلقي يا حلوة، أعدك بأن الأمر سينتهي سريعًا، فأنا أعرف خالـ ...

توقف ليضرب جبهته بيده، تدارك:

وسنفعل ما أتينا من أجله.

أخذ قائد سرب الشر بيد المعترض واتجه به نحو النافذة، تكاد تميّز كلماته بصعوبة:

ـ دعنا نفكر في الأمر جيدًا يا صاحبي، ولننظر لما نحن فيه الآن، نحن قمنا باختطاف الفتاة فعلًا على أعين الناس، وسواء أتركناها الآن أم لاحقًا، فبلا شك ستخرج من هنا مباشرة إلى قسم الشرطة وتعلمهم بما أصابها!

قاطعه الآخر في عجالة:

ـ نتفق معها على أن نتركها لحال سبيلها بشرط ألا تبلغ عنا وينتهي الأمر.

جاهدًا حاول وأد غضبه:

ـ إن افترضنا أن هذا سيحدث. ألن يبلغ أهلها الشرطة؟ إن لم يكونوا قد قاموا بذلك فعلًا.

بدهشة مشوبة بالخوف حدّق في عينيه:

ـ أستخلص من كلماتك تلك أن الموت مآلها بعد أن تأخذ منها أنت وتابعَيْك ما تريدونه!

تنهيدة كرياح الخماسين تعرف طريقها لخارجه:

ـ لا لم أقل هذا، ولكن دعني أفكر بالأمر ولا تقلق سأجد طريقة لا تؤذينا وكذلك لا تدفعنا لقتلها، فاطمئن.

أشاح بوجهه عنه:

ـ دعك من هذا، فأنا لا أثق في وعودك تلك، أتقنعني بأنك ستقضي الليل لتفكر في طريقة تدفن بها الجريمة وتتركهما لينتهشاها وحدهما، لست بأحمق لأصدق خرفاتك تلك!

فانفجر فيه غاضبًا:

ـ أنت أول من سيقبض عليه منّا، أنسيت أنك من صفعتها أمام موظف المرور وسيكون هو أول الشهود عليك، وأُحب ان أُنبّهك أننا سنتم هذا الأمر للنهاية سواء أكنت معنا أم لا، وإن حاولت منعنا مجددًا فلا تلومن إلا نفسك.

سقط جسده دفعة واحدة على الأرضية، أسند ظهره لأحد الجدران، طوّق رأسه الذي أوشك على الانفجار بيديه، لقد غاص في المستنقع حتى وصل إلى مرحلة اللا عودة، مهما فعل فجرمه لا يقل عن جرمهم، فالكل في الذنب سواء!

تلك بعض مما يمور في قلبه.

يدٌ شعر بثقلها على كتفه:

ـ دعك من هذا يا صاحبي وَعُدْ إلى رشدك، ولا تفسد علينا الأمر بعد كل ما خسرناه في سبيله، وأعدك ستكون ليلة لم تعشها من قبل.

نهض فجأة كأنّ ما تبقى من ضميره وكزه في حنايا قلبه:

ـ اسمع لي جيدًا، أنا لن أشارككم فيما تتحرّقون لتنفيذه، ولكن أمامك الليلة، الليلة فقط! سأرحل الآن وفي الغد صباحًا ستخبرني بما سنفعله، وحذار، حذار أن تُخلف وعدك لي، عندها لا تلومني على ما سأقوم به، حتى لو كنت أولكم!

بابتسامة المنتصر أجاب:

ـ حسنًا يا صديقي لك ذلك، ولكن إلى أين تنوي الذهاب؟

توجهت قدماه تلقاء الباب، رمقه بنظره استحقار:

ـ لا شأن لك بذلك.

صاحت به بفزع:

ـ بالله عليك، لا تتركني لهم، خدني معك، أقبّل قدميك أنقذني.

بدموع تحجرت في عينيه حطّم رجاءها:

ـ اعذريني ليس بيديّ شيء.

تراجع بظهره حتى اصطدم بالباب.

احترقت كلماتها أسفل بحر دمعها المسجور:

ـ أبعد كل هذا ليس بيديك شيء، اذهب سينتقم الله لي منك ومنهم.

كأنها انتزعت قلبه من موقعه، يده بحثت عن مقبض الباب، بصعوبة توصّلت إليه، جذبه بقوة حتى اشتكت من الباب مفاصله، ثم اختفى بعد أن أغلقه بعنف كاد يذهب بأسماع الجميع!

اقترب منها الجالس بجوارها أكثر، امتدت يداه تحيط بها ليقبّلها، فدفعته بكل قوتها، فصاح به قائدهم:

ـ ليس الآن، سنضع قواعد نسير وفقًا لها. فحذار أن تقربها بلا إذن من كلينا.

فوضع يده على بطنه محاولًا التمويه:

ـ أنا أتضوّر جوعًا، ألا يوجد شيء هنا يسدّ رمقنا؟

يميل نحوها، أنفاسه تلفح وجهها:

وأنت يا فاتنة، ألستِ جائعة؟! يهيئ لي أنكِ تأكلين من طعام لا نعرفه!

تغلق عينيها كي لا تطالع وجهه القبيح؛ فتفر بعضًا من دمعاتها يتحدّرن على خدّيها.

صوت ارتفع من الداخل قبل أن يظهر صاحبه:

ـ لا يوجد طعام هنا مطلقًا، كأنّ المكان بلا سكان.

هزّ الثالث رأسه بعنف:

ـ هذا ما لم أحسب له حسابًا، كل ما كان معي من نقود التهمها ذلك الموظف اللعين.

التفت الجالس منهم عن يساره فوجد حقيبتها، تناولها على الفور وفتحها بعنف. لم تحاول هي منعه من ذلك، لم يكن لديه صبر ليواصل التفتيش فأفرغها على السجادة، وبعجالة عبث بما أمامه، فابتعدت بعض من محتوياتها لتستقر تحت الأريكة. لم يلمح الجميع ذلك، كأنّ الله أعمى أبصارهم عنها!

ورقة أسطوانية جذبت انتباهه، التقطها من فوره ومزّقها، فإذا بها نقودًا تتعدى الألفي جنيه! يبدو أن هذا راتبها الشهري!

اعتدل ينظر نحوها:

ـ طعام ومتعة!! أنت حقًا رائعة.

حدّقت فيه بعنف، كاد الحقد والكره ينبعثان من عينيها ليخترقا وجهه السمج!

فالتفت نحو صاحبيه تغلبه ضحكاته:

ـ لم أر يومًا وجهًا يزداد بهاءً وجمالًا من الغضب كهذا الوجه.

ووكزها بيده.

ألقى صاحب المكان بجسده على أحد المقاعد والتبسّم ينفرد بوجهه:

ـ ولكن من سيأتينا بالطعام الآن؟

كاد مَن بيده النقود أن يتراقص فرحًا:

ـ أنا والحمد لله لا أحسن القيادة، وأشكر الله أنّي كذلك.

أحسّ الثالث أنه المقصود بكلماتهم تلك، فتوجه صوب النافذة وأعطاهم ظهره:

ـ أنا لن أذهب وأترككم معها، إن كان هذا ما يدور في رأسيكما فانسوه تمامًا.

نهض الآمر الناهي فيهم فجأة كمن تلقى لتوّه فكرة طازجة من أحد الشياطين:

ـ إذًا سنذهب نحن الثلاثة.

صاح الاثنان في ذهول:

ـ نحن الثلاثة! ونتركها هكذا بمفردها، أبعد كل ما فعلناه نسهّل لها الهرب؟!

يداه تستوقفهما:

ـ لا تقلقا، فلديّ فكرة يا حمقى، فليذهب أحدكم ليحضر الحبل من السيارة، هيا، فالوقت يمر!

انطلق أحدهما كالريح ليعود به، الثاني يكابد دهشته ومخاوفه، فهيئة هذه الفتاة توحي بأنها قد تفعل أي شيء لتلوذ بالفرار حتى لو فقدت في سبيل ذلك إحدى ذراعيها! لكن مخاوفه تلاشت على صوت قائدهم يحادثها:

ـ أعلم أن نفسكِ تحدثكِ بالهرب، أحب أن أطمئنكِ أن هذا لن يحدث مطلقًا يا عزيزتي طالما أن هذا يعمل. (يشير لرأسه يقصد عقله).

عاد الذي بالخارج وحبل غليظ في يده، تساءل –وأنفاسه تلاحق بعضها في عجالة–:

ـ أين سنقيدها الآن؟

أجابه صاحب الفكرة:

ـ لا تقلق ودع الأمر لي.

امتدت يده نحو مقعد خشبي، رفعه فوق المنضدة، هنا أدرك الشّقيّان ما يرمي إليه، فاقتربا يساعداه وقد قال أحدهما:

ـ آه من أفكارك الخبيثة تلك! لا تنتهي أبدًا، يا ليت لي بعقل مثله!

لم يجبه الآخر سوى بضحكات خبيثة تساقط منها الاستعلاء.

حينها أدركت ما يخطط له الأنجاس، فأسرعت باتجاه الباب، لمحها أحدهما فانقضّ نحوها وأمسك بعنقها من الخلف، ضغطه بقوة:

ـ ليس بتلك السرعة يا حلوتي، فما زال هناك الكثير لم ننته منه بعد.

اتجه واحد من الآخَرَيْنِ نحو الداخل، عاد مسرعًا وبيده السكين، قطع به الحبل نصفين، أعطى نصفه لمن صعد فوق المنضدة، فتناوله منه ليثبته بالسقف وهو يقول:

ـ الآن أحضراها.

أسرع مَن كان بيده السكين بعدما ألقاه بعيدًا يساعد الآخر في حملها، تصرخ وهي على أكتافهما تستحلفهما باللَّه لكنهما بديا كأنهما يحملان قربانًا يقدمانه للذبح، تعلو وجوههما أمارات الفرح والسرور، تبخترا في مشيتهما كأن الذي بين أضلعهما قطعة مطاط مضغها إبليس.

أجلساها على المقعد قسرًا، فالتفت المشنقة حول عنقها بلهفة. أخذا يوثقان يديها وقدميها سويًّا من الأسفل، ثم أكملا اللفات حول جسدها حتى تمّ لهما ما أرادا، أمسك أحدهما بالسكين ثانية، قطع قطعة من ملابسها قرب قدمها وكمم بها فمها. قفز الذي فوق المنضدة على الأرض، تقاطر الخبث من فمه:

ـ الآن لن تتمكني من الحراك ولا لسنتيمترات، أفرغي كل دمعاتكِ حتى نعود وأعدكِ لن نتأخر!

انطلق الثلاثة يتسابقون، أغلقوا الباب خلفهم بإحكام. تشعر بوقع أقدامهم تبتعد، الشر ذهب ليعود بعد أن يكمل حشوده ليفترس ما تبقى من أشلاء الأخلاق بلا هوادة أو حتى قليل من شفقة!

حاولت التزحزح قليلًا، فأحست بقسوة الحبل على عنقها، حركة أخرى كفيلة بخنقها! لو سقطت من فوق المقعد ستُنشق لا محالة! وحتى الآن لم يكن لديها ما يكفي من الشجاعة لتنهي حياتها! نحيب مكتوم يعوي بأعماقها؛ ما حكم الدين في موقف كهذا؟! أيُعَدُّ انتحارًا وإزهاقًا للنفس، أم خلاصًا للروح من مستنقع الشر والرذائل؟! لو تزحزحت عن المقعد قليلًا واندّك عنقها؛ أتكون قد كفرت بشرائع الحياة، أم سيؤخذ في الحسبان أنها اختارت أهون الضررين؟!

حتى أنت يا عقلي، تقف في صفهم ضدي؟!

مضى وقت لم تعرف له عدًّا وهي تنزف الدمعات من قلبها بعد أن نضبت مقلتاها!

صوت سيارة اقترب، سرعان ما تلاشى، وقع أقدام تدهم الدرجات بسرعة فائقة حتى انفتح الباب ليظهر الثلاثة وبيد كل منهم حقيبة بلاستيكية تكاد كل منها أن تنفجر من ثِقلها.

اقترب أحدهم منها:

ـ عذرًا يا جميلة فقد أنفقنا كل نقودكِ. لكن لا تقلقي فقد أحضرنا لكِ نصيبك.

ختم كلماته بسيل ضحكات ألقاه على أحد المقاعد.

فتح الثاني إحدى الحقائب، أخرج منها بعض الطعام، قرّبه نحو الفتاة:

ـ هيا يا حلوتي، هيا كلي حتى تستطيعين احتمالنا الليلة.

امتدت يده الأخرى تنزع الكمامة عن فمها، فعاجلته ببصقة أغرقت ملامحه!

امتلأت نفسه بالغضب، كاد وجهه أن ينبجس بالدم. همّ أن يصفعها بعنف لكن يدًا أثنته عن ذلك في اللحظة الأخيرة وصاح فيه صاحبها:

ـ حذار يا مجنون، أتريد أن تقتلها؟!

تمنّت حينها لو تركه لينقذها من المصير الذي ينتظرها، اقترب منها أكثر يتوعد:

ـ حسنًا ليس الآن، بعد أن نأخذ منكِ ما نريد؛ سأريكِ كيف أصنع بمن يهينني فانتظري منّي الرد.

جلس الثلاثة يأكلون بنهم، يحاول كل منهم الانتهاء قبل صاحبيه، شعر عقلهم المدبر بذلك، فقال:

ـ اهدؤوا ولا تتعجلوا، سنضع نظامًا نسير عليه، ولكي لا يحتج أحد؛ سنستخدم القرعة.

وافق الآخران على مضض.

أبدى أحدهم بعض الامتعاض لكونه الثاني، لكنه لم يصرّح بذلك، في حين أن قائدهم الذي جاء دوره الثالث لم تنبئ ملامحه بشيء.

التعب والإرهاق أخذا يتقاسمان ملامحها بعد أن ضرب الحزن خيامه في باقي جسدها.

أنزلوها وتوجهوا بها لإحدى الغرف، بكل ما تبقى لديها من طاقة تدفعهم، بيديها تارة وبقدميها، وبقلبها الذي تمزق تارات أخرى، لكنها في النهاية محاولات لم تسفر عن شيء يوقف مخطط البغاة.

ألقوها على السرير بلا عناية، تأوهات ماتت قبل أن تخرج منها تنبعث من أعضائها.

صوت صاحب الغرفة يأمر الآخران:

ـ هيا اربطا يديها وقدميها بأطراف السرير.

لحظات وانتهوا من ذلك، همّ واحد منهم أن يجردها من ملابسها، فتوجه نحوه الثاني يدفعه للخارج بغضب:

ـ هذا ليس دورك، وكل منّا حر في دوره.

خرج اثنان، فانطلق مَن بقي بالداخل يغلق خلفهما الباب بقوة. وأخذ يصفعها بغيظ! تتوقف كلماته إثر أنفاسه المتلاحقة:

ـ هذا جزاء من يتجرأ عليّ.

بعدما انتهى وهي في حالة إعياء تام، انقضّت يداه على ملابسها بشهوانية تسيل من عينيه، أعراها تمامًا، بعنف باعد بين فخذيها:

ـ لنفعل الآن ما أتينا من أجله.

وانتهكها بمنتهي الفظاعة! لم يتأثر بشهقاتها المختنقة ولا ارتجافات جسدها الواهن، ولم تردعه دماء بكارتها التي انفضّت بغير حق وأصابت طهارتها جسده النجس! كان كذئب شَرِه يقضمها من كل ناحية! أعاد الكرّة مرات ومرّات حتى أشرفت على الهلاك!

بعد فترة ليست بالقصيرة خرج مَن انتهي مِن قتل الشرف وهو يعدّل من هيئته، وتوجه نحو النافذة ليشعل سيجارة ينفث بها ما تبقى من حنقه.

دخل الثاني مسرعًا وعاد بسرعة أكثر! ووجهه ينتفخ من الغضب:

ـ ماذا فعلت بها يا مجنون؟ تكاد أنفاسها تنقطع!

أجابه بغضب دون أن يلتفت ناحيته:

ـ لا تقلق يا غبي، النساء لا تموت من تلك الأشياء.

الثالث لم يفارق مكانه بل شرع يتمدد على الأريكة كأن عقله خارج المكان!

رجع مَن حان دوره للداخل بعد أن صفع الباب صفعة اهتزت لها الجدران. لم يستمر طويلًا كسابقه، كأنّه كان يؤدي أمرًا لا بد منه!

وبعد أن قضى منها بغيته خرج ليجلس بعيدًا يلتزم الصمت كأن على رأسه الطير!

بعد انقضاء دقائق عدة؛ نهض الثالث –عقلهم المدبر– متجهًا نحو الغرفة التي خرجت من نطاق الرحمة، تقدم ببطء وشعور طاغ يتعاظم بداخله يدفعه بألا ينتهكها! هيئتها المذرية ودماء طهارتها التي لطخت الفراش؛ أغلقا منابع شهوته!

دومًا كانت الفتيات الحسان تتساقطن تحت قدميه وبوافر رغباتهن! ويكون هو أول مَن يقتحم حصونهن! أما الآن فهو سيكون ثالث المقترفين، وهو لا يرضى لنفسه بهكذا مكانة. استقر عزمه على ألا يقربها. ألبسها ملابسها وهي لا تدرك ولا تعي، حملها على كتفه، وخرج بها إلى الصالة، أنزلها برفق على الأريكة فغابت عن الوعي.

صبح يوم جديد بدأ في التنفس، أضواؤه الوليدة اخترقت الزجاج لتطرد ليلًا مضى شاهدًا على بشاعة ما حدث!

جاهدت مَن ثكلت عِرضها في فتح عينيها، أطلقت بصرها في أرجاء المكان، اثنان من الذئاب مستلقيان على مقعدين يبدوان كالنائمين، حاولت النهوض فرفض جسدها الحراك، كل ما فيها يئن بألم عظيم.

وقع أقدام اقترب، انفتح الباب وسرعان ما أغلق، صوت يزداد قوة كلما زاد صاحبه من اقترابه:

ـ وجدتها، وجدتها!

هكذا صرخ ثالثهم كمن وجد ضالته بعد طول بحث وتيه! هبّ الآخران على صوته فزعين!

اقترب منها صاحب العقل الجهنمي:

ـ من الجيد أنكِ عدتِ لوعيكِ الآن، فربما ما سأقوله يتفق مع هوى في نفسكِ.

ـ أين كنت كل هذا الوقت؟ فقد غلبنا النوم ولحسن الحظ أنها لم تفق إلا الآن.

سؤال نطق به واحد من صاحبيه.

تعمّد الصمت للحظات ليثير فضولهما، تجوّل بشكل دائري معجب بذكائه قبل أن يعلمها بما توصل إليه:

ـ كنت أشرك البحر معي في التفكير! اعتقدت أنه خير منكما، وبالفعل لم يخيّب ظني وأهداني الحل!

لم تلتفت إليهم، اكتفت بما يصل لأذنيها من أصواتهم التي بدأت تتلاشى عندما بدأ رسول الشر يهمس في آذان صديقيه، عيناه ترمقانها بخبث وهو يواصل وسوساته لصاحبيّ النفوس الخربة.

صاح أحدهما فجأة بفرح:

ـ يا لك حقًا من شيطان! فتلك ليست من أفكار بني الإنسان.

ضربه على منتصف رأسه:

ـ بل تلك أفكار العباقرة يا أبله، وما أدراك ما العباقرة!

ارتجف جسدها عند سماعها لتلك الكلمات، كل ما فيها ينكمش كأنّها في بحر من الثلج، أدرك قلبها أنهم سيقدمون على فعل أكثر بشاعة من ذي قبل.

ما هي سوى لحظات وصدق حدسها، انقضّ نحوها اثنان منهم ككلبين أصابهما السعار، شلا حركتها تمامًا، خارت قواها من فرط إحكام قبضاتهم على أطرافها، أسرع خلفهما الثالث ينزع عنها ملابسها بلا أدنى تأنيب من ضمير حتى أعراها تمامًا! أخرج هاتفه وأخذ يلتقط لها الصور من كافة الزوايا والأنحاء، لم يكتف بهذا بل صورها تصويرًا حيًّا بذل فيه جهدًا كي لا يُظهر ملامح صاحبيه، اقترب من وجهها، مرره على عينيها، تعمّد إطالة التصوير عند مواطن فتنتها أكثر وأكثر، ابتعد حتى أطراف قدميها ثم عاد من حيث بدأ!

ضحكات جلجل صداها كانت بمثابة الختام لهذا الفصل من قتل المروءة وسحق الشرف!

قبض على الهاتف بكلتا يديه وقربه من فمه وقبّله، نطق وجهه بالفرح كمن أحرز نصرًا لم يسبقه إليه أحد! ألقى كلماته ببرود عكس موت قلبه:

ـ اعذريني يا عزيزتي، يمكنكِ القول بأن هذه لدواعٍ أمنيّة.

أدركت أن هذا ضمانًا لسكوتها!

عاودت كلماته صفع أذنيها:

ـ عندما يعود صاحب الفضيلة يمكنكِ الذهاب معه إن أردتِ، أما إن كان بداخلك شوق لقضاء الليلة أيضًا معنا، فسنكون مسرورين جدًا لذلك، وحينها سنعاملكِ كأميرة وهاذين هما الخدم.

أشار نحو صاحبيه وقد غلبه الضحك.

اقترب منه رفيقاه، أبديا اعتراضًا على سماحه لها بالذهاب، قال أحدهما:

ـ اتفقنا من البداية أن نقضي معها يومين، فلِمَ تحرمنا الآن من اليوم الثاني؟

نطق بهدوء شديد:

ـ قد وعدت صاحبكما الغائب أن نتركها اليوم، فلا يمكنني أن أخدعه وإلا سيقدم على فعل سنندم عليه جميعًا، وأنا عن نفسي لن أجازف بمستقبلي لأجل شهوة يمكنني بمنتهى السهولة أن أحصل عليها من أخرى!

ما كان منهما إلا أن عاودا مقعديهما بوجهين يكسوهما التذمر لقرب فرار تلك الفاتنة من بين أيديهم.

قدمان ثقيلتان اقترب صوت وقعهما من آذان الجميع. طرقات على الباب بعنف كأنها تنوي تحطيمه.

ببطء توجه صاحب المكان ليفتح:

ـ أين كنت يا صاحبي، قريبًا ستندم على ما فاتك وسترى.

دخل مَن كان رفيقهم في خطفها، أفزعه منظرها المذري ودموعها التي لا تتوقف! عيناها ترسلان صواعق باتجاهه تكاد تحرقه، توجّه نحو قائدهم:

ـ أفكرت في الأمر؟ وماذا سنفعل؟

استلم الآخر أقرب المقاعد، جلس واضعًا قدمًا فوق الأخرى، أشار نحو الباب الذي ما زال مفتوحًا:

ـ يمكنها الذهاب الآن إن كان هذا ما تريده أنت وهي.

استبدت الدهشة بملامحه:

ـ حقًا يمكنها أن ترحل الآن؟! أم تلك إحدى خدعك؟!

لم يجبه بشيء والتفت ناظرًا للجهة الأخرى.

فأدرك أنه يقصد ما تفوه به، فأتم:

ـ إذًا يجب عليك أن توصلها لأقرب مكان تستطيع منه العودة إلى القاهرة.

أرجح قدمه بهدوء:

ـ أنا لن أقلّ أحدًا في سيارتي، وكما قلت سابقًا يمكنها الذهاب إن أرادت.

لم تنتظر لتسمع المزيد، تحاملت على آلامها، لملمت جراحها، استندت على يديها، نهضت بعد معاناة، قدماها تزحفان على الأرض، ترنحت كأن إعصارًا يتلاعب بها، طوّقت جسدها بذراعيها، كادت تسقط فالتجأت للجدار، سارت بحذائه حتى وصلت الباب، رمقت الجميع بنظرات ككرات اللهب، نزلت درجات السلم بمشقة وظهرها للحائط، تركت لقدميها الواهنتين حق تقرير مصيرها!

مسافة قليلة قطعتها وأتى صوت سيارة مسرعة من الخلف.

اقتربت منها وتوقفت فجأة، صوت من داخلها ارتفع:

ـ تذكر! سأوصلها لأول الطريق فقط.

ترجّل من السيارة مَن لم يشاركهم الجريمة للنهاية، وقف أمامها وعيناه إلى الأرض:

ـ يمكننا أن نوصلك لأقرب مكان تستقلين منه سيارة.

أخرج بعضًا من النقود، وضعها في يدها وأغلق كفّها بصعوبة! لكنّ يدها سرعان ما انفكّت لتتساقط النقود منها تباعًا!

حدّقت بوجهه بعنف، ثم أتمت مسيرتها الأليمة كأن أذنها لم تلتقط من كلماته شيئًا!

باب السيارة انغلق بقوة؛ لتنطلق بأقصى سرعة حتى اختفت عن نظرها.

دقائق قليلة لم تنقضِ إلا وأعلنت الطبيعة عن غضبها الجمّ! برق كاد يخطف الأبصارَ، رعد زأر في الأعالي.. دموع السماء انهمرت بغزارة حزنًا على الشرف المنتهك والمروءة الضائعة.. غاصت قدماها في الأوحال، الصقيع اخترق جسدها الواهن، ترنحت يمنة ويسرة، بلغ الإعياء منها مبتغاه، سقطت أرضًا بلا حراك.

تمسكت أجفانها ببعضها باستماتة وهي تحاول تفريقها حتى تمّ لها ذلك.. عيناها تجولتا في أرجاء المكان: غرفة صغيرة تحوي من متاع الدنيا النذر اليسير.. جسدها اختفى تحت عدة أغطية أغلبها بالية فوق سرير تنم ملامحه عن عمره الطويل.. عقلها عاود بعضًا من نشاطه.. عدة أسئلة بدأت تتصارع داخلة.

آخر ما تذكره، سقوطها من الإعياء في قارعة الطريق وقطرات المطر تخترق جسدها كطلقات الرصاص، فقدها الإحساس بأعضائها شيئًا فشيئًا كأن روحها تبغي الفرار.. دخول عقلها في سبات عميق.

وسط ذكرياتها تلك، التقطت آذانها صوت وقع أقدام على السلم الخشبي تقترب.. بعض من الخوف تسلل إلى نفسها. الباب ينفتح ببطء ينم عن حرص صاحبه ألا يكسر الهدوء، دخل وأغلق الباب ببطء أكثر، ملامحه تزداد وضوحًا كلما أوغل في اقترابه: رجل يبدو أنه تجاوز الخمسين، اشتعل رأسه شيبًا، ملابسه الرديئة مع تقاسيم وجهه الحزينة تدل على شدة صراعه مع الحياة.

حاولت الاعتدال من استلقائها مع قليل من قلق طغى على وجهها، أوقف حركاتها بصوته الدافئ:

ـ لا عليكِ بنيتي، عودي كما كنت ولا تجزعي، هكذا أمر الطبيب.

نزلت كلماته عليها بردًا وسلامًا، بالغت في إخفاء جسدها تحت الأغطية.

وضع بعضًا من الحقائب البلاستيكية فوق منضدة متهالكة، أتم حديثه:

ـ وجدتكِ ملقاه في وسط الطريق فاقدة للوعي فجرًا وأنا ذاهب إلى عملي، لم أجد سبيلًا إلا إحضاركِ إلى هنا وأنتِ على مشارف الموت. انطلقت أبحث عمن ينقذكِ، لم أجد سوى طبيب يسكن مع أمه بأطراف المكان، فقام بعمل كل ما في وسعه. وصف لكِ بعضًا من الأدوية،

وتشاركنا أنا وهو في ثمنها، ووعد بأن يأتي في وقت لاحق ليطمئن عليكِ. اكتفى بوصف حالتكِ بأنها إعياء شديد من شدة البرودة وقلة الطعام، لكن حدسي يخبرني بأن الأمر يفوق ذلك!

رسم القلق ملامحها من جديد، أدارت وجهها للجهة الأخرى تلقاء الحائط.

أسرع بطمأنتها:

ـ لا تقلقي يا بنتي، فلن أطلب منكِ أن تخبريني بقصتكِ إلا إن كانت لديكِ رغبة في البوح، دعيني أعد بعضًا من الطعام لكلينا.

لم تنطق بكلمة، تحدّث نفسها بأن الله أرسل لها من أنقذها من أنياب الموت، أحقًّا لا تزال الدنيا بخير! ذلك أمر أحست أنه تلاشى عند اختطافها.

قطع خيالاتها صوته يتساءل:

ـ ألن تخبريني باسمكِ حتى يمكنني التواصل معكِ؟

بتلعثم حاولت إخفاء قلقها:

ـ ألم تدعني سابقًا بابنتك، فلِمَ لا تختر لي اسمًا بنفسك؟

نظر إليها بابتسامة تدل على إدراكه أنها تحاول إخفاء حقيقتها:

ـ حسنًا يا بنيتي! ما رأيكِ باسم (آمال)؟ هذا اسم محفور بداخلي، فهو اسم حبيبتي التي أبى القدر أن يجمعنا سويًّا بعد قصة حب صمدت لسنوات.

اقترب من النافذة، التفت نحوها بتأثر:

ـ أتودين أن أقص عليكِ نتفًا من حكايتنا؟

أجابته باهتزازات وجِلة من رأسها، فانهمرت من لسانه الكلمات:

ـ كانت الحب الصادق في مقتبل الحياة، سئمت وعودي التي لا تتحقق بأن الغد سيكون أفضل، وضاقت بأحلامي التي جفاها الواقع!

ـ بعد طول صبر لم يأتِ في ختامه الفرَج؛ فرّت نحو حضن زوج يكبرها بثلاثين عامًا عله يعوّضها عمّا قاسته من حرمان!

ـ لكن الشهر لم ينقضِ إلا وأحال حياتها جحيمًا بغيرته القاتلة، كان يوبّخها على كل فعل وأي تصرّف حتى على نظرات الآخرين لها!

ـ عندما استحالت عشرتها معه؛ وعدته بأنّها لن تطالبه بشيء إن طلقها، لكنّه أصرّ على الرفض. فتحملت وثابرت واستمسكت. لكنها في لحظة غياب تعقّل، قتلته عندما طعنها في شرفها!

استمعت لكلماته بشغف كبير انتشلها من آلامها.

عيناه فارتا بالدموع، تساقطت على خديه ولم تسعفه يداه ليكفكفها، ألقى بثقله على المقعد المتهالك، أسند رأسه للخلف:

ـ طرقت عليّ الباب بتعجّل يعكس اضطرابها، فتحْته مسرعًا فدخلت تنتفض كأن بأحشائها حمم بركان في

أوج ثورته! هيئتها تجلب الفزع! دماء تكسو وجهها وملابسها! لم تنطق سوى بكلمة واحدة رددتها مرتين: «قتلته، قتلته»!

نزلت كلماتها على مسامعي كالصاعقة! نفسي ترتعد.. في بيتي قاتلة! استولى الجبن تمامًا على عقلي، انطلقت نحوها، يد تقبض على شعرها والأخرى بملابسها من الخلف! جررتها على الأرض جرًّا وهي تستحلفني بما كان بيننا من شوق. ألقيت بها خارجًا وبدم كالثلج وقلب يابس أغلقت الباب بإحكام.. بخطوات متثاقلة توجهت نحو النافذة أتتبع حركاتها.. رأيتها وهي تتراجع إلى الخلف وسط الطريق، رمت ببصرها نحوي، صرخت بكلمات لم يصل لسمعي منها شيئًا، وفجأة! وقف شعر رأسي من هول ما رأيت.. سيارة مسرعة صدمتها من الخلف! دارت دورتين في الهواء وسقطت خلف السيارة التي لاذت بالفرار! أشارت إليّ بيدها إشارات توحي بأنني السبب في كل ما لاقته! سرعان ما ارتطمت يدها بالأرض، ارتجف جسدها بعنف، ثم توقف فيها كل شيء يدل على الحياة!

نهض وضرب الحائط بقوة، ردد كلمات تخنقها الدموع:

أنا من قتلتها.. قتلتها مرتين: مرة عندما تركتها تتزوج بذلك اللعين، والأخرى عندما طردتها من بيتي، أنا آخر ما وقعت عليه عيناها ولن أنسى آخر نظراتها لي ما حييت!

حدثت نفسها:

ـ لست الجريحة وحدي، فالكل مِنْ داخله يتألم!

مسح دموعه بأطراف أكمامه:

ـ أغرقتك في ذكرياتي الأليمة ولم أعدّ الطعام. اعذريني يا ابنتي.

وشرع يكمل ما بدأه.

استرجعت كلماته بداخلها، قارنت ما حدث لها بالذي أصاب تلك المرأة؛ رغم الاختلاف الكبير بين ما وقع لكليهما، ترسّخ بداخلها شعور بأنهن ضحايا هذا المجتمع وذلك الزمن، زمن لا يحرّك فيه أحد ساكنًا طالما أنه ليس المضار، لا يكلف نفسه عناء مساعدة الغير حتى وإن كان هو أمله الوحيد للنجاة، يرفع الجميع شعار: أنا ومن بعدي فلتحترق الدنيا!

أعادها صوته للواقع:

ـ انتشلنا الماضي من حاضرنا ونسيت أن أخبركِ باسمي، أُدعى بين الناس (صابر) وكما قال المثل «لكل امرئ من اسمه نصيب».

قالها مع ابتسامه طفيفة أبت قسمات وجهه إلا أن تخفيها سريعًا، قدّم لها بعضًا من الطعام، وهي لا تزال فوق السرير تحت الأغطية، أحضر ذاك المقعد المتهالك ووضعه قرب السرير، جلس ينظر إليها كأنّه يتفحص وجهها، أعادت نظراته بعضها من الاضطراب لنفسها. ألصق ظهره بظهر المقعد:

ـ إحساس بداخلي يخبرني بأن بداخلكِ الكثير من الأسرار!

دق قلبها بعنف، اهتز الطبق في يدها!

شعر بقلقها فطمئنها على الفور:

ـ لا أريد اقتحام أسرارك، فكما قلت سابقًا لن أسالكِ عنها إلا إذا طلبتِ مساعدتي. ما رأيكِ بأن أعلمك بقصتي، أترغبين بسماعها؟

أومأت برأسها أن نعم.

تنهيدة عميقة كانت بداية لحديثه الطويل:

ـ حكايتي يمكن وضعها تحت عنوان «كمن يستجير من الرمضاء بالنار».

تظهر على ملامحها أمارات التعجب، كلماته توحي بأنه على قدر من التعليم والمعرفة؛ لكن هيئته أبعد ما تكون من ذلك!

تابعت كلماته الانهمار:

ـ نشأتُ في أسرة فقيرة رغم أنها كانت صغيرة، بالكاد كان أبي يستطيع تدبير احتياجاتي الدراسية، لازمتني تلك الظروف طويلًا إلى أن تخرجت من كلية التجارة، حاول أبي مرارًا أن يجد لي عملًا معه في مصلحة البريد لكن محاولاته جميعها باءت بالفشل، بعد أن تملكه اليأس، بدأت كلماته لي يومًا بعد يوم تزداد قسوة! أراد أن يسقطني عن كاهله ويدفعني للخروج. وصلت لمرحلة لم أعد أقوى فيها على الاحتمال، بحثت في كل موضع عن عمل يناسبني ولو بأقل القليل وضاعت أيضًا محاولاتي سدى، فعزمت على الرحيل للخارج مهما كانت التبعات.. في تلك الأثناء علمت أن أحد أصدقائي تخرّج

من كلية الهندسة بعد معاناة، وافتتح لنفسه ورشة لإصلاح السيارات، ذهبت إليه، رجوته أن يمنحني عملًا عنده، وافق على مضض ممنّيًا نفسه بأنّني لست أهلًا للشقاء، ولن أقوى على احتمال ذلك العمل الثقيل. ونظرًا لعملي في تلك الورشة تعلمت قيادة السيارات وكل شيء عنها.

- ذات يوم وجدت أحد الأثرياء يطلب من صاحبي هذا أن يرشّح له سائقًا محترفًا، قلت في نفسي تلك فرصة إن لم أغتنمها لن تعود، فعرضت خدماتي على ذلك الثري. وجدها صاحبي فرصة ليتخلّص منّي فزكّاني أمامه، وبالفعل أصبحت سائقه الخاص، كنت له كظله. أينما ذهب أكون معه حتى إنه كان يصطحبني في بعض أسفاره للخارج! ساعدني تعليمي في إدراك ما يدور حولي، وجدته رجلًا لا يرقب في الله إلّا ولا ذمة! لا يرحم مَن بكى ولا يرق لمَن شكا! مَن يسقط أمامه تكون تلك نهايته! ساهمت تعاملاته القاسية في أن تصنع له المهابة والرعب لدى منافسيه. كل ما كان يشغلني في ذلك الوقت هو جمع المال من حِلّه ومن غير حِلّه، ذلك المال الذي كان السبب في فقدي لتوءم روحي!

- ترجّاني أبي لأترك العمل مع ذلك الرجل. كان يقول إن لحمي ينبت من حرام وما نبت من حرام فالنار ستحصده. لكن الشيطان كان آخذًا بزمام عقلي فلم أعر توسلاته انتباهًا حتى تبرأ منّي وأعلن ذلك على الملأ! ولكن ذلك لم يفتّ في عزمي!

دموعه عاودت سيرتها الأولى عند قوله:

- نسيت قول الله (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار).

استمعت بكل ما فيها- انتشلتها حكايته من جب أوجعها.

أدار وجهه تلقاء النافذة:

- ذات يوم سمعت داخل أحد مصانعه هياجًا وضوضاء شديدة، استفسرت عما حدث، فعلمت أن أحد العمال أصيب بالصمم، وأن البقيّة يطالبون صاحب المصنع أن يعالجه كما ينص على ذلك قانون العمالة، لكن عزم صاحب الشركة استقر على شيء آخر! أراد أن يعالج الأمر بطريقته الخاصة، تُسكِت العمال قسرًا وتُسكِت ذلك الرجل للأبد!

بعضًا من دموعه تسربت إلى داخل فمه:

- عهِد إليّ بإخراج ذلك الرجل من الدنيا وإلا فسيخرجني أنا أيضًا منها! كنت أعلم تمام العلم إن رفضت أن مصيري إما السجن، وإما القبر وكلاهما سواء.
- حدثني شيطاني بأن هذا الرجل ميّت لا محالة، بيدي أو بيد غيري فلِمَ لا أنجو بنفسي، بعد طول تفكير عزمت على إتمام الأمر! بدلت لوحات السيارة، انتظرت اللحظة المناسبة، اعتمدت على صممه، فاستعملت آلة التنبيه مرارًا حتى لا يبدو الأمر أمام المارة أنه متعمدًا، صدمته بمنتهي القوة لضمان وفاته فورًا واختفيت في لمح البصر!

قلبها كاد يفرّ من قفصه عند سماعها لتلك الكلمات! انتابتها رعشات متتابعة، وضعت يديها على فمها، تحجّرت الدموع بمقلتيها:

هي الآن مع قاتل أبيها! اعترافاته لا تترك ثقبًا للشك في هذا!

أحقًّا هذا الذي يحدث لها! أم أنها في حلم مفزع لم ينته بعد!

أحسّ باضطرابها المفاجئ، نظر إليها بأسى:

ـ أعلم ما يدور بداخلكِ فأنا حقًا رجل بلا مروءة ولا قلب، لا أستحق حتى أنفاسي هذه، ولكن لحكايتي تتمة: القدر لم يمهلني كثيرًا؛ حب عمري ماتت أمام عيني وبيدي! اشتريت منزلًا كبيرًا بكل ما أمتلك من مال، فوقعت ضحية أحد المحتالين، فقد باع المنزل قبل ذلك مرارًا وأخذ أموال الجميع وهرب! اضطربت حياتي بشدة في تلك الآونة. بدا تأثير ذلك واضحًا على عملي حتى كدت أتسبب في مقتل وليّ نعمتي ذات يوم! وهؤلاء ينطبق عليهم قول الله (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة).. فطردني شرّ طردة. عندها فقط أدركت آخر كلمات أبي: «يا بنيّ احذر! يد الله لا تفلت المفسدين».

أخذ نفسًا عميقًا، نظر لسقف الحجرة بعيون تائهة:

ـ يرحمك الله يا أبي، يرحمك الله، كأنك كنت تقرأ الغيب!

هي لا تزال على حالها، تبحر في دنيا أخرى!

أكمل:

ـ تنقّلت من مكان إلى مكان حتى استقر بي المقام هنا، أكسب قوت يومي بعملي في أحد الأفران.

اعتدل في جلسته:

ـ آه من تلك الدنيا، هي بحق كما قال القائل: «يوم لك وسنون عليك»!

لمست تلك الكلمات وجدانها، حدثت عقلها:

يوم لك!! حتى ذلك اليوم لم تشهده!

وصل لسمعهما صوت أقدام تقترب، طرقات خفيفة على الباب أوحت بأدب الطارق، فارق (صابر) مقعده ليفتح، بابتسامة تظهر ملامحها في كلماته رحّب بالضيف:

ـ أهلًا دكتور (عُمر)، تفضل بالدخول.

ظهر شاب طويل وجهه الوسيم ينطق بالطيبة، أوحت ملابسه برقّة حالة! عيناه مليئة بحزن عميق. تقدم خطوتين، توجه نحوها بالكلام:

ـ كيف حالكِ اليوم؟ نتمنى من الله أن تكونِي أفضل حالًا عن ذي قبل.

اعتدلت في السرير، ببطء أجابت:

ـ أشكرك، أحمد الله على كل حال.

أخذ (صابر) بيد ضيفه نحو أقرب المقاعد:

ـ استرح قليلًا، سأعدّ بعضًا من الشاي.

أبدى الضيف بعض التعفف، أصر صاحب الغرفة على موقفه، انفردت ملامح الخجل بالظهور على وجهه، فرت الكلمات من فوق لسانه، أطلق نظرةً صوب الأرض وأتبعها بأخرى نحوها، أخرجه من حالته تلك صوت (صابر):

ـ سامحني الله، نسيت إحضار ما تبقى من الحقن، سأحضرها على الفور.

قفز الدكتور نحوه:

ـ دع هذا الأمر لي يا أستاذ (صابر).

انتصر الآخر لنفسه:

ـ لا والله، أنا المخطئ وسأتحمل نتائج خطئي، سأدع لك إتمام أمر الشاي. كن كأنك في بيتك، سأعود بأقصى سرعة. وأسرع إلى الخارج.

اعتدل (عُمر) في جلسته، بدى كأنه يرتّب كلماته قبل أن يطلق عنان لسانه.

أحسّت هي بذلك، فعزمت على أن تخرجه من حيرته:

ـ جزاك الله خيرًا، جزاءَ ما قدمت لي.

شعر بأن كلماتها تدفع لسانه ليقوم بدوره، فقال بهدوء شديد:

ـ أنا لم أفعل شيئًا، ذلك فقط ما أملاه عليّ ضميري، أي شخص آخر سيقوم بأفضل مما قمت به.

حرّكت كلماته أحزانها، نطقت كأنّها تحدث نفسها:

ـ هذا زمن انقرض منه هذا الشخص الآخر!

تلك فرصته ليخرج ما بداخله، جلس على النصف الأمامي للمقعد، نظر في عينيها:

ـ ما رأيته في الصباح يدل على جريمة وقعت تحت جنح الليل، الكدمات والسحجات بأنحاء جسدكِ لا تدع

مجالًا للشك في هذا! آثار حبل على عنقكِ استعصى عليّ فهمه، أكابد عقلي كي لا أبني استنتاجات على ما رأيت وأرجو أن تريحيني من عنائي.

فأشاحت بوجهها عنه للجانب الآخر:

ـ دع عقلك يستنتج ما يشاء.

نهض مع غضب اضطرم بأعماقه:

ـ ساعديني كي أساعدكِ، صمتكِ هذا هو ما يريده الجناة، ساندي المجتمع حتى يلفظ أقذاره.

ترقرقت بعينيها الدموع:

ـ ما قولك إذا كان المجتمع هو الجاني!

عبارتها أصابته بما يشبه الصدمة:

ـ المجتمع هو الجاني! كيف ذلك؟!

تعود لصمتها تاركة لنحيبها حق الرد.

كاد يصرخ:

ـ بالله عليكِ، لا تتركيني هكذا، كلامكِ يحتمل أكثر من معنى!

استجمعت كل ما تبقى لديها من جَلد، أخرجت كلماتها بصعوبة بعد أن أعادت وجهها ناحيته:

ـ أرأيت يومًا ذبيحة؟

ـ ذبيحة؟!

قالها بدهشة نطقت بها عيناه.
أعادت ما قالته:
ـ أرأيت يومًا ذبيحة؟!
بدهشة أكبر أجاب:
ـ وما دخل الذبائح فيما نتحدث عنه؟!
قالت بغضب:
ـ فقط أجبني.
أجابها ودهشته كادت تقتله:
ـ نعم، رأيت منها الكثير!
في عجالة أكملت:
ـ برأيك أيؤلمها الذبح أم السلخ؟!
واصل أجوبته رغمًا عنه:
ـ يؤلمها الذبح فقط، فقبل السلخ تفارقها الحياة.
كادت الدموع تخنقها:
ـ هذا فقط، ما ينبغي عليك معرفته.
أدرك أنّها ستعاود صمتها، فبادرها بلهجة لا تخلو من الغضب:
ـ إن كنتِ صادفتِ السيئ من أصناف البشر؛ فلا يزال هناك الكثيرون تؤلمهم آلام الآخرين، يهرعون لإغاثة اللهفان، وينصرون المظلومين، ويعينون على نوائب الدهر.
أدارت ظهرها تجاهه:
ـ هؤلاء في عقلك فقط!

أدرك الطبيب أن مبتغاة صعب المنال، فقال:

ـ اعلمي أنكِ بصمتكِ هذا تفتحين أبواب المذبح!

وقعت تلك العبارة على مسامعها كوقع سكين ملتهب غُرس بين ضلوعها، فاستدارت إليه:

ـ أنت الآن مثلهم تلقي بالتبعات على الضحية بدلًا من الجلاد!

رد مسرعًا:

ـ إذًا قومي بدوركِ لنقضي على الجلاد، إخفاؤكِ لما حدث يمهد الطريق لسقوط المزيد والمزيد من الضحايا.

بدت كأنها ستلقي بآخر كلماتها:

ـ لو قام الآخرون بأدوارهم؛ ما أصبحت الآن أحد الضحايا!

طرقات خفيفة على الباب أعادت (عُمر) لمقعده، حاول وأد غضبه، رسم على وجهه ابتسامة زائفة.

أما هي فمسحت دمعاتها بطرف أحد الأغطية، اعتدلت في استلقائها وسط السرير.

انفتح الباب، دخل (صابر) وبيده ما ذهب لإحضاره من حقن، وضعها على المنضدة، فرك يديه محاولًا تدفئتها:

ـ معذرة إن كنت تأخرت، فمياه الأمطار لا تترك مجالًا للسير.

أدرك من الوهلة الأولى أن ثمة أمرًا تغيّر؛ بقايا دموع على وجهها وشرود أعقب الابتسامة على وجه الطبيب، أكدا ذلك

الشعور! خبرته الكبيرة في عراكه مع صعاب الحياة علمته كيف يدفن فضوله، توجه نحو موقده الصغير وأشعله، وبلهجة ضاحكة بذل معها جهدًا كي تبدو حقيقية قال:

ـ لم أعلم يا دكتور أنك كباقي الأطباء تكره المشروبات التقليدية!

نهض الآخر من مقعده مقتربًا منه:

ـ لِمَ لا تقل إني لا أريد أن أشربه إلا من يدك!

أحس أن ملامحه لا تؤيد كلماته فأسرع نحو المنضدة محاولًا إعداد الحقن.

هي وسط السرير لا تحرك ساكنًا، أنفاسها كلهيب يخرج من أتون متقد!

أتمّ الطبيب ما بدأه. توجّه نحوها وبيده من الحقن اثنان، وضع إحداهما على الوسادة. ببطء كشفت عن ذراعها، تعمّد إيلامها عند غرس الإبرة لكنها بدت كجسد هجرته الأحاسيس! اتبعها بالأخرى على الفور، فلم تكن أحسن حالًا من سابقتها! عيناها غاصتا بنيران الموقد، لهيبه يظهر جليًّا داخل مقلتيها، يبدو أنها لم تجد غيره ليعكس ما بداخلها! يدّ مَن أشعله امتدت لتطفئه، أحست أنّها امتدت لتطبق على أنفاسها، زفرة من أنفاسه قضت على نيرانه تمامًا لكنها لم تفلح في إطفاء نيرانها!

قدم لها (صابر) كوبها، قبضت عليه تعتصره بكلتا يديها المستقرتين على الأغطية فوق رجليها، عيناها وجدتا بغيتهما في أبخرة الشاي وهي تفارق منبعها تحلق في الفضاء.

بضع كلمات من حديث الاثنين وصل إلى سمعها، لم يعر عقلها انتباهًا إلا لعبارة الطبيب الغاضبة وهو متجه صوب الباب:

ـ انتهي من كوبك هذا واخلدي إلى النوم، وبإذن الله غدًا تتحسن حالتك كثيرًا.

نظرت له نظرات شاردة كأنها تشكك في كلامه. لم يبادلها بمثلها. حيّا صاحب المكان وانصرف. تتبعت بسمعها وقع قدميه تبتعد حتى تلاشت، أحسّت أنّها فقدت شخصًا ربما يشاركها آلامها.

يد (صابر) امتدت لتأخذ الكوب من يديها:

ـ دعيني أعيد تسخينه لكِ فقد أصابته البرودة.

أجابته وهي تحاول الاختفاء تحت الأغطية:

ـ لا ترهق نفسك، يكفيك ما تكبدته لأجلي.

قلبها لم يطاوع لسانها لتظهر الشكر في كلماتها، فهي لم تنس بعد أنه قاتل أبيها على الرغم من كل ما قدمه لها. جفونها لم تقوَ على مقاومة النوم الذي بدأ يراودها، فاستسلمت له حتى يتسنّى لعقلها أن يأخذ هدنة، علّه يستوعب واقعها الأغرب من الخيال!

عادت إلى الدنيا على صوت طرقات عنيفة لم يقو الباب الهش على احتمالها، أسكنت قلبها فزعًا لم يفارقه سوى من قليل! تراجع الباب رغمًا عنه ليكشف النقاب عن جسدين ضخمين، بادرها أحدهما بصوته الأجش:

ـ أين (صابر)؟

انخلع قلبها من هيئتهما فلم تقو على فتح فمها، توجه نحوها الثاني يريد صفعها، فأثناه الأول عن عزمه:

ـ لا، لا تفعل، يبدو أنها بنت ليلتها ولا تعلم حتى باسمه.

أجابه الثاني بدهاء:

ـ لِمَ لا تكون أخته؟ فعلى حد علمي أنّ له أختين، أو ربما تكون زوجته.

أطرق الأول مليًّا ليفكّر بكلمات رفيقه.

فأتم الآخر حديثه يحاول إثبات وجهة نظره:

ـ لو كانت كما تقول فتاة ليل، ما تركها بمفردها في حجرته وذهب.

تعجب الأول من كلام صاحبه! فلم يعهد منه ذلك التفكير السديد على طيلة معرفته به. لكنه لم يلبث قليلًا حتى اقتنع تمامًا ليقول:

ـ سننتظر ريثما يعود، فإن لم يرجع، نأخذها معنا رهينة حتى يأتينا راكعًا.

هي ثابتة وسط السرير كأن جبلًا فوق رأسها! كاد الرعب يذهب بما تبقى من صوابها. لم تلتئم جراحها بعد من طامتها الأولى حتى تغوص في وحلٍ آخر!

ما هذا الذي يحدث لها؟! أكل شرار العالم يتتبعون خطواتها؟! أم سلكت رغمًا عنها طريقًا بلا نهاية؟! يبدو أنها وقت دخولها تلك السيارة اللعينة قد خرجت من نطاق الأرض!

يد قوية ضربت رأس السرير قرب رأسها مع ذلك الصوت الأجش:

ـ سنضيّف أنفسنا عندكِ حتى يعود البطل، ولكن حذار أن تخرجينا عن أدب الضيوف.

ضحكات خبيثة انطلقت من الآخر وهو يشعل الموقد:

ـ سأعدّ مشروبًا يذهب بذلك البرد القارس.

دقّ قلبها بعنف، عقلها توقف عن العمل، أسندت ذقنها لركبتيها المتلاصقتين بفعل يديها وعيناها معلقتان بالباب.

اقترب أحدهما من النافذة ونظر في ساعته:

ـ تقترب الساعة من منتصف النهار، وعلى حد علمنا هذا موعد عودته.

حدّق الآخر في جسدها:

ـ لمَ لا نستمتع باللحظات حتى يعود؟

جلس بجوارها، اقترب أكثر فأكثر حتى لامسها، يده امتدت نحو وجهها.

لم تدر بنفسها إلا ويدها تنهال على وجهه في صفعة مدوّية!

كاد ينفجر من الغضب، ردّها لها بوابل من الصفعات والشتائم. لم يبدُ عليها التأثر سوى من آثار أصابعه على خديها! أسرع زميله يمنعه من استكمال مسلسل الصفعات فأفسح مجالًا لبعض من الدماء لتخرج من أنفها.

اقترب منها الآخر:

ـ الآن سنلتزم الصمت فإياكِ أن تصدري صوتًا يساعد صيدنا على الفرار، إني أُحذركِ.

لم تلق بالًا لتهديداته، فقد عزمت على أمر آخر.

صوت أقدام على السلم الخشبي، أسرع أحدهما يختبئ خلف الباب شاهرًا مسدسه. الثاني التصق بالحائط موجهًا سلاحه صوبها.

يبدو أن القادم يحمل ثقلًا في يديه، قدماه تتباطآن كلما زاد في اقترابه دليلًا على تعب أصابه.

رغم أن مشاعرها تجاهه متضاربة، لكنها أرادت القضاء على أي ذرة جبن بداخلها حتى لا يكون بينها وبين الجبناء شيء مشترك، استجمعت قواها، انتظرت اللحظة المناسبة حتى أحست أنه اقترب بما فيه الكفاية، وضعت كل قواها في صوتها وصرخت:

ـ اهرب يا (صابر)، اهرب.

لم يكذّب الآخر الخبر، صوت ارتطام الأكياس التي أحضرها بأخشاب السلم، اختفى خلاله صوت قدميه تعانقان الريح!

أسرّع الذي خلف الباب نحو النافذة ليصيبه، لكن الفشل كان حليفه. التفت إليها، ملامح الغضب ارتسمت على وجهه، صوّب سلاحه نحوها للحظات، ثم فجأة نحّاه جانبًا! نظرات عينيه لها تغيرت، هي تعرف تلك النظرات، توحي بأفكار خبيثة تموج في خاطره! تقدم نحوها، وضع إحدى قدميه على السرير، اقترب برأسه ونظر في عينيها:

ـ هناك مثل يقول «على نفسها جنت براقش» فلا تلوميني على الآتي، قد حذرتكِ ولكن يبدو أنك من النوع العنيد، وأنا أعشق هذا النوع.

التفت إلى رفيقه:

ـ قيدها جيدًا وألقها في حقيبة السيارة، فربما تكون ذا أهمية ويأتينا بدلًا من ملاحقته.

تعلمَت أن المقاومة لا تفيد مع هذا النوع من البشر، فاستسلمت له حتى أوثقها وثاقًا لا فكاك منه.

ما هي إلا لحظات حتى أصبحت في مؤخرة السيارة، اهتزت السيارة لحظة ركوبهما، بدأ المحرك في العمل، أحسّت بانطلاقها تفارق المكان، إحساسها بالوقت يتلاشى وسط الظلام. ظلت هكذا الفترة لم تعرف مقدارها.

وفجأة! اخترق الضجيج سمعها، ربما هذا وسط المدينة! تباطأت السيارة في المسير نتيجة الزحام، توقفت للحظات ثم عادت بعدها لما كانت عليه، ضربت بقدميها ويديها جنبات السيارة، لعل وعسى! فقدت الأمل عندما بدأ الضجيج يبتعد، صوت المحرك وحيدًا كسر الهدوء، تقل سرعتها شيئًا فشيئًا حتى توقفت، أتبعها صوت المحرك، شعرت بهما يغادران السيارة، يبدو أن هذا مكان استراحتهم.

أسئلة بلا أجوبه ترقد بجوارها:

ـ من هؤلاء؟ وما علاقتهم بـ (صابر)؟ ولماذا يطاردونه؟ ولماذا لم يكملوا السير حتى وجهتهم الرئيسية؟

مرّ الوقت حولها ببطء قاتل، برقت عيناها فجأة، عقلها ربط بين حديث (صابر) وما حدث الآن! ربما لم يقل الحقيقة كاملة. يبدو أن تحت يديه شيئًا يدين رب عمله السابق.

ما كادت تنطقها ألا ودموع أطلت من عينيها، طافت بذاكرتها لحظات قضتها مع أبيها، قبل أن تُسكَت أنفاسه على أيدي أولئك الطغاة.

انقضى وقت طويل وهي على حالتها تلك. فجأة! يدٌ فتحت حقيبة السيارة، ضوء تسلط على وجهها دفعها لإغلاق عينيها، ذلك الصوت عاود النطق:

ـ الآن حلّ الظلام وأنا أعشق الظلام، لا تقلقي كلها بضع ساعات وننظر في أمركِ فاستعدي للانطلاق.

انسحب الضوء فأطبق عليها الظلام إثر إغلاق باب الحقيبة، صوت الأبواب الأخرى أغلقت، عاود صوت المحرك الظهور فانطلقت السيارة نحو بغيتها.

يبدو أن السيارة انفردت بالطريق، سرعتها لا تتوقف عن الازدياد. طرقات بالقرب من رأسها لا تتوقف هي الأخرى عن الازدياد، آه! إنها الأمطار بدأت تسمع صوت الإطارات تشق الماء الذي يحاصرها.

فجأة! وقع شيء غريب! السيارة ترنحت من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار كأنّ يدًا تلاعبت بها، قائدها بدا عاجزًا عن جعلها تستقيم!

أطلقت الصرخات، تشابكت صيحاتها مع صيحات مَن بالأمام! صوت ارتطام قوى طغى على أصوات الجميع، ارتطم جسدها بمقدمة حقيبة السيارة، تبعتها رأسها في صدمة قوية هي الأخرى! شعرت أن أضلاعها تبادلت أماكنها.. أحست بسخونة الدماء تنساب من مؤخرة رأسها، أطلقت صرخات مكتومة من فرط الألم.

باب الحقيبة انفتح رغمًا عنه من شدة الاصطدام. أبصرت عيناها أضواء خافتة تكسر حدة الظلام. لم تلتقط أذناها أصواتًا لسيارات أخرى، يبدو أن الجميع آثر السلامة عن السير في تلك الاجواء. نادت وصرخت بكل ما تبقى من قواها، حتى أصابها اليأس، لا مفر سوى الاعتماد على النفس، حاولت الالتفاف لتجعل قدميها في الأمام. بعد عدة محاولات تم لها ما أرادت، ما إن انتصبت واقفة حتى هوت على الأرض! قدماها ملتصقتان بشدة، لا مفر سوى الزحف، من بعيد بدت كثعبان تائه يتحسس الأرض.

ها هي قد اقتربت من مقدمة السيارة، استندت لصفائحها المحطمة، حاولت الوقوف: يا الله! ما هذا الذي ترى؟

السيارة احتضنت الشجرة كأنها زرعت بداخلها! عجلة القيادة تغوص في صدر أحدهما تشتبك مع أضلاعه! رأس الآخر تدلّى من خلال الزجاج المهشم كالمذبوح، دماؤه تتدفق بغزارة. تنصت، يلفظ أنفاسه الأخيرة، الآن لحق بصاحبه.

شعرها كاد يشيب! كل ما فيها انتفض، لا تدري ماذا تفعل؟ لمحت عيناها قطعة زجاج كبيرة مثبتة خلال صفائح السيارة المتداخلة، تقدمت منها ببطء، وضعتها بين يديها، بدأت في حزّ القيد، خانتها قواها فألقت بنظرة تجاه القتيلين فأسرعت يداها من تلقاء نفسيهما. أحسّت بالحرية فهوت تفكّ قدميها، من تعجّلها تزيدهما تعقيدًا. امتدت يدها لتعود بقطعة زجاج قامت بالمطلوب.

كل ما يشغلها الآن الفرار بنفسها، الطريق لا يزال خاليًا، ربما هذا من حُسن حظها، تقدمت نحو أحد القتيلين، أدخلت يدها في جيبه، أخرجت بعض النقود، أخذت في الابتعاد!

ما إن اعطت ظهرها لذلك المنظر البشع وكأن الأرض انطوت تحت قدميها، السماء لا تزال تبكي بحرقة، ارتطام الماء بالأرض دفعها للمضي قدمًا، مسافة طويلة قطعتها، بدأت قواها تخور، رأسها كاد يصل الأرض، استسلمت للجلوس بجوار أحد الأعمدة.

آه، اقترب ضوء من بعيد، بدت كسيارة نقل ثقيل، بكل ما فيها لوّحت بكلتا يديها، في إحداهما النقود، لكن السيارة لا تزال بكامل سرعتها حتى تخطّتها! عيناها تكادان تستجديها.

فجأة! توقفت السيارة، عادت بسرعة للخلف، توقفت أمامها! تذكرت على الفور مشهد اختطافها، لكن هيئة قائدها طردت تلك الوساوس بعيدًا. رجل تبدو عليه علامات الصلاح، بدا كمن يلوم نفسه عندما حدثته بتركها، لم تعد بها طاقة لإخراج الكلمات.

ترجّل من سيارته، ساعدها على الصعود لتجلس بالمقعد الذي يجاوره، نظرات عينيها تشكره، سرعان ما انطلقت السيارة. تملكها التعب، أغلقت أجفانها فغرقت في سبات عميق.

يد امتدت لتوقظها برفق، فتحت عينيها ببط، لا تصدّق ما تراه! أحقًّا تلك أضواء القاهرة!

صوت حنون داعب أذنيها:

ـ بنيّتي نحن الآن على مشارف القاهرة، أين تريدين النزول؟

هوت على يديه تقبّلها، فمنعها برفق:

ـ لا تشكريني، اشكري الله.

عرضت عليه نقودًا، فرفض بإصرار. حاولت ترتيب الكلمات، نطقت ببعض منها:

ـ كل عضو فيّ يعجز عن شكرك.

رد ببعض الخجل:

ـ لا عليكِ يا ابنتي، يكفيني تلك النظرات بعينيكِ.

أشارت لموضع بالرصيف:

ـ يمكنك أن تُنزلني هنا.

توقف، نزلت ببطء، أشارت له وهو يبتعد، تتبعه بنظرها حتى اختفى، نظرت لجنبات الطريق، حركة السير أشارت إلى أن الليل في ثلثه الأخير.

لوّحت لسيارة أجرة، توقفت أمامها إحداهم، قائدها تفحّصّ هيئتها الرثّة، نفسه حدثته بأنّ جيوبها خاوية! أدركت ما جال بخاطره، فأظهرت له النقود؛ ترجّل من فوره يفتح لها الباب، ساعدها على الركوب، أغلق الباب برفق، همست له بكلمتين، أدرك على إثرهما العنوان.

لم يمض وقت طويل حتى توقف، ألقت له بكل ما معها، صوته في الخلف يشكرها، تقدمت بخطوات وئيدة واستندت للحائط.

ها هو مدخل البيت، تفحصته مليًّا كأنها تحصي شروخه، تقدمت ببطء شديد كأن قدميها ترفضان الخطو، ازدادت دقات قلبها كلما اقتربت من الباب:

ـ كيف ستلتقي أمها؟! هل تمتلك أجوبة لكل أسئلتها المتوقعة؟!

صوت من داخلها نشر عليها الطمأنينة:

ـ أسلمي الأمر لله، فهو لا يغفل ولا ينام.

كأن يدًا مسحت على قلبها وألقت بداخله بذور الأمان، تقدمت نحو الباب:

ـ يا الله! كن إلى جواري.

3

أذان الفجر يخترق الآفاق، معلنًا عن ميلاد يوم جديد، يجفّ سيل آلامها على وقع كلماته، تنصت بخشوع لتلك العبارات، تتوقف عند قول المؤذن «الصلاة خير من النوم» تقول في نفسها:

ـ النوم!! ذلك حلم أصبح صعب المنال!

وقع أقدام بالخارج، يبدو أن أمها تستعد للصلاة، لسانها يردد:

ـ يا رب لك الحمد والشكر.

تعيدها مرارًا.

تشعر (هناء) ببعض البرودة، تتذكر أنّها لا تزال ترقد فوق الأغطية، تنزل من سريرها لتغلق النافذة، هي الأخرى على مصراعيها منذ أمس، صوت النافذة عند الإغلاق وصل لسمع الأم فهرولت نحو باب ابنتها تفتحه، (هناء) تتصنع انشغالها بترتيب الفراش، ملامح الفرح تنتشر على وجه الأم:

ـ حمدًا لله على سلامتكِ يا ابنتي، كاد القلق يقتلني منذ رأيتك أمس!

تهرع نحو حضن أمها تغرقه بالدموع:

ـ أين الأمان يا أمي؟

تمسح الأم على رأس ابنتها بيدها الحانية:

ـ في حضن أمكِ وتسألين عن الأمان!

بمشقة تخرج كلماتها:

ـ بماذا تفيد الأحضان وسط مَن لا يملكون القلوب، وسط مَن لا تقلقهم آهات الجرحى ولا أنّات المعذبين!

تُدخِل تلك الكلمات الفزع إلى قلب الأم، تمسك بكتفي ابنتها، تدفعها برفق إلى الخلف، تنظر لعينيها:

ـ ماذا أصابك يا ابنتي؟ قصِّي على أمكِ الخبر، فلن تجدي أحن من قلبي عليكِ.

تنطلق نحو سريرها تُخفي وجهها:

ـ بالله عليك يا أمي، بالله عليكِ، لا تدفعيني لتذكر تلك اللحظات التي أرجو من الله أن يمّن عليّ بنسيانها.

تقترب منها ببعض الغضب:

ـ ألا يحق لي معرفة أين كنتِ! أين قضيتِ تلك الليالي! ألا يحق لي أن أشعر بآلامكِ!

تمسك (هناء) بيد أمها:

ـ ما بداخلي تعجز الكلمات عن إخراجه، بداخلي بركان يوشك أن ينفجر، فلا تدفعيني للانفجار! فلنعتبر تلك الأيام كأن لم تكن. إن كان بداخلكِ حبٌّ لي، ساعدني على النسيان، ساعديني.

تسحب الأم يدها، تقول بعينين يملؤهما الأسى:

ـ إن كان بداخلي حب لكِ! وهل ما يكاد يقضي عليّ غير حبي لكِ، أبعد كل هذا تذبحيني بتلك الكلمات!

تمسك برأس ابنتها:

إن كان بداخلكِ حب لأمكِ، أخبريني ما الذي حدث، قلبي يحدثني أن أمرًا جللًا أصابكِ، وقلبي أبدًا لا يكذبني.

تنهض، تتوجه نحو النافذة المغلقة، تنظر من خلال بعض ثقوبها، كأنّ قلبها هو الذي يتحدث:

ـ كل ما يمكنني قوله، لم يعد لنا متسع في هذا العالم، كيف نحيا وسط قطيع من الذئاب! وسط مَن لا يشغلهم إلا أنفسهم فقط! ينقضّون على الضعاف ينتهكونهم لأجل غرائزهم العفنة، لا يقيمون وزنًا لدين أو خلق، يستمتعون بأناتهم كأنها أعذب الألحان، لا ترق قلوبهم لتوسلات الجرحى ولا لدمائهم المراقة.

تلتفت نحو أمها وجبال الحزن بادية بعينيها:

دليني يا أمي، كيف الحياة وسط هؤلاء! كيف يمكننا النجاة من شراكهم المعدة لأمثالنا!

قلب الأم يكاد يترك مكانه، أتلك هي ابنتها؟! لم تعهد منها مثل تلك الكلمات، أدركت أن تلك الليالي صنعت بداخلها إنسانًا يمضي قدمًا للإجهاز على ما تبقّى من إنسانها الأصلي، لم تجد مفرًا سوى أن تترك الأيام تكشف لها عن السر، ربما يكون الوقت جزءًا من العلاج لما تحسه من جراح ابنتها الدفينة.

تقدمت نحوها، ضمتها بحنان إلى صدرها، تطبع قبلتها المغلفة بالدموع على وجنة ابنتها الباردة لتنصرف نحو صلاتها.

ما كاد باب غرفتها يغلق عليها حتى يدب الوهن في قدميها، تسند ظهرها للجدار، تطلق العنان لدموعها علها تخرج بعضًا من آلامها الملتهبة.

تؤدي (ألفت) صلاتها بخشوعها المعتاد رغمًا مما يعتصر بداخلها، سجداتها تلتهم

أغلب الوقت، تشغلها بالدعاء ترجو من الله كشف الكرب، ما إن تتم صلاتها حتى يصل لسمعها طرقات على باب البيت، تنهض من فورها تحاول إخفاء آثار دمعاتها،

بأقدام متثاقلة تتجه لتفتح، تجد جارتها (عليّة)، تنكب عليها تقلبّها تهنئةً بعودة ابنتها.

تتصنع (ألفت) بعض السعادة، ينطلق لسان الجارة بكتل من الأسئلة عن (هناء) أين كانت؟ وكيف عادت؟ وماذا أصابها؟ وكيف هي الآن؟

تجيب (ألفت) على جميع تلك التساؤلات بعبارة واحدة:

ـ نحمد الله على كل شيء وعلى كل حال.

تسرع الأخرى تحاول إخراجها من حالة الحزن التي طغت عليها فجأة طاردة قناع السعادة المصطنع:

ـ أمس رأيت (هناء) تتحسس الخطى عند دخولها البيت. أخبرت (حسن) بأن نأتي ونطمئن عليها عقب سماعي لصوتيكما وأنا أستعد للصلاة.

القلق يعرف طريقه لنفس (ألفت) عند سماعها لتلك الكلمات. أحست (عليّة) بالخطأ فأسرعت تحاول تصحيحه:

ـ أرجو أن يكون الأمر خيرًا، فـ(هناء) ابنتي التي لم أنجبها.

بكلمات مقتضبة ترد صاحبة الدار:

ـ أشكركِ جزيل الشكر على مساعدتك في تلك الأيام العصيبة.

تدرك (عليّة) أن جارتها تود إنهاء الحوار:

ـ سنأتي أنا و(حسن) لنطمئن عليها فيما بعد، فأبلغيها بفرحتنا الغامرة بعودتها لأحضاننا.

تودّعها (ألفت) قبل أن تغلق خلفها الباب، تتوجه نحو غرفة ابنها الصغير، ترقد بجواره على سريره، فيستيقظ (حسام) على صوتها الدافئ، يشعر بيدها تمسح على رأسه برفق، يلتفت نحوها:

ـ أين (هناء) يا أمي؟ قد اشتقت إليها كثيرًا.

تجيبه بدموع تترقرق من عينيها:

ـ هي الآن بغرفتها يا صغيري.

تطبع بين عينيه قبلة، تستكمل:

يمكنك الآن أن ترسل لها هذه القُبلة.

يقفز من سريره كأن يدًا قذفته بعيدًا، يسابق الخطى ليطرق بابها بقوة، يصيح بأعلى صوته:

ـ (هناء)، (هناء).

ما كادت تفتح له الباب حتى يلتصق بحضنها، يلقي بكلماته البريئة على سمعها تهزّ أركانها:

ـ أنا غاضب منكِ بشدة، كنت أنتظركِ كل يوم في ميعاد عودتكِ لتحضري لي الحلوى، لكنكِ لم تأتِ ومن يومها لم أتذوق طعمها حتى الآن!

تُطْلق من فمها آهات مكبوتة، تطوّقه بذراعيها بشدة، يشعر بدموعها الملتهبة تلامس وجهه، يُسرع قائلًا:

ـ لمَ تبكي يا حبيبتي؟! أنا أمزح معكِ، فلست غاضبًا منكِ.

تمسك برأسه بين يديها، تنظر لعينيه، بصوت متقطع مع بعض الشهقات:

ـ لا، لا عليكَ يا حبيبي، سأحضر لكَ كل ما تشتهيه، لكن أريدك أن تعاهدني أولًا.

تظهر الدهشة على ملامح الصغير:

ـ أعاهدكِ! أعاهدكِ على ماذا؟

تواصل نظراتها القوية لعينيه، تبدو كقائد يلقي وصاياه على أحد محاربيه:

ـ عاهدني أن تجتهد في دراستك، لا تترك الكتاب مطلقًا من يديك، تحتضنه حتى أثناء نومك، أريدك أن ترتقي لأعلى المناصب، تضرب بيد من حديد على رأس كل ظالم، لا تأخذك شفقة ولا رحمة بمن يخطئ في حق غيره، أريدك أن تطهّر المجتمع من أقذاره، تلاحق كلاب الليل لتنشر الأمان في صدور البسطاء، تهرع

لنجدة الملهوفين، تفديهم إن تطلب الأمر بحياتك!
وحذار أن ترافق الأشرار ولو حتى في طريق، كن شمعةً
تحترق لتبدد الظلمات أمام وجه مَن يرجو النجاة.

الأم بالباب، دموعها تتوارى سريعًا تحت حجابها، قلبها ينتفض كأن أنيابًا تطبق عليه.

عقل الصغير لم يستطع استيعاب الكثير من تلك الكلمات لكنه يرد بثقة:

ـ أعاهدكِ بأن أحقق لكِ كل ما تتمنيه، أعاهدكِ.

4

السيارة الفارهة بجوار الرصيف تلفت الأنظار، شاب ينظر ناحيتها يسند ظهره لأحد الأعمدة، يتنفّس دخان سيجارته ذي الماركة الشهيرة، لا يعير المارة انتباهًا.

إذا بصوت يصيح من بعيد:

ـ (خالد)، (خالد)!

يلتفت نحو مصدر الصوت ببطء. يشير بيده إليه أن أقبل، يعاود النظر باتجاه السيارة.

يقترب صاحب الصوت مادًّا يده:

ـ كيف حالك الآن؟ لم أركْ منذ تلك الليلة.

يرد بهدوء مصطنع:

ـ أهلًا (عصام) كيف أنت؟

يسلم بأطراف أصابعه.

بفرح يظهر في حديثه يقول (عصام):

ـ مرّ يومان يا صاحبي ولم يحدث شيء، أعتقد أن الأمر دفن للأبد.

يلتفت إليه بثقة مفرطة:

ـ ألم أخبركم سابقًا بأنّه لن يتم غير ما نريد، ومع ذلك اختبأتم كالفئران في الجحور.

يفرك يديه:

ـ أعذرني يا صاحبي، فلديك مَن يحميك، أما نحن ستسلخ منا الجلود بمجرد اكتشاف الأمر.

يستكمل (خالد) ردوده بنفس الثقة:

ـ الأمر لا يتعلق بالحماية يا أبله، بل بهذا العقل العبقري.

يشير نحو رأسه.

ينحني الآخر قليلًا أمامه:

ـ أشهد لك بالكفاءة يا عبقري.

ينطلق (خالد) بالضحكات بصوت يجذب له كثير من الأنظار، سرعان ما يتوقف إثر قول صاحبه:

ـ جلّ ما أخشاه ردّة فعل (جلال) عقب طردك له من السيارة في منتصف الطريق.

يشير بيده كنوع من عدم الاكتراث:

ـ دعك منه، فما هو إلا تافه، لن يستطيع فعل شيء، فهو معنا في نفس القارب.

ينظر (عصام) في عينيّ صاحبه:

ـ تعلم تمام العلم بأنه ليس بتافه، ولا تنسى كلماتك القاسية له، حتى إنك عايرته بأخيه المعاق ذهنيًّا.

يتعالى صوت (خالد) بحدة:

ـ أرأيت كيف كانت كلماته. لقد اتهم أبي بالسرقة وأنّه جمع أمواله بالنصب والنهب، والقفز على أعناق الناس حتى إنه قال «مَن ساعدوه في البداية دمرهم عندما وصل لمبتغاه»!

يُطرِق (عصام) ينظر تحت قدميه:

ـ لا يا صاحبي لا تقوّله ما لم ينطق به، فقد بدأ كلماته بقوله «يرى معظم الناس» أي أن هذا ليس برأيه هو.

ينفرد الغضب بوجهه:

ـ وما معنى تلك الكلمات! أليس بها اتهام صريح! يبدو أنك تشاركه الرأي!

يسرع الآخر يبرّئ نفسه:

ـ لا يا صاحبي، أنت تعلم رأيي منذ البداية، أتذكر عندما سألتني ماذا تتمنى أن تكون؟!

يبدو على (خالد) الشرود، كأن تلك الكلمات نكأت جراحًا بداخله فلم يُحِر جوابًا.

يتم (عصام):

ـ كان ردّي حينها «أتمنى أن أسلك طريق أبيك»! عندها انفجرت ضاحكًا في وجهي تقول: لا يوجد في العالم بأسره متسع لاثنين من نوع أبي!

لا يزال على حالته، كأن سمعه لم يلتقط شيئًا من كلمات صاحبه. يكتنفهما الصمت للحظات حتى ينتبها على صوت احتكاك لإطارات سيارة تتوقف أمامهما، صوت من داخلها يناديهما:

ـ كيف حالكما يا شباب، لم أر تلك الوجوه منذ كنا مع الفتاة الـ ...

يصيح فيه (عصام):

ـ أغلق فمك يا معتوه.

يضرب رأسه بيده:

ـ اعذراني، فكما تعلمان تسقط الكلمات رغمًا عني.

يخرج رأسه خارج السيارة، يتحدث بصوت خافت:

هيّا، هيّا أعطوني بعضًا من العملات لكي أحاسب التاكسي.

بسخرية يرد (عصام):

ـ أنا أعطيك؟! لو تتوقف حياتك على قرش واحد ما أعطيتك إياه، طالما لا تمتلك المال، لا تضع نفسك في تلك المواقف.

يخرج (خالد) حفنة من جيبه، يقذف بها في وجهه قائلًا:

ـ أعطها كاملة للسائق.

يتناولها في عجالة، فتمتد يد السائق لتأخذها منه! تكاد عيناه تتركان مكانهما ليلحقا بالنقود في جيب السائق.

يترجل من السيارة، يتصنع عدم الاهتمام:

ـ هكذا أخلاق الرجال يا (خالد) تمد يدك لتساعد الغير، أحمد الله أنك لست كهذا الشخص.

يشير بأطراف أصابعه لرفيقهما الثالث.

لم يلتفت (خالد) إليه، يتحدث بهدوء شديد:

ـ أين كنت طيلة اليومين الماضيين؟

يهز كتفه قائلًا:

ـ قابعًا في البيت في أحضان أم (هاني) أنتظر ما ستسفر عنه الأيام، ما كنت لأطأ الشارع لولا أنك طلبتني، وأنا لا أمنع نفسي عنك دومًا.

يظهر الامتعاض على وجه (عصام)، فهو يعلم جيدًا محاولات (هاني) المستمرة ليتقرّب أكثر وأكثر من جيوب (خالد) المكتنزة!

يزفر (خالد) دخان سيجارته وهو يقول:

ـ ألم ير أحدكما (جلال) منذ ذلك اليوم أو سمع عنه شيئًا؟

تهتز رأسا الاثنين بالنفي، فيخرج هاتفه في عجالة، يقرّبه نحوهما:

ـ فليحادثه أحدكما، لننظر ما الجديد لديه.

تناوله (هاني) على الفور، يضغط الأرقام بسرعة، يضعه على أذنه ...

5

رنين الهاتف يكسر الصمت الضارب أطنابه في المكان المظلم، سوى من بعض أضواء تتسلل خلسة من الشارع عبر النافذة المفتوحة رغم البرد القارس.

يد صاحبه تمتد نحوه، تقبض عليه، ينظر للاسم على الشاشة، سرعان ما يغلقه تمامًا، يعود يلقي جسده على السرير بلا اهتمام، كأنّ عقله خارج المكان يفرّ من ملاحقة واقع يريد الإطباق عليه.

سكين الندم يحزّ قلبه بلا هوادة، حرب ضارية تدور رحاها بأعماقه؛ بين ما قد كان وبين ما كان يجب أن يكون.

صوت ما يحادثه يجد صداه بداخله، يحاصره بأضيق زواياه بكلمات كالسياط تلهب وجدانه:

أحقًّا أنت إنسان؟! أتمتلك قلبًا يعرف النبض؟! أم ألقيتَ به خارجًا لتتسق وأهواء الشيطان؟! أتدرك حجم ما فعلت؟!

أتساعد في نصب الشرك للضحايا ليغرس غيرك أنيابه بأشلائها؟!

أتوثق بيدك البراءة؟! أتصفع شرفًا يحاول النجاة؟!

أتقف بجانب القتلة ليعبثوا بمحارم الله؟! أترضى لنفسك بهذا جوارًا؟!

أعندما يبعث ضميرك ينفض عن كاهله تراب قبره، تهيل فوقه جبال الجُبن تزهِق أنفاسه؟!

أهكذا أنت؟! بلا قلب، بلا ضمير، بلا أنت؟!

مقلتاه تبحثان عن البر في بحر دموعه، يتحسس يده الشريرة، أصابعه يضربها بقوة في رأس السرير، يكاد الألم يطل من عينيه، زفراته تكاد تشعل المكان، يطلق نظره بعيدًا خلال النافذة، يسترجع بعضًا من وصايا أبيه على فراش الموت:

- يا بني! سِر في الخير ما استطعت، اجعل بغيتك إسعاد القلوب ولو على نفسك، كن للكبير أخًا، للصغير أبًا، للضعيف حصنًا، للقوي سندًا طالما في الحق، تجد الناس لك ملاذًا من غدر الدنيا ونكبات الزمن.

إيّاك ورفقة السوء، يوردونك المهالك دون أن تشعر، اجعل أمام عينيك قول النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم-: «فلينظر أحدكم من يخالل». تذكّر أن لك أختًا أضعها بعنقك أمانة حتى تصل إلى بر الأمان، وأخًا غائبًا عن الواقع علّه يشفع لك أمام الله، واحذر بني من ديون تقضى منك في الدنيا قبل الآخرة. وتذكّر... تذكّر...

تخرج روحه قبل أن يتم كلماته.

يردد بصوت خافت:

- كنت تعلم يا أبي، كنت تعلم!

طرقات على الباب باستحياء، صوت رقيق يصل لسمعه:

ـ (جلال)، أعددت الطعام، أتمنى أن تشاركنا فيه اليوم، فأخيك (رضا) لا يريد الأكل إلا معك، باللَّه عليك أن تخرج؛ فهو لم يذق طعامًا منذ أمس.

يمسح بقايا دموعه:

ـ حسنًا، حسنًا يا (رحاب) سآتي على الفور.

ينهض ببطء كأنه يحمل أثقالًا فوق كتفيه، ما إن يلمحه (رضا) إلا ويقفز نحوه يحتضنه. يقبّله (جلال) بين عينيه، يمسك بيده يضعه على مقعده حول المائدة.

(رحاب) منهمكة في جلب الأطباق، لا تستطيع إخفاء دهشتها عند سماعها لكلماته القصيرة:

ـ أتريدين بعض المساعدة؟

لم تكن تلك عادته، كان يشتعل غضبًا إن تأخر الطعام عن موعده قليلًا.. تحسّ أن بداخله أشياء ما عادت كما كانت!

يدرك شرودها فينهض واقفًا، يُمسك بكتفيها:

ـ اجلسي، واستريحي، أنا مَن سيحضر باقي الطعام.

لم تحرّ جوابًا، كأنها ابتلعت لسانها.

يقترب منها:

ـ أدرك ما يجول بخاطركِ، فلا تندهشي من تغيّرات ستطرأ على حياة أخيكِ فيما بعد، لكني أرجو منكِ نسيان زلاتي الماضية وساعديني لأولد من جديد.

قلبها سيتوقف عن الفرح، أهذا حقًّا أخوها؟! أهذا بالفعل (جلال)؟! أبين عشية وضحاها يتغيّر كل هذا التغيُّر؟! لا أنكر أنه بداخله الكثير من الطيبة، لكنه كان يخفيها خلف جدران من الغلظة والصوت المرتفع. تسترجع: ما يهمّ الآن أنه حطّم تلك الجدران.

سؤال يقفز لذهنها فجأة فتضيء له عينيها:

لكن ما الذي حدث ودفعه لكل هذا التغيير؟

تنتبه على صوته:

ـ لا تشغلي بالكِ بأسئلة لن تجدي لها ردودًا، كل ما أطلبه منكِ أن تعامليني باعتباري إنسانًا جديدًا ولا تخشين شيئًا كان يحدث فيما مضى.

تقترب برأسها نحوه، تنظر في عينيه نظرات يشعّ منها الفرح:

ـ أحسّ الآن أن أبي يبعث من جديد، أشعر أن روحه تتحرك بداخلك!

يُمسك بيديها، يضغطهما برفق:

ـ جلّ ما أرجوه منكِ إن طرأ بحياتكِ شيء أن أكون أقرب إليه من نفسك.

دون تردد تجيبه:

ـ لكَ ذلك يا أخي، لك ذلك.

يملأ ملعقة ويقرّبها من فم أخيه فيقضمها مسرعًا، كأنه هو أيَضًا يحسّ بالتغيير الكبير!

6

يعطي أمه بعضًا من دوائها، يساعدها لتستريح في فراشها، ينشر فوقها عدة أغطية. قبلة حانية منه تُطبع على يدها، قلبها يلهج بالدعاء له، يصدّق على ذلك لسانها. يتوجه لإعداد كوب من الشاي، ينتهي من ذلك سريعًا، يضع الكوب على منضدة صغيرة بجوار السرير، تمتد يده لتحضر كتابًا، يبحث عن موضع توقّفه، رشفة من الكوب عقب كل صفحة.

ينتبه على صوت أقدام تُسرع نحو بابه، طرقات متتابعة توحي بعجلة الطارق، يكاد الكوب ينزلق من يده عقب نهوضه فجأة، يتوجه نحو الباب مسرعًا خشية أن تستيقظ أمه، تتعثر قدمه بسجادة مهترئة، يكاد يسقط على وجهه لولا أن يده التقطت مقبض الباب، يفتحه، ترسم الدهشة قسمات وجهه:

ـ الأستاذ (صابر)! خيرًا إن شاء الله!

يدخل من تلقاء نفسه، يغلق خلفه الباب بإحكام، كلتا يديه قرب فمه، ينفث بهما بعضًا من أنفاسه المتلاحقة:

ـ أرجو المعذرة يا دكتور (عُمر) فأنا هائم على وجهي منذ أمس، ولم أجد غيرك.

يأخذ بيده نحو أحد المقاعد:

ـ لا عليك يا أستاذ (صابر)، لا عليك، فالبيت بيتك في أي وقت.

يتوجه لإحضار كوب من الشاي له.

يمسك (صابر) بيده:

ـ لا أريد منك إلا أن تجلس وتستمع.

يتخذ (عُمر) المقعد المقابل، يلقي بنفسه عليه:

ـ حسنًا! كما تريد، هات ما عندك، كلي آذان مصغية.

يبدو أنّ (صابر) وجد البداية فينطق مسرعًا:

ـ أتذكر الفتاة؟

يعتدل في جلسته:

ـ الفتاة! أتقصد تلك الفتاة المريضة بحجرتك؟

يومئ (صابر) برأسه أن نعم.

يتم (عُمر):

ـ أأصابها مكروه، لا قدر الله؟

بتأثر يقطر من كلماته:

ـ اختطِفت أمس!

يقفز من مقعده لا يصدق:

ـ اختطِفت! مَن خطفها؟ ولماذا؟

يمسك (صابر) بيده:

ـ تلك حكاية طويلة، اجلس واهدأ لتعرفها، وأخذ يقصّ عليه الخبر.

يلقي (عُمر) بجسده للخلف، يصطدم بظهر المقعد، يمسك رأسه بكلتا يديه بعد سماعه للحكاية الطويلة، ينظر إلى سقف الحجرة، يقول كلمات يشعر بمرارتها في حلقة:

ـ ما ذنب تلك البريئة لتؤخذ بجريمة لم ترتكبها! منذ أن وقعت عليها عيناي، أحسست أن بداخلها جبالًا من الآلام، لم يلبث الزمن إلا أن يُعلي قمتها بآلام أخرى!

لم تبقِ الأيام لـ (صابر) من دموعه شيئًا ليطفئ بها لهيبه في تلك الأوقات.

ينهض (عُمر) فجأة:

ـ يجب أن نستخلصها من بين يديه مهما كان الثمن.

يُطرق الآخر ينظر إلى الأرض:

ـ لا يدفعنّك الغضب لتلقي بنفسك في التهلكة، فأنت لم تعهد سطوة هذا الرجل.

يلتفت إليه (عُمر) فجأة، يبدو أن الحنق وصل منه مداه:

ـ إلى متى ستخضع لهذا الجبن بداخلك؟ أفنيت عمرك في الفرار حتى أصبحت تفرّ من نفسك، في الماضي كنت تحاول النجاة بها، أما الآن فهناك شخص ستُزهق روحه بدلًا من نفسك تلك! تحلَّ بالشجاعة مرة في عمرك، فما

هي إلا ميتة واحدة، فاجعلها بشرف أفضل. فلا قيمة لحياة يكتنفها الخوف وآخرها أيضًا الموت!

تنطلق الكلمات كسهام تخترق قلبه، تُشعل النار بحظائر خوفه، آهات تقطع أنفاسه!

يتابع (عُمر) تجلّياته:

ـ كلّ ما أريده منك، عنوان مكتبه وبيته لا أكثر، وامكث أنت هنا لتلتحف بما تبقى من أيامك!

ينهض (صابر) فجأة كأنّ إنسانًا ولِد بداخله لتوّه، ليطرد آخَر مكبّلًا بقيود الماضي، بعيون تتقد، بثقة نسيها منذ أيام شبابه يقول:

ـ لا، أنا مَن وضعها بهذا المأزق ولن يُخرجها منه سواي، حتى ولو كانت حياتي الثمن.

يسرع نحو الباب للخروج.

يد (عُمر) كانت أسبق إليه، يُمسك به ويُغلق الباب بإحكام:

ـ لن تخطوَ خطوة بدوني، ستمكث هنا الليلة وغدًا نذهب سويًّا بإذن الله.

يبدي (صابر) بعض التذمّر، يمسك (عُمر) بكتفيه، ينظر في عينيه:

ـ أرجوك، لا يكن في نفسك من تجاهي شيء إن قست عليك كلماتي.

يربت الآخر على يديه:

ـ يا ليتني قابلتك منذ زمن، ما صار حالي إلى ما صار إليه.

يأخذ صاحب البيت بيد ضيفه ليريه أين سيُمضي ليلته، ما بين شد وجذب، يصرّ (صابر) أن يحتفظ الآخر بسريره وأن يستلقي هو على الأريكة في الخارج، لم يجد (عُمر) بدًّا من الموافقة، يقدم له بعض الأغطية، ثم يتوجه ليأخذ قسطه من النوم استعدادًا ليوم حافل ينتظرهما غدًا!

يستيقظ (عُمر) فجأة، يتجه للخارج، يرى الآخر لا يزال غارقًا في سباته، يتقدم صوب غرفة أمه، تمتد يده لتوقظها.

بصعوبة تحاول فتح عينيها، تلتفت نحوه برأسها، تظهر حشرجات المرض في صوتها:

ـ خيرًا يا بني!

يميل برأسه نحوها:

ـ حدث أمر طارئ يستوجب ذهابي إلى القاهرة اليوم.

بفزع تردد:

ـ القاهرة!

تلك كلمة تدخل على قلبها الكثير من الخوف، كل مَن ذهب لتلك المدينة من أمثالها عاد يحذرها من زحام لا يرحم.. أناس تجري في كل مكان، كأنّ يوم الحشر يجري تجاربه هناك!

يدرك ما يجول بخاطرها، يمسح على يدها برفق:

ـ اطردي من عقلكِ تلك الأوهام يا أمي، فهي مدينة كغيرها من المدن.

لم تفلح كلماته في طرد قلقها، تقول:

ـ ماذا لديك هناك لتستيقظ مبكرًا هكذا؟

يحاول التفلّت من الإجابة:

ـ سأحضر جارتنا (فاطمة) لترعاكِ، فربما أمكث هناك يومًا أو يومين.

تستند على يديها لتعتدل جالسة من فرط القلق:

ـ يومان! أتتركني يومين لا أراك فيهما! لمَ كل هذا يا ولدي؟

يقبّل رأسها بقبلة طويلة:

ـ هّوني عليكِ يا أمي، فالأمر لا يستوجب كل هذا الفزع.

لم تجد مفرًّا سوى الاستسلام لرغبته:

ـ اذهب يا بني، وليكن الله معك.

يحس أنها فرصته ليهرب من نظراتها، يقبّل يديها مسرعًا وينصرف، صوته يعلو مناديًا:

ـ أستاذ (صابر) أين أنت؟ أما تزال بالحمام؟

يقترب، لا شيء يدل على وجوده بالداخل، يواصل البحث في باقي الغرف، لا جدوى! بدأ الشك يحيط بقلبه، أين ذهب؟ أيكون قد هرب؟ وكلماته أمس أكلها كانت كذبًا! ألهذا الحد يخشى مواجهة هذا الرجل؟

يضرب رأسه بيده بقوة: لماذا لم أعرف منه الاسم والعنوان أمس؟

يلقي بنفسه على المقعد مستسلمًا للحزن يفترسه، فجأة، وقعت عينه على الباب، ما هذا؟! يقترب أكثر، يدقق النظر، يقرأ:

معذرة دكتور (عمر)، أعرف أن الشك في صدقي يلازمك الآن. اطلب منك نصف ساعة وستجدني إلى جوارك. (صابر).

تكاد الدهشة تقتله؛ أين ذهب هذا الرجل؟ أينوي حقًّا العودة؟ ليس أمامي سوى الانتظار وسنرى.

تمر الدقائق بطيئة، كأن عقارب الساعة تتشبث بأماكنها، يتحرّك جيئة وذهابًا بين المقعد والنافذة، تقترب النصف ساعة من الانقضاء، يترقّب طرقاته تصفع الباب، ها قد مرّ الوقت ولا شيء ينبئ بعودته! تكاد يداه تحترق من شدة الاحتكاك، خمس عشرة دقيقة أخرى تلحق بما سبقها، لا جديد يدعو للتفاؤل، يتحسّر على ثقة وضعها فيه ولو للحظات.

ها... يحثّ أعضاءه على الصمت، صوت سيارة يقترب من منزله المتواضع! تتوقف لتطلق عنان آلة تنبيهها، تستمر كأنها تقصده، يهرع للنافذة، يدٌ تشير إليه من داخلها يبدو أن صاحبها يريد إضفاء جو من الإثارة على الموقف، حيرة تمسك بتلابيبه مَن هذا؟ وماذا يريد؟

دهشة تطرد حيرته عقب رؤيته لصاحب اليد يناديه:

ـ أرجو المعذرة يا دكتور! قد سرقني الوقت، هيا بنا.

يُلقي بمعطفه على كتفه، يغلق بابه بهدوء، يطرق بابًا أمامه، تخرج امرأة بمنتصف العمر ترحب به، فبادرها بقوله:

ـ معذرة يا مدام (فاطمة) أرجو منك أن تكتنفي بالرعاية أمي حتى أعود.

بتلقائية ترد:

ـ خيرًا، إن شاء الله!

يتم:

ـ أمر طارئ يستلزم ذهابي إلى القاهرة. إن أذن الله أعود بأقصى سرعة.

تصافحه قائلة:

ـ اطرد عنك القلق يا دكتور، فهي أمي كما هي أمك، تعود سالمًا بإذن الله.

تكاد قدماه لا تلامسان الدرجات، يتفحص السيارة، عيناه تنطق بالأسئلة!

صوت المحرك يطغى على صوت الآخر:

ـ هيا بنا يا دكتور، في الطريق ستعرف ما تودّ معرفته.

صوت إغلاق الأبواب يدل على حداثة السيارة، تنطلق مخلفة غبارًا يتسلق الهواء. الصمت يكتنف الدكتور كأنه بغرفة عمليات، يسرع لسان (صابر) ليطفئ فضوله:

ـ معذرة لخطّي الرديء على الباب، ومعذرة لاختفائي المفاجئ، أعلم تمامًا أن الشك دمّرني أمامك، لكنّي ما أخبرتك إلا لأني أعلم أنك ستحول بيني وبين ما نويت على فعله. طوال الليل أصارع الأفكار، كيف سننقذ الفتاة؟ ذاك أمر قد يكلّفنا الكثير، ومن أين لنا بهذا

الكثير؟ ما إن أشرق الصباح حتى حسمت الأمر، بِعت غرفتي لمالكها القديم وببعض ثمنها استأجرت السيارة لثلاثة أيام، وما تبقى قد نحتاجه فيما بعد.

يمسك الذهول بلسان (عمر) يبحث عن الكلمات، لم يجد سوى:

ـ ماذا! بِعت كل ما تمتلكه في هذه الدنيا؟!

يرد بلهجة ساخرة يتسرب منها الندم:

ـ أتسمي تلك الأشياء ممتلكات! تلك كلمة تستعصي على أمثالنا، هوّن عليك يا دكتور، لا يهم الآن سوى استخلاص الفتاة، فقد تلحق روحي بما أسميته ممتلكات!

يطرق (عُمر) رأسه ينظر تحت قدميه، قدم (صابر) تدفعان السيارة نحو مجهول يقترب!

7

تجلس وسط سريرها، تسترجع شذرًا من ذكرياتها، صور بين يديها تقلّبها وأخرى تحيط بها، هذه تجمعها بأبيها، وتلك بأمها وأخيها، أولئك بزملاء الدراسة، تجمّدت عيناها فجأة، تلك آخر صورة لأبيها قبل مرضه! تنساب دمعة من عينها تسقط على وجهه في الصورة، تمسحها بأطراف أكمامها مسرعة، تحسّ بأنّه يطلب منها أن تدعها كأنّه يقول:

ـ من لكِ غير أبيك يشاركك الألم.

تضمها لصدرها، تبكي من خلفه حتى لا يراها!

تغلق عينيها ترجو من الدموع التوقف، على صوت أمها تناديها وهي تطرق الباب طرقات متباعدة، تتوجه نحوه ببطء شديد، تفتح ونظراتها تصطدم بالأرض.

تشعر الأم بدموع ابنتها دون أن تراها وهي تقول:

ـ الحاج (علي) صاحب العمل يجلس بالخارج ويودّ الاطمئنان عليكِ.

تومئ برأسها أنها آتية، تحاول السيطرة على مشاعرها، تلملم أحزانها بداخل قلبها، تخرج من غرفتها ببطء شديد، تلقي السلام على الضيف قبل أن تجلس:

ـ أشكرك على الاهتمام يا حاج (علي)، كان يكفيك الاتصال.

بصوت حنون يرد:

ـ نحمد الله على سلامتكِ يا (هناء)، فقلوبنا تركت أماكنها لتبحث عنك.

تردّ بكلمات مقتضبة:

ـ جزاك الله خيرًا، نحن نعلم ما بداخلك نحونا.

بفراسة من خبروا الحياة:

ـ صوتك يا بنتي يوحي بالكثير، اعتبريني كأبيك وقصّي عليَّ ما أصابكِ.

تضطرب قليلًا، تحاول ترتيب الكلمات:

ـ لا شيء ذا أهمية، فقط أصبت بحادث بسيط نقلت على إثره للمستشفى، ولم أرد خلع قلب أمي عليّ فلم أتصل بها، قضيت يومين وها قد عدت.

يبدو عليه عدم الاقتناع:

ـ حسنًا، ليكن ما تريدين، اعتني بنفسك يا ابنتي ولا تترددي في طلب مساعدتي، وليكن الله معك.

يهمّ بالنهوض:

ـ يمكنكِ أن تستريحي كيفما شئتِ، وعندما تشعرين بالتحسن أنا في انتظاركِ بالعمل.

ترد مسرعة:

ـ أشكرك يا حاج، لكنّي بإذن الله، أودّ الذهاب للعمل اليوم، أريد الخروج من تلك الحالة التي تحاصرني، ساعة أو اثنتين على الأكثر وسألحق بك.

يحاول أن يضع في يدها نقودًا لكنها ترفضها بإصرار، تغلق خلفه الباب وسط عبارات شكر تنهمر منها.

لم تكد تخطو خطوتين إلى الداخل حتى ضج الباب بالطرقات، تقدمت نحوه، تشعر كأنّ جارتها هي الطارقة، فتعود إلى الخلف، الطرقات تزداد، تخرج أمها من غرفتها، ترمقها بنظرات غاضبة، تتوجه نحو الباب لتفتحه، سرعان ما ترحب بالقادمين:

ـ مرحبا بك يا حاج (حسن) مرحبا يا (عليّة) تفضلا بالدخول.

يدخل الجار وعيناه لا تكاد تفارقان قدميه، (عليّة) تطلق نظرها يمنة ويسرة تبحث عن الفتاة! يدرك زوجها ما يجول بخاطرها فيوكزُها بمرفقه. تتصنع عدم الاهتمام، ما إن يلامس جسده المقعد حتى يقول:

ـ جئنا لنطمئن على ابنتنا (هناء) علها تكون بخير الآن.

بلهفه تتبعه زوجته:

ـ نرجو ألا يكون مكروهًا أصابها، فهي كما قال (حسن) ابنتنا.

تبحث (ألفت) عن كلمات ترد بها، لم تجد منها الكثير:

ـ هي بخير الآن، نشكر الله على كل حال، وأشكركما على مساعداتكما وحرصكما على السؤال.

تقترب (عليّة) برأسها منها أكثر:

ـ ألم تعرفي أين كانت طيلة هذه الفترة؟

لم تحر جوابًا كأن لسانها انتحر. يحسّ (حسن) بالحرج من تصرفات زوجته، فينهض من فوره:

ـ نحمد الله أنها بخير، أتأذني لي، فعندي الكثير من العمل.

تسرع (هناء) بالخروج من غرفتها لترفع عن أمها الحرج فهي تعلم فضول (علّية) تمام العلم. لا بد من وجود سبب يكمّم فاها تلقي التحية على جارها، وتجلس بجوار زوجته، تقبّلها قبلات مصطنعة، فتبادرها الأخرى بالسؤال:

ـ ماذا أصابكِ يا حبيبتي؟

بهدوء قاتل تجيب:

ـ لا شيء، فقط حادث سيارة بسيط، استلزم علاج يومين.

يظهر الغضب جليًّا على وجهه (علّية):

ـ أتتركي أمكِ يقتلها القلق عليكِ؟ لمَ لم تتصلي بها، تطمئني قلبها؟

تمارس هدوءها:

ـ دخلت في غيبوبة عقب الحادث، عندما أفقت أخبروني أنّه بإمكاني الخروج.

تحترق الأخرى ببطء، تلك كلمات لا ترضي فضولها.

ابتسامة ترتسم على وجه زوجها، يبدو أنّه يشمت بها. يلقي التحية يريد الانصراف، يتوقف علي صوت زوجته:

ـ انتظر سأذهب معك يبدو أن (ألفت) لديها الكثير من العمل.

تتصنع صاحبة البيت ببعض الحرج:

ـ لم تتناولا شيئًا، لِمَ العجلة هكذا؟

يرد الآخر من على الباب:

ـ نحن أهل ولسنا ضيوفًا، نستودعكم الله.

يرتسم الفرح على وجه الأم، تشعر بسجن ابنتها يتحطم ولكنه فرحٌ سرعان ما يتلاشى عندما ترى عيني ابنتها تترقرقان بالدموع.

تتجه (هناء) نحو غرفتها، تقترب من النافذة، تجعل مرفقاها دعامتين ليحملا وجهها بين كفيها، عيناها تتابعان هيئات الرائحين والغادين يحاول كل منهم سبق صاحبه! جرحها لا يزال ينبض: أفي هؤلاء مَن لاقى مثل ما لاقته! أمنهم مَن يحس بما تعانيه!

عقلها يرد: نعم، ربما.

يقاطعه قلبها: لا، فما هم إلا نسيج يتشكل وفقًا للأهواء والأطماع، فما خرج الجناة إلا من رحم تخاذلهم واستيلاء الجبن على ما تبقّى لديهم من كرامة وأخلاق!

يعود قلبها ليكتم جراحه على صوت طرقات بالباب:

ـ هيا يا ابنتي، فميعاد الذهاب للعمل قد حان، ألم تخبري الحاج (علي) أنكِ ستعودين للعمل اليوم.

يدها تنزل الستار:

ـ نعم، يا أمي دقائق وأخرج.

الأم منهمكة في إعداد الطعام، صوت باب غرفة ابنتها يصل لأسماعها، تهرول إلى خارج المطبخ:

ـ (هناء)، الإفطار يا ابنتي.

تطبع قبله على يد أمها:

ـ اعذريني يا أمي فالوقت لا يرحم.

تنكسر نظرات الأم علي صوت الباب يغلق كأنه صوت صدرها يطبق على ما تبقّى لها من قلب.

تقطع الطريق على مهل، يدها ترد على تحيات الناس، ينحني بها الشارع الصغير، يُلقي بها لما هو أكبر منه، خطوات قليلة جعلتها على حافة الزحام، عقلها يصر على استرجاع ذلك المشهد! يهالها أنه محفور بداخلها بكل تفاصيله! أخرجها منه صوت الأتوبيس قبل أن تتمه، يداها تدفعان الناس بقوة حتى أصبحت بالداخل، نأت بنفسها جانبًا عن أمواج المتدافعين.

خطوة للأمام لتسند ظهرها للزجاج خلف السائق، بمقدورها الآن تصفح كل الوجوه، تتنقل بين الهيئات حتى استقرت على مشهد لفت انتباها:

امرأة رسم الدهر تقلباته على وجهها باقتدار، تبدو كمستودع للأمراض، تستند بمرفقها المرتعش لأحد المقاعد؛ حيث يجلس شاب يلهو بهاتفه، ترفع المرأة بصرها لأعلى كأنها تدعو الله بأن يمنّ عليها بالموت ليخرجها من عالم لم يعد يتسع لأمثالها!

لا تزال عينا (هناء) تتابعان، يبدو أنّ صاحب الهاتف قد ملّ منه وأراد أن يتلهّى بشيء آخر، بصره تثبت على (هناء) يخترق جسدها بوقاحة! عقلها يلملم فكرة بدأت تكتمل، أكسبت نظراتها بثوب من الاستحياء مما دفعه للمتابعة، إيماءات برأسها تدعوه للاقتراب! يترك مكانه ويتقدم نحوها يشق طريقه وسط كتل من الأجساد.

تنظر (هناء) نظرة رضا نحو المرأة العجوز التي استراحت على المقعد، بينما الشاب يكاد يلتصق بها! تلتفت نحوه وتصفعه بحقيبتها.. يريد أن يضربها.. تمنعه أيدي الواقفين في عجاله، هرج ينتاب الركاب، بعضهم تتعالى تساؤلاته، وآخرون يطالبون الجميع بالهدوء. يرمقها بنظرات ملتهبة بعد أن أصبح قليل الحيلة، وهي ترميه بابتسامات ساخرة!

محطة نزولها تقترب، تستخلص جسده بصعوبة، تقترب من الباب، يبدأ الأتوبيس بالتوقف، تسرع بالنزول.

تشعر بنشوة الانتصار تسري في جسدها، ترفعها في خفة فتسرع الخطى!

وفجأة تلتصق قدماها بالأرض، تلمح هيئة شابٍ من ظهره يستند إلى أحد الأعمدة، يحدّق بساعة يده، حركات يديه توحي بملل تمكن منه فيشير إلى سيارة أجره ويغادر الموقع.

أسئلة تتصارع بعقلها:

- أيمكن أن يكون أحدهم؟ وإن كان، فما الذي سيأتي به لهذا المكان مرة أخرى؟ أيكون مرادهم التأكد بأن الأمر لم يكشف بعد؟ أو... أو ربما التأكد من موتها؟

8

أغانٍ غريبة تنبعث من هاتف جوال، يد تمتد نحوه بتثاقل، بصوت متقطع يرد:

ـ خيرًا يا أبي.

ـ ...

ـ تعلم أنني بمثل هذا الوقت احتضن الفراش.

ـ ...

ـ ألا يمكن تأجيله فيما بعد؟

ـ ...

ـ أهو ضروري لهذا الحد؟

ـ ...

ـ حسنًا، حسنًا، نصف ساعة وأكون عندك.

يلقي بالهاتف على مقعد بجوار النافذة، أفٌّ تخرج من أعماقه، بضجر يطغى عليه يقول:

ـ هذا الرجل دومًا يقلق منامي، لكن لا حيلة لي أمامه، أرحني منه يا الله.

يدفع الغطاء عن جسده، يضرب وجهه ببعض الماء، يرتدي ملابسه في عجالة، يبحث عن الهاتف، يقبض عليه، يغلق الباب خلفه بعنف، يسرع الخطى على السلم ميممًا وجهه تلقاء الباب، تتسمر قدميه مكانها إثر صوت يناديه:

ـ (خالد) انتظر!

يضرب بقدمه الأرض، يستدير عليها مع نصف الأخرى، يرسم ابتسامة زائفة على وجهه:

ـ صباح الخير يا أمي، أتبغين شيئًا مني؟

ترد وإحدى قدميها تتأرجح على الأخرى:

ـ إلى أين تنوي الذهاب؟

تطرد الدهشة ابتسامته الهشة، تتحول إلى غضب عند قوله:

ـ هذا سؤال لم تعهده منك إذناي، منذ متى تسأليني إلى أين أذهب، أو متى أعود.

تقفز قائمة، بخطوات بطيئة تقترب منه، وجهها يلفه الاضطراب، أصابعها تتوارى بجيوبها الضيقة، تحاول امتصاص غضبه:

ـ ما أردت إلا الاطمئنان يا ولدي، فليس من عادتك الاستيقاظ بمثل هذا الوقت، إن كان يغضبك قلقي عليك، فلن أفعل ذلك مجددًا.

دموعها تبدأ الظهور، تبددها بيديها على الفور مع شهقات متسارعة تستعطفه.

يقابلها بتنهيدة عميقة تنم عن بقايا غضبه، يعطيها ظهره يبتعد، عيناها تتابعانه حتى اختفى مع صوت الباب يغلق، تعود لمقعدها تجفف ما تبقى من دموعها، تضع رأسها بين يديها، تسترجع أحداثًا ربما يكون الزمن قد نسيها، لكنها دومًا لم تفارق عقلها.

يسرع الخطى نحو سيارته، يشير بتجهم يغطّي وجهه للبواب أن يفتح البوابة، يهرول الآخر لينفذ ما طلبه منه، فهو يعلم ما ينتظره إن تلكأ هنيهة، يداه تقبضان على قضبانها وعيناه تنظران للخلف، يفتحها ويلقي بنفسه بعيدًا عن إطارات السيارة التي كادت أن تطحن عظامه!

تخترق السيارة زحام الشارع لا تلقي بالًا لشيء، آلة تنبيهها لا تتوقف عن إصدار صوتها الصاخب، عيناه ما بين الطريق وساعة يده، يشعر أن يدًا تلعب بعقاربها، يضرب عجلة القيادة بغضب:

ـ آه لتلك المرأة، أضاعت الكثير من وقتي.

سؤال قفز لذهنه فجأة:

ـ ما الذي يريده أبي مني! وما سر تلك العجلة لحضوري!

عقله يتجاذب خيط أفكار ملئت قلبه رعبًا: أيكون قد علم بالأمر؟ لكن كيف عرف؟ أيكون الموظف هو مَن أبلغ الشرطة؟ لالا فهو مثلنا تمامًا فكيف يورد نفسه المهالك!

تكاد السيارة تصعد الرصيف أثر قوله:

ـ المرأة!! أتكون فعلتها؟ لكن كيف؟ أتكون قد حفظت أرقام السيارة؟

يوشك قلبه أن يودّع الدنيا، قدمه من تلقاء نفسها تكبح جماح السيارة فجأة، صوت يصمّ الآذان يصدر من تشبث الإطارات بالإسفلت، يلقي برأسه للخلف، يداه تشتبكان من خلفها، قلبه من الرعب يدفع نحو عقلة تخوّفات تشل حركته:

أيكون أمرنا قد اكتشف بكل تلك السهولة؟ أيمكن للفتاة أن تطوي أحزانها ولا تهتم لتهديداتنا وتروي ما حدث؟ هذا إن لم تكن فارقت الحياة.

ماذا سيكون موقف أبي؟ أيتركني أواجه المصير وحدي؟

يطمئن نفسه:

لا، لا فأبي يحبني بشدة، سيفعل أي شيء من أجلي.

خوفه يتفوق مجددًا:

ـ وماذا يمكنه أن يفعل والأمر لا يتعلق بي وحدي؟! هناك آخرون لا يمكنه إنقاذهم معي!

يسرح بخيالة بعيدًا يستبق الأحداث:

يرتدي لباس السجن وسط أهل الإجرام، يد تصافح قفاه تشعل به النار تدفعه للسير، يقبع في القفص ينتظر ما يتفوه به القاضي، عيناه تستعطفانه تطلب الرحمة!

طرقات على الزجاج تعيده إلى الواقع، طفل رث الثياب يطلب الإحسان.

يشير إليه بأطراف أصابعه ليبتعد، لم يأبه الطفل لإشارته وداوم على الطرق، يده تتحسس المفتاح، يحركه فيعلو صوت السيارة تريد الرحيل، يحدث نفسه:

لننطلق لنقف على حقيقة الأمر، مهما يكن فلا مفر منه، وربما يكون غير ما أتوقع ولا تعدو تلك الأفكار إلا أن تكون هواجس نفس أو وساوس شيطان.

عينا الطفل تتابعان السيارة تبتعد، يشعر أن شيئًا بداخله يتحطم، كان يمنّي نفسه بالحصول على ما يكفيه لأسبوع من صاحب تلك السيارة الفاخرة!

9

تبحث السيارة لنفسها عن مكان يأويها وسط خضم من مثيلاتها، محاولات عدة تسفر عن مكان يبتعد بها قليلًا عن مبتغاها، تطمئن بموقعها وتلتزم الصمت، تفتح بابيها الأماميين ليترجّل منها (صابر) و(عمر)، يغلقان البابين برفق يوحي بالحذر، عيونهما تحاول الإلمام بالمبني الشاهق، يقطعان بضع خطوات بطيئة حتى الداخل الفخم، يقتربان من أحد الحراس ضخم البنيان، يتفحصانه من أسفل إلى أعلى، بهدوء اصطنعه باقتدار أكبرهما سنًا:

ـ نريد رؤية صاحب المجموعة، أهو هنا؟

ضحكات ساخرة تنطلق من الضخم تجذب نحوهم بعض الأنظار، وبأطراف أصابعه يمسك بملابسه المتواضعة باستهزاء:

ـ أنت تريد رؤية صاحب المجموعة! هكذا بكل بساطة!

يحاول الدكتور بغضب أن يمسك بخناقة، يمنعه صاحبه من ذلك، بهدوئه القاتل يستخلص ملابسة ببطء:

ـ أضمن لك مكافأة كبرى من رب عملك إن أوصلتنا إليه.

تومض عيناه عند ذكر المال، يحكّ مؤخرة رأسه يقلّب الفكرة، يستمر للحظات ثم يقول:

ـ حسنًا دعني أولًا أستفسر من السكرتيرة هل بالمكتب الآن أحد معه أم لا؟

بقوة يقبض على يده:

ـ دعك من هذا، فقط أمسِك بي من أعلى ملابسي من الخلف وأفعل بصاحبي كذلك، وادفعنا بقوة أمامه وأنت تقول: أمسكت بهاذين يحومان حول الشركة.

يعيد التفكير بنفس هيئته السابقة، بسرعة تذهلهما يفعل بهما كما أرادا:

ـ أعدكما سيكون اليوم ختام حياتكما إن أصابني مكروه جرّاء ذلك.

يسوقهما أمامه مع استسلام تام من كليهما، يصعد بهما المصعد حتى الطابق المقصود، تقف السكرتيرة على أعصابها، بغضب تصيح به:

ـ كيف تدخل هكذا بلا استئذان؟

يومئ بعينه تجاههما، فتتساءل مسرعة:

ـ ومَن هذين؟! هيئتهما وأنت تمسك بهما تجلب الارتياب.

يتجاهل تساؤلاتها بإيمائه من رأسه نحو باب المكتب:

ـ أيوجد مع سيادته أحد؟

تخرج زفيرًا يخفف من حدة غضبها، تعدل من هيئتها لتعاود جلستها السابقة.

يدرك من صمتها المتعمد أنه بالداخل وحده، لم ينتظر ردها، يدفعهما بغضب مفتعل تجاه الباب، يفتحاه بجسديهما.

ينفتح الباب ببطء، يكشف النقاب عن رجل يكاد يلتصق بالحاسب، خطّ الشيب مفرقه، تظهر على ملامحه آثار النعيم، لم ينتبه لصوت الباب أو لأقدام الداخلين.

يخرج صوت الحارس متقطعًا:

ـ عذرا (فهمي بيك)، هناك أمر مهم.

يستفسر بلا التفات إليه:

ـ ماذا وراءك يا لعين؟

يتقدم بضع خطوات منه:

ـ أمسكت بهاذين يحومان حول المجموعة، ارتبت فيهما فأحضرتهما لسيادتك لترى فيهما رأيك.

يستمر في تجاهله له:

ـ أهذا سبب يستدعي اقتحامك للمكتب بهذه الطريقة؟

يلتصق لسان الحارس بسقف حلقه لا يحر جوابًا.

يتقدم أحد الوافدَين بثقة تجاه المكتب:

ـ أعتقد أن وجودي هنا يستدعي اقتحام المكتب بأي طريقة؟

ترتفع عيناه عن الحاسوب فجأة، أذناه تعرف هذا الصوت! يرفع عن عينيه نظارته ليضع مكانها أخرى، يدقق النظر في وجهه كأنه يسترجع ملامحه من ذاكرته، ينطق لسانه بعفوية:

ـ (صابر)!!

يتبعها بصرخة مدويّة باتجاه الحارس:

ـ أغلق الباب يا حيوان!

يهرول الحارس يغلق الباب واضعًا نفسه أمامه، يتسرب الخوف شيئًا فشيئًا لنفس (عُمر) فيتقدم بضع خطوات قرّبته من رفيقه الذي بدا هادئًا تمامًا.

ينهض (فهمي) من وراء المكتب، يضع يديه بجيبي بنطاله، يتقدم ببطء ونظره أسفل قدميه، يقترب أكثر فأكثر.

وفجأة! تفارق يداه مكانيهما ليمسكا بخناق (صابر)، شرر يتطاير من عينيه، تتقارب يداه من بعضها ببطء، وجه (صابر) يكاد ينفجر، بكلمات تحاول الخروج من بين أضراسه:

ـ أتيت لحتفك يا أحمق، سقطت في يد لا ترحم، سأستخرج ما أريده منك من بين عظمك ولحمك، وستندم الآن على يوم مولدك.

يهرع (عُمر) لإنقاذ صاحبه، يتسمّر مكانه إثر سلاح التصق برأسه!

يد (صابر) تشير إليه أن عد كما كنت.

تتوالى كلمات الغضب:

ـ كم تمنيت تلك اللحظة من سنوات، يا لها من سنوات! لكن الغباء لم يذهب بك بعيدًا لترتكب بعض الحماقات، وهذا من حسن حظك الذي انتهى الآن.

ثنايات الملابس تواصل غوصها بعنق (صابر) يشعر بروحه تحاول فراق جسده. أعضاؤه تتقاتل على ما تبقّي بأعماقه من هواء! لم يشعر بنفسه إلا ويده تصفع سيادته صفعة كادت تذهب بسمعه، آثار أصابعه لا تزال تشهد بهذا!

علي الفور يصوّب الحارس سلاحه صوب (صابر) على وشك الإطلاق.

صوت سيده يرتفع بشدة:

ـ لا، لا، لا تفعل.

يعاود السلاح التصاقه برأس (عُمر) الذي يهوي في بئر من الخوف.

(صابر) ملقى على المقعد، أنفاسه تسابق بعضها تستعيض عما سبق، يشعر الآن بروحه تعاود الانتشار بأنحائه.

يتحسس صاحب المكان وجهه، يشعر بسخونة الصفعة! يضرب سطح المكتب ضربة تطيح ببعض ما فوقه، بكلمات تقطر غِلًّا:

ـ قسمًا لأجعلنك تندم ندمًا يتسع لألف من أمثالك.

ينطلق ظهر يده يردّ الصفعة! يشعر (صابر) كأن رأسه تقتلع.. خاتم في أحد أصابع سيادته يترك جرحًا غائرًا في خد (صابر).. تتدفق الدماء من وجهه.

يسرع (عُمر) لإسعاف رفيقه، يخلع بعض ملابسه يدفع بها الدم.

لم يحرّك منظر الدم مشاعر سيادته قيد أنملة سوى أنه ذهب ببعض غضبه.

ينهض (عُمر) بعد أن أتم مهمته، يتقدم خطوتين نحو (فهمي بيه)، بعينين تعكسان مكنون صدره، يقول:

ـ قد قال من الكلام الكثير عنك، بجمع من صفات الشر وصفت لي، رسم خيالي صورة لك بداخلي على الرغم من اعتراضي. لكن كما قال من سبقونا ولم نعتبر بهم «ليس من سمع كمن رأي»!

إشارات بيده تدفعه للصمت:

ـ كفاك هراءً واستمع لكلماتي بإنصات: إن أردت النجاة بنفسك؛ أقنع صاحبك أن يعيد ما استولى عليه، أما هو فلا يزال بيني وبينه أمور لا دخل لك بها.

يسند ظهره لمقعده يتأرجح به:

ـ أنت الآن في ريعان شبابك، أمامك مستقبل كبير يتطلب منك الالتفات إليه، فلا تقحم نفسك فيما لا طاقة لك به. ها أنا أمنّ عليك بفرصة لتستكمل الحياة، إن كان رفيقك يريدك حقًا أن تستكملها!

بغضب يظهر جليًا في حركات يديه يعلو صوت (صابر):

ـ أرح نفسك من صياغة العبارات فلن تحصل على ما يخصّك لدي إلا عند عودة الفتاة.

ابتسامة مصطنعة تعكس حجم دهشته:

ـ الفتاة؟ أيّ فتاة؟!

يترك (صابر) موقعه، يدنو منه، يكمل:

ـ دع عنك وساوس أن تستنطقني بالقوة، فلست بأحمق لأقف موقفي هذا دون درع أتّقي به غدراتك. سيفي المسلط على عنقك الآن بيد شخص آخر. وإن لم نعد بظرف سويعات قليلة ستجد من رجال الشرطة من يطرق بابك!

تتحول ابتسامته لضحكات ساخرة:

ـ يبدو أنك تكثر من مشاهدة أفلام أكل عليها الدهر وشرب.

قبضته تضرب المكتب، غضب يقتل ضحكاته:

ـ أيام قضيتها معي ربما علمتك ألا تختبر صبري، فلا تهدر وقت ربما يشفع لك عندي.

صوت أنثوي يصدر من أعلي المكتب يدفعه للسكوت:

ـ ضابط من الشرطة يصرّ على مقابلة سيادتك، مرارًا حاولت إثناءه عن عزمه لكنه تمسّك بموقفه.

يعلو صوتها:

ـ انتظر يا ... انتظر يا هذا!

ينفتح الباب على مصراعيه، تتبعه السكرتيرة لا تزال تناديه، إشارة من رئيسها تدفعها لإغلاق الباب من الخارج.

يتفحّص الضابط الوجوه الموجودة ببعض الريبة، يتوقف بصره هنيهة عند وجه (صابر) الذي يختفي نصفه، تستبد الدهشة بالجميع سوى القابع خلف مكتبه يصارع اضطرابه.

يتقدم نحوه، يده تبحث عن شيء بجيب معطفه الداخلي، يخرج بطاقة التعريف الخاصة به ويضعها على المكتب مع كلمات تصدق على ما فيه:

ـ المقدم (عماد العارف)، مباحث قسم قصر النيل.

يتأرجح (فهمي) على مقعده كعادته عند إظهاره لعدم الاكتراث:

ـ ليس هذا كافيًا لتقتحم المكان هكذا يا صغير الشرطة.

يحتل مقعدًا في مواجهته، أصابعه تنقر على المكتب ببطء يعكس برود أعصابه:

ـ تلك بداية لم أتمنَ أن تحدث جراء ما أتيت من أجله، لكنّي توقعتها من أول وهلة رأيتك فيها.

الآخرون يعتصمون بالصمت، كلّ في مكانه انتظارًا لمعرفة القادم من الأحداث.

لسانه يلتحف بالغضب:

ـ أتعلم مع مَن تتحدث؟ انظر أمامك جيدًا واحترس لما تتفوه به.

ـ سيادتك أشهر من أن تسأل سؤال كهذا (فهمي بيك) فصيتك يملأ الأسماع حتى طرق أبوابنا عن غير قصد!

يختم الشرطي عبارته بسخرية يحرص على إظهارها.

يفارق مقعده إثر نيران اشتعلت بداخله، يميل برأسه نحوه، عيناه تعكسان وميض النار:

ـ إما أن تنجز ما أتيت من أجله وتخرِج ما في جعبتك، أو تفارقنا إلى غير رجعة.

يومئ الضابط برأسه:

ـ حسنًا، حسنًا، فهناك ما هو أهم.

تغوص يده بمعطفه، تعود بصورة قرّبها له على استحياء محاولًا إيقاظ فضوله:

ـ دقِق النظر قبل أن تجيب، أتعرف تلك الوجوه أم هذا أول عهدك بها.

يصرف بصره تلقاء الجهة الأخرى:

ـ أمثلي يسأل عن تلك الأشكال! ابحث عن أمثالها بدفاترك.

يكسو وجهه ببعض الاشمئزاز محاولًا إخفاء قلق يتسع بداخله.

يواصل (عماد):

ـ لا تتعجل! فربما لا يزال هناك ما تود معرفته.

يلتفت نحوه فجأة:

ـ هات ما عندك دَفعة واحدة، ولا تتصنع ذكاءً أنت أبعد ما يكون عنه.

يواصل طريقته في التحدث:

ـ ما أسميتها أشكالًا، كانا يستقلان إحدى سياراتك، أقصد ما كانت سيارتك قبل أن تحتضن إحدى الأشجار.

يلتزم صاحب المكان الصمت للحظات، يبدو كمن يعد جوابًا:

ـ نعم، نعم السيارة! لقد سرقت من فترة، كثرة أشغالي ألهتني عن الإبلاغ باختفائها، من الجيد أنك وجدتها.

تعاود أصابعه نقر المكتب:

ـ ليس جيدًا كما تظن، فبخلاف دماء من ادعيت بأنهم لصوص، هناك دم لآدمي ثالث كان بحقيبة السيارة، لكنه دم دون جثة أو جريح!

ملامح الفرح تترسم على النصف من وجه (صابر)، (عمر) هو الآخر يحاول إخفاء ما يحسّه.

كلمات الشرطي لا تزال تنهال على مسامع صاحب المكان:

ـ سؤالان يؤرقاني ربما تمتلك لهما جوابًا: لمَن تلك الدماء؟ ولماذا هي بحقيبة السيارة؟ آه، عذرًا هناك سؤال ثالث، أعتقد أنه سيؤرّقك مثلي، أين اختفى صاحب تلك الدماء؟

غضبه يبحث عن مخرج، يسرع صوب الباب، ينال الباب نصيبًا من الغضب لاستعصائه على الفتح، يده تشير للخارج، عينه تجاه الشرطي:

ـ لم يعد لك مكانًا هنا، ولا تطلّ بوجهك هنا إلا بشكل رسمي، ولا أظنك تفعل إن كنت تودّ الاستمرار في عملك.

ابتسامة ساخرة ترتسم على وجهه لحظة نهوضه، خطوات بطيئة تقربه باتجاه (صابر) المصاب، يتفحص وجهه قائلًا:

ـ من فعل بك هذا يا هذا؟

يخفض (صابر) رأسه:

ـ لا أحد، سقطت فقط على السلم.

بحسّ الشرطي يدرك أنه يُخفي الحقيقة، يتقدم صوب الباب:

ـ يا للأسف!

قدماه تشرعان بالخروج، لكنه يتوقف إثر صوت يناديه، يلتفت نحوه:

ـ ماذا هناك؟ أتريد شيئًا؟

يتقدم نحوه صاحب الصوت، يده تحمل بطاقته الشخصية:

ـ (عمر عامر) طبيب.

يقلّبها (عماد) أمام عينيه:

ـ وماذا بعد يا ابن الإسكندرية؟

يقترب منه أكثر، يشير نحو رفيقه:

ـ هذا المصاب فقد الكثير من دمه، نرجو من رجل الشرطة أن يقلنا في سيارة الشرطة لأقرب مستشفى.

يطغى الإعجاب على وجه (صابر) من رجاحة عقل صاحبه!

يرتفع صوت صاحب المكان، مخاطبًا رجل الشرطة:

ـ لا، دع عنك هذا فهو ليس بعملك، سنهتم نحن به ونرعاه على أكمل وجه.

كأنّه لم يستمع لتلك الكلمات، يُمسك بذراع المصاب يساعده على النهوض، يشير إلى (عُمر) أن يتقدم أمامه، يلقي بنظرة ساخرة تجاه (فهمي) وحارسه:

ـ معذرة يا باشا! فلست بمن يرد يدًا لجأت إليه.

تتعالى ضحكاته قبل أن يغادروا المكان.

غضبه (فهمي) العارم يكاد يخنقه، يداه تطيح بكل ما تتوصل إليه، يقترب رغمًا عنه من النافذة، يتابع صيده يتفّلت من بين يديه، وهو عاجز عن فعل أي شيء!

10

جسده يختبئ خلف عجلة القيادة، عيناه تتابعان الموقف بترقّب، خوف يفتت قلبه:

ـ الشرطة! لماذا هي هنا؟! أيكون أبي قد اقترف شيئًا؟! أم يكون أمري قد افتضح؟!

رعب يجتاح كيانه إثر تذكره لجرمه، كل ما فيه توقف عن العمل إلا عينيه، أشخاص لا يعرف أيًّا منهم يقتربون من سيارة الشرطة! أحدهم يتجه لسيارة أخرى:

ها! مَن هذا المصاب؟! ما الذي أتى به إلى مجموعة والدي؟! ولماذا تقبض عليه الشرطة؟! أيكون من الموظفين؟! لا، لا فتلك الأشكال لم أعهدها مسبقًا. ها، ما هذا؟! مقبوض عليه ويجلس بمقدمة سيارة الشرطة! ما الذي يحدث؟! في الأمر سرّ خفيّ لا بد من الوقوف على حقيقته.

الشرطة تنسحب من الموقع، فيعود المكان لطبيعته السابقة، تبددت مخاوفه عندما اختفت السيارة عن عينيه تتبعها الأخرى، يترجل مسرعًا يسبقه فضوله، لا يلبث أن يختفي داخل المبني الشاهق، أصوات وإشارات ترحب بقدومه لا يلقي لها بالًا، تتنصب

أقدام السكرتيرة عند رؤيته، بعبارات من وراء قلبها تستقبله، يديه تضغط على كتفيها تدفعها لمعاودة الجلوس، ملامح وجهها لم تتغير فقد اعتادت منه تلك الأفعال مرارًا، يميل برأسه نحوها، يهمس في أذنها:

ـ أمعه أحد بالداخل؟

حركات رأسها تشير بالنفي، إحدى يديه تنقل قبلة من فمه تضعها على خدها، كتفاها يستردان حريتهما فتعود لعملها، بضع طرقات لم ينتظر لهم جوابًا يدخل على إثرهم، يبدو أن طرقاته لم تفلح في جذب الانتباه، يتقدم ببطء شديد، تكاد قدماه لا تلامس الأرض يتوقف بمحاذاة مَن لا يزال يجاور النافذة. يبدو أن عقلة خارج المكان، يحذو حذوه في النظر للشارع، حتى الآن لا يشعر بوجوده، يقترب أكثر حتى يصطدم بكتفه:

ـ معك حق (فهمي بيه)، الرؤية من هنا تكشف كل شيء.

يلتفت إليه فجأة، بقايا من غضبه لا تزال على ملامحه، يخرج صوته عاليًا:

ـ أين كنت يا لعين! ألم أطلبك منذ فترة!

دهشه يشوبها بعض من الخوف ترتسم على وجهه، يتراجع للخلف قليلًا يخشى أن يتطور الأمر لحد الصفعات، لم يعهد من أبيه تلك اللهجة، فهو لطالما تأخر عن مواعيده معه أو حتى تجاهلها تمامًا! كلماته حينها لم تتعد مرحلة التأنيب أو التحذير في أسوء الأحيان، أما أن يصفه باللعين فهو تطور خطير ينذر بشر يقترب.

يريد أن يستغلها فرصه للهرب من أمامه وهو في تلك الحالة، عقله يحدثه بأن القادم أسوء بالتأكيد، يتصنع حالة من الحزن غطّى بها وجهه وكأنّ آلام نفسه تدفعه للرحيل، قدماه تسرع الخطى تقصد الباب، ما إن وضع مقبض الباب في يديه حتى تسمّر مكانه إثر صوت أكثر حدة:

ـ (خالد)، انتظر.

يهوي قلبه يصطدم بالأرض يريق كل ما لديه من دماء، يمتقع وجهه بالاصفرار، عقله توقف عن أداء مهامه، بعض أجزائه تلقي بنفسها تستند إلى الباب، يستدير ببطء كأن أحدًا يلوي عنقه وهو يقاوم بأقصى ما يمتلك من قوة، قدماه تتشبثان بموقعيهما انتظارًا لسهام ستحجز أماكنها بين ضلوعه.

عينا الأب لم تلحظ من ذلك شيء، ينظر لأسفل مقعده، يبدو كمن يلوم نفسه على ما بدر منه، صوت ليس كذي قبل يخرج من أعماقه، ينتشل الآخر من وساوس أوشكت أن تقضي عليه:

ـ اعذرني يا بنيّ، فما لاقيته اليوم قضى على الكثير من صوابي.

يرفع عينيه لأعلى كأنه يسترضيه:

ـ تلك الكلمة كنت أودّ أن أقذف بها غيرك، لكنّه قريبًا سيتمنّى لو أن قدميه بُترت قبل أن يطأ مكانًا كهذا.

فرحٌ لم يستطع (خالد) إخفاء الكثير منه، يطغى عليه دفعة واحدة، يحسّ بقدميه تبغي الركض بكل اتجاه، عقله يطمئِن باقي

جسده بأنّ السر لا يزال طيّ الكتمان، رغبة جامحة بالضحك دفعته ليمازح أباه:

ـ هوّن عليك يا (فهمي)، يبدو أن السِّن قد تقدّم بك فأغرى الأراذل ليعبثوا بعرينك! لكن لا تيأس فقد أنجبت في لحظة لن تستطيع تكرارها، مَن يطوي لك الرقاب مكتفيًا بإشارة من أصغر أصابعك.

لم تفلح مداعبته السمجة إلا في اقتناص ابتسامة تصنعها الأب على سبيل المجاملة، يشير إليه بيده للجلوس، يقترب ببعض الدلال حتى يستقر بجواره، يد الأب تحجز مكانًا لها على فخذ الابن كمقدمة لحديث خاص، نظرة حانية تخرج من عينيه، يبدو كمن يرتب الكلمات حتى لا يثير غضب ابنه كالمعتاد عند التحدّث في مثل هذا الموضوع، بدأت يده في التحرك إلى الأمام والخلف توحي بأنه اهتدى للبداية:

ـ أعلم بمدى تشوّقك لتعرف السبب في استدعائي لك بتلك السرعة.

رأس (خالد) تهتز تصدق على كلمات الوالد مع بعض التبسم.

ـ بالطبع أنت تعرف رجل الأعمال الشهير (كمال الهاشم) فصيته يملأ الدنيا!

مرة أخرى يستعيض (خالد) باهتزاز رأسه عن استخدام لسانه، يبدو أن ذلك سهل كثيرًا علي الأب ليكمل حديثه دون مقاطعة:

ـ قام بدعوتنا اليوم لتناول الغداء بفيلته الرائعة.

بعض من الدهشة تدفع لسانه للتحرك:

ـ دعوتنا!! أتقصد أنا وأنت وأمي.

يرد الأب مسرعًا:

ـ لا، لا بل أنت وأنا فقط.

دهشته تزداد اتساعًا:

ـ أنت وأنا فقط! وما علاقتي بما يدور بينكما من أعمال ومصالح، عقلي يحدّثني بأنك تخطط لشيء ما، وربما تكون تلك الدعوة إحدى أفكارك، صارحني يا أبي واكشف لي عما يدور بدخلك!

تترك يده مكانها لتربت على كتف ابنه إعجابًا بفطنته، لكنّه سرعان ما أدار دفة الحديث باتجاه آخر:

ـ سيتمخّض لك هذا الغذاء عن مفاجأة سارّة، ستغرقني بعدها بالقبلات كلما تراني.

تفلح كلمات الأب في إلهاب فضوله مصحوبًا بأطماعه، ينهض من فوره يفرك يديه كأنه يحث عقله على التوصّل لمفاجأة أبيه المنتظرة، كعادته يفتح أبواب عقله لتستقبل كل الأفكار، يبدأ في إخضاعها لما بين يديه من مقدمات: رجل أعمال كبير، مأدبة غداء في بيته بناء على طلب والده، استبعاد أمه من قائمة الحضور، استدعاء أبيه له قبل الموعد بفترة كافية لضمان التمكّن منه!

يتابع الأب حركاته وإشاراته بشغف بالغ انتظارًا لما سيتوصل إليه.

يده تتحرك على قسمات وجهه، فجأة يتوقف، يطلق نظرات توحي بالنصر، يستعيد مكانه بجوار أبيه، تنهيدة عميقة تعرف طريقها لخارجه كبداية لحديثه، بحركة من إحدى عينيه يقول:

ـ أهي جميلة يا أبي؟

تلقي الدهشة بظلالها على الأب:

ـ كيف توصلّت إليها يا خبيث؟

يغرق (خالد) في سيل ضحكاته، فسؤال أبيه هذا أكد صحة استنتاجه.

يدا فهمي تصفقان من تلقاء نفسيهما:

ـ عقلك هذا يُخيفني بشدة، أخشى أن يذهب بك بعيدًا فيفتح عليك أبواب التهلكة.

يقاطعه فجأة:

ـ دعك من هذا وأخبرني عن الفتاة، كيف هي؟

أشارت يد أبيه تجسّد بعض المواصفات الأنثوية، يتمّها بقوله:

ـ تلك فتاة فريدة الصنع، مقاييس الجمال وضعت لتتفق معها، وأتحداك إن أطلقت عنان خيالك ليجمع كل ما تتمناه في فتاة؛ فلن ترتقي لمثل هذا المستوى!

ابتسامة ساخرة توحي بعدم التصديق تعرف طريقها لملامحه:

ـ لا ينقصك إلا القول بأنها إحدى حوريات الجنة!

يقترب (فهمي) من ابنه، يميل برأسه نحوه:

ـ إن كان بالجنة حور مثلها، سأسعى جاهدًا لأكون ضمن الأفواج الأولى.

سحب من الدهشة تحلّق فوق رأسه، حماس أبيه لتلك الفتاة ليس كسابقاتها! فلأول مرة يصف امرأة بمثل تلك الأوصاف مهما كان جمالها، إضافة لذلك لم يقترب في الحديث من أبيها أو ثرواته كما كان يفعل سابقًا! تدفعه الدهشة ليتساءل:

ـ كيف حال عقلها، تفكيرها، تعليمها، و... واسمها!

يشعر (فهمي) بأن مبتغاه يقترب، يعاود جلسته خلف مكتبه، يبدو كمن يبذل جهدًا لمنع لسانه من التحرك، يتصنّع هدوءً مفاجئًا، يحاول إشعال فضول ابنه.

يدرك (خالد) أن أباه يعاود الكره مجددًا، فيشير بيده كأن الأمر لا يشغل حيزًا من تفكيره، بداخله يعترف لأبيه بالكفاءة، ينظر إلى الجهة الأخرى، وفجأة، يبدو كمن تلقّى صفعة على وجهه، يقفز يفارق مقعده، يقترب ناحية المكتب:

ـ عند قدومي رأيت الشرطة تغادر المكان، تصحبها هيئات على ما أعتقد لم يألفها المكان، فما الأمر يا صاحب اليد الطولى؟

يطبق الوجوم على وجه الأب، يطارد فرحة الناشئ، يلفه الصمت رغمًا عنه، بقايا من غضبه المتواري تتجمع من أنحائه لتعاود الظهور بكلماته:

ـ ذلك أمر صغير، قسمًا لأنتهي من أصحابه قريبًا، قريبًا جدًّا.

11

تتباطأ سيارة الشرطة حتى تتوقف أمام بوابة المستشفى، سيارة أخرى على عجل تحجز مكانًا بجوارها، اضطراب يُلقي بظلاله على موظفي الاستقبال في المستشفى، يهرع بعضهم يساعد المصاب بمجرد ترجّله من السيارة. (صابر عبد المجيد جابر) يتناقلون الاسم فيما بينهم حتى يسجل في كشوف المرضى.

يتقدم (عُمر) من الضابط:

- لا يسعنا إلا تقديم الشكر لرجل الشرطة الكفء.

يربت الآخر على كتفه باسمًا:

- لا، لا دعك من هذا، فذاك من صميم عملنا، لكن أخبر صاحبك أنّي دومًا بانتظاركما إن أردتما كشف مكنون صدوركما، وتذكرا أنه ما تعملق المفسدون إلا بصمت البقية عن كشف أخطائهم، وتركهم للحقوق تضيع تحت وطأه الجبن.

ابتسامة تورث بحلقه مرارة، يزيّن بها (عُمر) وجهه، يصافح الضابط بحرارة قبل أن يتقدم نحو الداخل، يسأل عن مكان صاحبه، يدل عليه، يطرق الباب طرقات هادئة، يصافح الطبيب ثم يلقي بنفسه على أحد المقاعد، يتابع الأيدي البيضاء تضمّد جراح صاحبه.

دقائق تمر لم يشعر بها، ينتبه علي صوت يخاطبه:

ـ يمكنكما الذهاب الآن، فقط نودّ رؤيتكم كل يومين لتغيير أربطة الجرح.

يعتدل في جلسته:

ـ لا نريد إرهاقكم بصغائر الأعمال، فأنا طبيب، فأذن لي لأتولى ذلك عنك.

يمد الآخر يده مصافحًا:

ـ طبيب! أرجو المعذرة فلم أعلم بهذا من البداية.

يقبض (عُمر) على يده بحرارة:

ـ لا، لا عليك فما نحن إلا جند لله نخفف آلام الناس كلما أمكننا ذلك.

محرك السيارة المستأجرة يعلن عزمه على الانطلاق، سؤال يقفز فجأة من المصاب:

ـ إلى أين سنتجه الآن يا دكتور؟

ببطء يرد (عمر):

ـ ليس هذا هو السؤال، بل السؤال الأحق؛ هو أين ذهبت الفتاة، وما الذي حدث لها؟

تنهيدة عميقة يفتتح بها حديث جراحه:

ـ آه من تلك الدنيا، ما إن نشرع في التكيّف مع أحد وجوهها حتى تنزعه لترتدي وجهًا آخر! اعتقدت أنّ

حياتي ستنتظم على السير في طريق اضطرت لسلكه، لكنّ القدر أخذني على غرّة لتتقاذفني المدن والبلدان، أقنعت نفسي بمنطق اللصوص؛ اختبئ من الشرطة بالقرب من السجن، بحثت في كل ممتلكات (فهمي) وعقاراته عن جوار آمن، لم أجد إلا الشاليه بأطراف الإسكندرية، كنت قد اشتريته له بنفسي ليقدّمها هدية لابنه في أحد أعياد ميلاده، ومع كل هذا طالتني يده ولا أدري كيف.. يبدو أن للماضي الكئيب لعنات لن تهدأ، وكل شيء اقترفته يداي في سحيق عمري، قد أحصته دفاتر القدر!

يجترّ من ذاكرته القليل من أيامه الأخيرة، يبدو للحظات كمن فارق الحياة، وفجأة تهوي يده لتضرب فخذه بقوة:

ـ يا لغبائي، كيف لم تستوقفني تلك الهيئات؟ كيف تخونني الذاكرة إلى هذا الحد؟

ينطق لسان مَن بجواره:

ـ أستاذ (صابر)، ماذا هناك؟

ينتزع الكلمات من أحشائه بصعوبة:

ـ منذ أيام قلائل، اقترب من الفرن شخصان، لم تستغرب عيناي ملامحهما، كأنهما جاءا يبتاعان بعض من الخبز، رمقاني ببعض النظرات الغريبة وسرعان ما انتشرت بعض من ملامح الفرح عليهما! وما إن ابتعدا حتى تجاذبا حديثًا قصيرًا ثم اختفيا!

تفر بعض دموعه من سجنها:

ـ يا الله! مرة أخرى أدفع شخصًا إلى الهلاك.

يحاول (عُمر) تخفيف بعض أحزانه:

ـ تذكر أنّ الله بيده مقاليد الأمور، فلا شيء يحدث هكذا من تلقاء نفسه، بل كل شيء عنده بحساب ومقدار، وما يدريك، فلعلها الآن وسط أهلها.

يلتفت (صابر) نحوه مسرعًا:

ـ أو تكون ...

تختنق الكلمات بداخله، يطرق رأسه ينظر لقدميه.

يربت على كتفه برفق:

ـ أعدك، لن نبرح هذه الأرض إلا بعد الاطمئنان عليها، حتى لو سألنا كل شخص وطرقنا كل باب بحثًا عنها، هذا وعد لك مني أمام الله.

تتقدم السيارة بضعة أمتار قبل أن يتوقف بها (عُمر) أمام أحد عمال نظافة المستشفى قائلًا:

ـ إذا سمحت! أتعرف مكانًا نقيم فيه لعدة أيام ويكون معتدل النفقات.

يصمت الآخر قليلًا، ملامحه تدل على شيء يدور برأسه، يقول:

ـ نعم يمكنني أن أدلكما على ما تريدان، لكن إن انتظرتماني قليلًا حتى أبدّل ملابسي؛ سأوصلكما إليه.

حديث قصير بين (عمر) وموظف الاستقبال يصعد بعده برفقة صاحبه إلى الطابق الثاني، يفتح الغرفة المتواضعة ببطء، يسرع (صابر) بالاستلقاء على السرير، ينظر إلى السقف يضرب كفًّا بكف، تلامس يده عن غير قصد وجهه فيتأوه من الألم.

على مقعد بجوار النافذة يلقي (عمر) بثقله عليه، يتابع حركة السيارات القليلة في الشارع الضيق، ثوان قصيرة يغرق بعدها بتفكير عميق، يقرّب هذا ويستبعد ذلك، تنفرج أساريره فجأة لكنّ سرعان ما يعود جبينه ليتقطّب، يضرب المنضدة أحيانًا بيده كعلامة على انهزامه أمام اليأس لكنّ عقله يأبى الاستسلام فيعود لوضعه السابق.

وفجأة تضرب يده المائدة ضربة ليست كسابقاتها مصحوبة بصوته:

ـ نِعم الرأي ذاك!

يقفز نحوه صاحبه، يجثو أمامه:

ـ ها! أهداك الله إلى شيء؟

يمسك بيده ينهضه:

ـ نعم، نعم، سنتجه إلى المقدم (عماد)، نطلب منه جمع بلاغات الاختفاء بجميع أنحاء العاصمة والإسكندرية خلال الأسبوع الماضي، فبالتأكيد سيكون أهلها قد أبلغوا عن اختفاء ابنتهم، سنقارن بين المواصفات التي لدينا وبين تلك البلاغات، وعندها بإذن الله سنتوصل لحقيقة الفتاة. والخطوة التالية سنعلم ما أصابها بعد ذلك. هيا بنا، هيا.

يتراقص الفرح بعين (صابر) عقب انتهاء صاحبه، يطبع قبلة على كتفه تهنئة على عقلة الراجح.

تقسو السيارة على نفسها لتصل إلى مقصدهما، تتوقف على مشارف قسم الشرطة، كل منهما يسابق صاحبه في النزول.

ـ أخبر المقدم عماد أن الأستاذ (صابر) والدكتور (عُمر) يودان مقابلته لأمر بالغ الأهمية على الفور.

هكذا يتفوه أحدهما للجندي الواقف عند الباب.

لحظات قصيرة وسرعان ما ينكشف الباب عنه يرحب بهما، تتطاير الأسئلة من عينيه.

فيسرع (عُمر) يخبره وبأدق التفاصيل بالحكاية من أولها حتى الوقت الحالي.

وجه الضابط يظهر إعجابه بتفكيره:

ـ أهنئك على ما توصلت إليه، ساعة أو اثنتين على الأكثر وسنعلم مَن هي الفتاة، هذا إن كان لها أهل وأبلغوا عن اختفائها.

يرفع (صابر) يده:

ـ لك مني عهد الله حضرة المقدِم إن أوصلتني للفتاة، أن أضع رأس (فهمي عبد الحميد) بين يديك.

ابتسامه تتسع على وجه الضابط شيئًا فشيئًا:

ـ إذًا، اتفقنا.

12

مأدبة تكفي لإطعام حي كامل، تعجّ بكل ما اختلف وطاب من أصناف شتى من الطعام! خمسة أفراد اتخذوا أماكنهم يحيطون بها، رجلان من عِليَة القوم يتجاذبان أطراف حديث تتخلله ضحكات قصيرة، امرأة يبدو أن صباحها ذهب بأكمله لإعداد زينتها؛ لا تشاركهما إلا الضحكات.

مقعدان نأيا بنفسيهما جانبًا، تحتل أحدهما فتاة خطّ الحُسن ملامحها بيده، تشع الأضواء من وجهها كأن الشمس ارتضته مكانًا لها، يختال السكين في يدها يباهي غيره بمكانته المرموقة، لكنه يتحسّر لانفراد الشوكة بتقبيل ثغرها البهيج.

المقعد الآخر يعتليه (خالد) الذي تساوت أمامه أصناف الطعام لانشغال عينيه بتتبع مواطن الجمال، سؤال أوحد يتقاذف بداخله: أتلك حقًّا فتاة كغيرها من بنات حواء أم كل ما كان يراه من هيئات لا تستحق هذا اللقب؟

تلتزم الفتاة بصمت طويل تستمتع باستحواذها على عينيه.

أذناه تحثّ لسانه على النطق لتطرب تحت وقع صوتها الشجي، ينتظر انتقاء عقله أفضل الكلمات، حركة جسده المفاجأة توحي أنه قد وجد البعض منها:

ـ أحيي والدكِ على فراسته النادرة، يا (هيام) اختار لكِ اسمًا يعبر بحق عن حال كل مَن تحدثه نفسه باستراق النظر إليكِ، فما بالكِ الآن بي وكأنّ عينيّ وجدتا ضالتهما بعد بحث دقيق وأمد طويل.

يبدو أنّ كلماته أرضت بعضًا من غرورها، فيبدأ فمها بالتبسم فكأن الصبح يبغي الإشراق من جديد، تسند ظهرها للخلف، تشبّك بين أصابعها، يبدأ صوتها يعلن عن خفاياه:

ـ ألهذا الحد تراني فاتنة؟ أم تلك مجاملة من شخص يجيد فن الكلام؟

يحسّ أن كلماته نالت منها، يقترب منها أكثر:

ـ فاتنة! تلك الكلمة ستتوارى خجلًا من قواميس اللغة لما تبديه من عجز عن وصف تأثيركِ الهائل. يمكنكِ القول بأنّي تحررت من جاذبية الأرض لأدور هائمًا في فلكك.

ضحكات تحاول كبتها تعرف طريقها لأسماع الجميع!

يتمّ هامسًا:

ـ فلتقترب البلابل لتتعلم كيف يكون الغناء.

تدفع المقعد برفق للخلف لتستوي قائمة، تمتد يداها تقبض على يده تستحثه على النهوض، يشعر بأنّ الصيف أقبل فجأة، يخطوان بدلال في حضن الحديقة، يقتربان من مقعدين كانا معدّان سلفًا لهما حول منضدة تحوي ما لذ من المشروبات، يده تشير لها بأن النساء أولًا، ضحكاتها تعاود الظهور مجددًا، لا يجد بدًّا إلا مشاركتها.

الآن دور يده تقرّب نحوها مشروبًا تتناوله منه على مهل، يلامس الكوب شفتيها ويعود لمكانه ومحتواه لم ينقص شيئًا! إحدى قدميها تعتلي الأخرى، نظرات من طرف عينها تتسرب باتجاهه:

ـ حدثني أبي كثيرًا عنك يا (خالد) أو بالأحرى عن ذكائك، ولكنّه تجاهل ما هو أخطر من ذلك.. لسانك!

تتم عبارتها بنظرة كاملة نحوه كأنها تنتظر القادم من كلماته.

يشعر بأن الوقت حان لاختراق حصونها، تميل رأسه لتقترب منها أكثر:

ـ قالو قديمًا «ما يخرج من القلب.. لا يستقر إلا بالقلب»، ولكي يواصل قلبي إخراج ما بداخله، لا بد أن يتعرف على ما بداخل قلبكِ ويسأله: أتخفق الآن مثلي؟

تسوّي بين قدميها على الأرض، تقترب منه:

ـ أخبر قلبك أن قلبي يودّ أن يعانقه!

تتراجع رأسه من فرط ضحكاته، يبدو غير قادر على إيقافها.

تقابله ببعض التبسّم وهي تعاود جلستها الأولى.

تخفت ضحكاته شيئًا فشيئًا، ينطق بثقة:

ـ إذًا افتحيه لي لأكتشف الذي تخفيه حناياه.

تمتد يدها لتقرّب الكوب من فهما، الآن النقص يدبّ فيه، تطلق نظرها بعيدًا ليطوف بين الأشجار، ينطلق لسانها يختصر ما مضى من عمرها:

ـ منذ أن وطِئت الدنيا وأنا أشعر أنها لم تخلق إلا لي! أمنيات نفسي تتحقق قبل أن يعرفها لساني.. أحلامي تصبح واقعًا قبل أن تكتمل بداخلي، طفت بلاد العالم وراء أبي وأمواله، اشتقت لإحساسي بالغربة لكنّه أبدًا لم يولد بداخلي.. أشعر أن صفاتي مزيج متنافر من ثقافات شتى!

ـ الصداقة عندي كلمة لا مرادف لها، حارسي الشخصي يحميني من ظلي، أما أبي فيلهث وراء المال أينما وجده، سؤال وحيد يستعصي على لسانه النطق بغيره: أتريدين شيئًا أحضره لكِ مع عودتي؟ كم تمنيت أن يختمه بـ «يا حبيبتي.. يا حلوتي» أو حتى «يا بنتي»، ولكنّه قطّ لم يفعل.

يختنق صوتها فجأة إثر دموع أبت إلا الإعلان عن نفسها، تسرع يدها تحاول إخفاء ما تستطيع منها.

يده تمتد لتمنعها من ذلك:

ـ دعيها علّها تطفئ بعضًا مما يلتهب بأعماقكِ.

تخفي وجهها بيديها تطبق على شهقاتها.

يلقي بجسده للخلف، يصطدم بظهر المقعد، نفسه تحدثه:

ـ ها قد وجدت مَن يتحدث بلسانك.

فؤاده يصدّق على ذلك، مهما اختلفت الهيئات فالألم دائمًا واحد.

13

ـ اعلمي يا ابنتي أن الشدائد والمحن تصقل معدن الإنسان، ولن نعرف وجه الحياة الحسن إلا إن كنا قد عهدنا وجهها القبيح، وهكذا الدنيا أفراح وأتراح، فضعي آلامكِ تحت قدميكِ لتعتلي ظهر الحياة.

أصبعه يصل لنهاية حبات المسبحة، ليبدأ من جديد، يتم:

ـ تلك كلمات من رجل خَبُرَ الحياة، وحدّق بوجهها القبيح أضعاف ما لمحه من حسنها.

تمتد يدها تصافحه:

ـ لفراق حياة بها أمثالك.. هو منتهى الألم يا حاج (علي) أتأذن لي الآن؟

يده على مكتبه الصغير تشير باتجاه الباب:

ـ لترعاكِ عناية الله في كل خطواتكِ يا (هناء).

قدماها تسرعان الخطى من تلقاء نفسها لتصل إلى مكان تمنّت أن تلتهمه السماء بصواعقها ربما تمحو بعضًا مما حُفر بداخلها تجاهه.

منطقة فاصلة بين الرجال والنساء ترتضيها مكانًا لنفسها، كأنّ عينيها تبحث عن السيارة وسط سيل من مثيلاتها يفيض بها الشارع.

فجأة تشعر بيد تطرق على كتفها برفق من الخلف، تلتفت نحوها ببطء، عقلها يبحث عن تلك الملامح بداخله: (رأس يرتطم بالأرض، دماء على الإسفلت)! دمعة تتحدر من إحدى عينيها قد سبقتها أخرى من العين الأخرى:

ـ أنتِ! لا سامحكِ الله!

تعاود عيناها متابعه السيارات.

تتحرك صاحبة اليد لتقف أمامها:

ـ لو تعلمين ظروفي، ستلتمسين لي العذر.

تنفجر في وجهها:

ـ اختطَف من بينكم، يفعل بي الأفاعيل، أفقد أشياء لا تعوّض، وأصبح على مشارف الموت، وتقولين ظروفًا وأعذارًا!

دموعها تنسكب بغزارة:

ـ علّقت كل أملي عليكِ بأن تنهضي بواجبكِ، ولكني كنت كمن ينتظر الهداية من الشيطان.

صوت الأتوبيس يعلن عن قدومه. يتوقف أمامهما، تدفعها المرأة للداخل وتلحق بها، على مقعدين خاليين تجلسان متجاورتين.

(هناء) لا تزال تكابد دموعها. تُخرج لها الأخرى شيئًا تكفكفها به، تدفع يدها بعنف:

ـ لا حاجه بي لشيء من أمثالكِ.
ـ معكِ كل الحق فيما تفعلينه الآن، لكن لا تضعي كل الذنب على عاتقي، فهناك كثيرون لم يطرف لهم جفن.
هكذا تستهل السيدة حديثها، تتم:
ـ أولًا، اسمي (سعاد) وأحمد الله كثيرًا أن أعادكِ سالمة.
يصل لسمعها صوت شهقات يسرع في الازدياد!
ـ لن أنكر أن عينيّ التقطت أرقام السيارة، عندها عزمت على إعلام الشرطة بالأمر، لكني وجدت يدي تغلّ إلى عنقي عندما أخبرت زوجي بكل ما حدث.. كنت أظنه سيأخذني من يدي ولن يدعني إلا أمام الضابط أفرغ له كل ما بداخلي، لكنّي فوجئت بصوته الجهوري يطالبني بنسيان الأمر برمّته.. تمسّكت بموقفي فأخذني من يدي حتى أوصلني الباب، وبكلمات قوّضت أركاني صفعني: «هيا اذهبي! ولكن ابحثي لنفسكِ عن ابن آخر يسكن أحضانكِ، وبيت آخر يكتنف أعضائكِ».

عيناي تسألانه عن سبب رفضه هذا! فلم يكلّف نفسه عناء الرد، وأسرعت يداه تدفعني للخارج.. حينها لم أشعر إلا بضعفي يطرق الباب لأنزل على رغبته، لكن عزمي تحوّل لجهة أخرى.

يداي تبحث في كل أوراقه علّني أجد السبب، وبالفعل: وجدت تهرّبا من الضرائب منذ أمد بعيد، حسابات تُخفى وأخرى تحل مكانها.. وفجأة، أحسست بيده تحرّك مقبض الباب، لم أجد سوى حشر بعض الأوراق بملابسي لأسرع بالنهوض، اتجهت

لغرفتي والرعب يكتم أنفاسي، من عجلتي أخفيتها تحت السجادة بلا عناية، وإذ بزوجي يلحق بي، أيقنت حينها بالهلاك، لكنّ يده امتدت تخفِت الأنوار.

استيقظت في الصباح على صوته يحادث الهاتف يحتضن ولدنا بين يديه. ادّعيت الإرهاق لأتجنب الذهاب للعمل، لا همّ لي حينها إلا إرجاع الأوراق لمكانها، أثناء استغراقي بالتفكير في كيفية إخراجه من الغرفة، وصل لأسماعنا قرع أقدام قويّة يصاحبها ضوضاء وجلبة.. شعور داخلي يخبرني بأنها الشرطة ستهدم بيتنا، قفزت قلوبنا منّا لتستوضح الأمر، بالفعل كانت الشرطة ولكنها أتت تسعى خلف جار لنا فرّ من محبسه.

كأنّ إرادة الله تبغي عقابنا، عيناي تلمحان ابني يشرع بإلقاء تلك الأوراق من النافذة على رأس مَن بالأسفل.. كلّ ما فيّ توقف عن العمل حتى صوتي مات بداخلي خشية أن ألفِت انتباه زوجي فيسرع بإخراج أحشائي، انسللت من جواره ببطء نحو النافذة لأصعق على منظر الضابط يلملم الأوراق يتصفّحها.

ضممت صغيري لصدري انتظر صفعات القدر.. لم ينقضي يومان إلا وزوجي خلف القضبان وكلّ ممتلكاته قيد التحقيق.. جمعت حاجياتي، حملت ابني على كتفي لأستقر بمنزل أمي.

تنتابها ابتسامة يمزقها الندم:

- حرصي على ابني وبيتي منعني من محاولة إنقاذكِ، والآن بيتي قد انهدم وابني بلا مستقبل تطارده أوزار أبيه.

(هناء) تستعد للنزول، تستخلص قدميها من أمام مقعد الأخرى، يتصلّب عنقها تنظر إلى الأمام:

ـ قصّي ما آل إليه حالكِ على كل جمع تلاقيه، ربما تستيقظ أعين الجبناء.

تتقدم إلى الأمام بضع خطوات.

تلحق بها (سعاد) وتمسك بيدها من الخلف، صوتها يسابق دمعها:

ـ بالله استحلفكِ أن تمنّي عليّ بالغفران، فمن يومها وهموم الأرض تسكنني ولا أدري هل انتهى عقاب الله لي أم تلك فقط البداية!

يتوقف الأتوبيس، فتسحب (هناء) يدها ببطء، وقبل أن تلامس الأرض قدماها تختتم الحديث:

ـ الجئي إلى الله، فمن يده يتلقّى جميع مَن في الأرض المغفرة.

14

ابتسامة تعرف طريقها نحو ملامح (فهمي) لتضع رحالها عليه عند رؤيته لملامح السعادة تنطق بها عيون ابنه وهو يطوي درجات السلم ليحجز مقعده حول المائدة، بضع كلمات تخرج من فمه قبل أن يمتلئ بالطعام:

ـ ها يا (خالد)، أطرب أذني بالموافقة، وكفّ عن التفلّت منّي، فعينك تنطق بما تخفيه.

بسمات صامتة من الابن كإجابة.. دفعت الأب ليكمل:

ـ زفّ إليّ البشرى بأنّ ذوقي قد تحسن كثيرًا عن ذي قبل.

ينهي عبارته بنظرة لامرأة عن يمينه تكابد فضولها.

تلقي المرأة بالملعقة من يدها:

ـ أشعر بأمر سوء يحاك من وراء ظهري، أعلمني به يا (فهمي) قبل أن تهدمه ردّة فعلي.

تتحول ابتسامته لضحكات ساخرة:

ـ أنتِ تهدمين ما أبنيه يا (جيهان)؟ ألم أنصحكِ مرارًا بألا تتفوهي بأشياء تعجزين عن تنفيذها!

مقعد يتحرك يدل على أنّ صاحبه يريد الانصراف:

ـ أفضّل الانسحاب لأن حدسي يخبرني بأن الأمر السوء بحق سيحدث الآن.

خطواته تسرع تبتعد.

صوت أبيه يستوقفه:

ـ (خالد)، ألنّ تخبرني بما عقدت العزم عليه، أرجو أن تثلج صدري.

يستدير نحو أبيه وبإيمائه من طرف عينه:

ـ اطمئن يا أبي، فيبدو أنّ صدرك سيمتلئ عن آخره بالثلوج، لكن دع لي ثلوج أوربا فإنّي عن قريب سأتمرغ فيها.

تستعيد خطواته سرعتها حتى أوصلته إلى الباب.

تلتفت (جيهان) نحو زوجها:

ـ حذار أن تستخدم ابننا وقودًا لنيران شهواتك، فأنا أعلم جيدًا أن حماستك تلك لا تخرج إلا للمال، المال فقط.

تتواصل ابتساماته الساخرة:

ـ ما لكِ يا امرأة! أنا أحيل ابني وقودًا! إذًا لمن سأترك تلال الأموال تلك! ألكِ وحدك! ها!

تقترب منه قليلًا:

ـ إذًا أعلمني بما تخطط له، ومن يدري فربما عقلك قد اعتدل، ويروق الأمر لي!

يستند ظهره للخلف، حركة إبهاميه يلاحقان بعضهما توحي بأنّه يفكر بما قالته، يلتفت ناحيتها:

ـ حسنًا، سأخبركِ، لكن ليس اقتناعًا بكلامك، بل لأنني وجدت أنكِ حتمًا ستعرفين، فقلت أخبركِ بنفسي أفضل. الأمر ما هو إلا مشروع زواج، ذات يوم جاءني (خالد) يطالبني بأن أخطب له فتاة سكنت قلبه، سألته عنها وعن أبيها، فأخبرني بأنها فائقة الجمال وأنها ابنة لواحد من أكبر رجال الأعمال (كمال الهاشم) أظنكِ تعرفينه!

ملامح وجهها تكذّبه، فتهز رأسها:

ـ إذًا هذا كل ما في الأمر؟ ألا تخفي شيئًا آخر؟ عقلي يصدّق بعضًا مما قلته، لكن قلبي يكذّب البعض الآخر وقلبي لا يخدعني مطلقًا!

يقاطعها بغضب مصطنع:

ـ تتهميني بالكذب يا (جيهان)! حقًّا قد أخطأت عندما أعرتكِ انتباهًا وظننت أن لكِ عقلًا يعي ويفهم مثلنا!

إشارات من يدها تستوقف كلماته:

ـ دعك من تلك الحركات، واصدقني القول! إحساس بداخلي يخبرني بأن الأمر كله من ترتيبك ككل المرات السابقة، أليس كذلك؟

ينطلق لسانه بدون روية:

ـ وإن يكن، فما الضير في ذلك؟ علمًا بأن هذه المرة ليست ككل ما سبق.

أنفاسها المتسارعة تعكس غضبًا يتصاعد بداخلها:

ـ وكأنني قطعه أثاث متهالكة ملقاة في أحد الأركان، لا رأي لي ولا دور، نعلك يعرف بخططك لتزويج ابني قبل أن تهب رياح الكرم وتعلمني بها، بعد أن أفلحت في جر الولد لمستنقعك وخدعته بجمال زائف صنعته الأموال.

يروي حلقه ببعض الماء كأنّه يحاول ابتلاع كلماتها:

ـ أتعلمين يا حمقاء! إن استطاع ابنكِ إيقاع تلك البنت في شباكه سيجمع المجد من شطريه، سيصبح إمبراطورًا يخطب الأكابر ودّه قبل الرعاع، ستوضع القوانين وفق هواه، سيحرص المسؤولون على صداقته أكثر من إخلاصهم لمقاعدهم.

يبدو أن كلماته لم تتجاوز بعد أبواب أذنها:

ـ أتظن أن المال وحده يكفي لخوض غمار الحياة الصعب! الحياة ما هي إلا قطار، ما المال إلا إحدى عرباته! دعنا لا نذهب بعيدًا وانظر لنفسك، ها أنت تملك من المال ما يكفي لكشف كرب جيل بأكمله ومع هذا تشعر بأن ما ينقصك أكثر! تركض في كل اتجاه فيأبي النقص إلا أن يزداد ولا تدرك أن قطارك أوشك أن يصل! ترى الخوف من نفوذك يتقاطر من أعين الناس فتظنه على غير قناعة حبًا أو احترامًا مع أن قلبك يشعر بقلوبهم تلعنك، وتتمنى أن يولد يوم تنقضّ فيه رياح تقلّبات الدنيا على سفينتك، فتغرقها في محيط أفعالك القذرة. حينها سترى أنيابهم

بارزة لتنهش ما تبقّى من لحمك لتقف عظامك عُريًا في انتظار معول الحق يحيلها حطامًا.. لتفرّ روحك طريدة تلاحقها مصابيح النور حتى تقف بين يدي الله، ليجمعك مع أمثالك في زمرة واحدة لتستقر في قعر جهنم!

سيل دمعها بدأ ينهمر:

ـ لا تظن أن النسيان انتشل من ذاكرتي غدراتك بأبي بعد أن قرّبك منه وائتمنك على أسراره، لكن طبع العقارب كان أصلًا فيك! لم تكتف بالاستيلاء على الخِضم من أمواله فوجّهت حِرابك نحوي حتى سقطت في براثنك! بعد ذلك قدمت رقبته على طبق من ذهب لأعدائه فمزّقوه، حتى اكتنفه الموت ليريحه من حصار القهر، ثم ظللت تجرني خلفك أسيرةً بلا إرادة تنتظر عفو آسرها، لكن العفو صفة تأبى التواجد مع نفس كالتي بين جبينك.

كأنها أضرمت نيرانًا بمقعده، تهمّ يده أن تصفعها بكل ما في أعماقه من غيظ، لولا رنين هاتفه الذي اقتحم الحوار، يحاول نزع غضبه قبل أن يردّ:

ـ ماذا هناك يا (خالد)؟

ـ ...

ـ حقًّا! أوصل لها سلامي.

ـ ...

ـ أنفق عليها ببذخ، لتريها أن أباك يضاهي أباها مكانة.

ـ ...

ـ أهكذا تقرران من تلقاء نفسيكما؟! إذًا متى الموعد يا صاحبيّ الرأي؟

ـ ...

ـ الإثنين القادم! بعد أسبوع من الآن! لم تلك العجلة؟

ـ ...

ـ أيعلم أبوها بقراركما هذا؟

ـ ...

ـ حسنًا، حسنًا، سأتولى ذلك الأمر. تمنياتي لكما بأوقات ممتعة. (خالد) افعل كل ما بوسعِك لإرضائها، لإلهاب شعورها، اجعل رؤيتها لك أمرًا تستبق الزمن لتفعله.

ـ ...

ـ أعلم جيدًا أنك لا تجاري في أمور الفتيات، ما أردت إلا التذكرة.

ـ ...

ـ استمتع بلحظاتك، صحبتك السلامة.

عادت كلماته تتجه صوبها:

ـ أعدي نفسكِ لحفل الزفاف الإثنين القادم، ها أنا أعلمكِ قبل نعلي، لكن، حذاري أن ترتكبي أي حماقات، حينها سأضطر لكشف أمر أفنيتِ عمركِ لتجعليه في طي الكتمان. راجعي نفسكِ قبل أن يحدث ما لا تحمدين عقباه.

كأن جبلًا هوى فوقها يكتم أنفاسها.. أيمكن حقًّا أن ينفذ تهديده! أم يبقى تهديدًا فقط.

15

وسط قليل من أناس جاد بهم الطريق ما بين الغدو والرواح، لا تفوح ملامحهم بشيء سوى هموم الدنيا وكدارتها.. تتقدم (هناء) وسط الطريق تاركة لقدميها الحريّة في الإسراع أو الإبطاء، ينتابها شعور بأن خلفها عين تقتفي أثرها، تسرع تلتفت إلى الخلف فلا تجد ما يعضد ذلك الشعور الذي يلازمها حتى البيت.

ما إن تفتح الباب حتى يرتعد قلبها في قفصه، لسانها يكاد يلقي بنفسه في حلقها ليتخلص من محاولتها دفعه لإخراج بعض الكلمات! جسدها يستأنس لصلابة الباب فتتثبت لجواره.

لم تجد أمها بدًا من النهوض، تقترب منها لتهمس:

ـ (هناء)! ماذا هناك يا ابنتي؟ ألن ترحبي بضيوفكِ!

ينطق أحد الضيوف:

ـ حمدًا لله على سلامتكِ، يا آنسة (هناء)، نرجو المعذرة لحضورنا دون سابق استئذان!

كأنّ في أذنيها وقرًا، فلم تحر جوابًا.

يد أمها توكزها في ظهرها تدفعها نحوهم، تحاول إخفاء حرجًا ألم بها:

ـ هيا ابنتي، اتخذي مقعد أمك، حتى أعدّ مشروبًا لهما. فمنذ يزيد على الساعة وهما يرفضان احتساء شيئًا ينتظران مقدمكِ.

عيناها تتابعان أمها وهي تختفي بالداخل، تتقدم نحوهما لتجلس في مواجهتهما، يبدو أنها لم تسترد مقدرتها على التحدث بعد.

يفرك الثاني يديه، كمقدمه لحديثه:

ـ يبدو أن أمكِ لم تقف على حقيقة ما أصابكِ، أدركت ذلك من بعض كلماتها قبل مجيئكِ.

تفلح كلماته تلك في إخراج لسانها من مأزقه، تقول بلهجة لا تخلو من الغضب:

ـ وأنت أيضًا يا دكتور لم تقف على حقيقة ما أصابني، وأظن أنك ما قطعت كل تلك المسافة إلا لتعرف أصل الحكاية.

يشعر أن كلماتها كحجارة تُدميه، يلتفت نحو صاحبه مسرعًا:

ـ يبدو أننا قصدنا المكان الخطأ يا أستاذ (صابر)!

يختم عبارته بمحاولته النهوض.

يد صاحبه تتشبث به تحثه على معاودة الجلوس، يصوّب بصره نحوها:

ـ لمَ هذا التهجّم يا ابنتي! أتذكري تلك الكلمة؟ فما زال لساني يُحسنها.

يسقط وجهها يختفي بين يديها، تنتهز عيناها الفرصة لإخراج بعضًا مما تبقى لديهما من دموع.

يقترب منها الطبيب وبكلمات ترتدي ثوب الهمسات:

ـ أتذكرين ما دار بيننا من حديث عن المجتمع والجناة.. عن الضحايا والجلاد! ها أنتِ الآن بين أهلكِ ولا تزال قسمات وجهكِ كأول مرة رأيتها تأبى التغيير! فأزيحي عن صدركِ ما يطبِق عليه، وتأكدي من أن رؤيتكِ للجناة يتلقّون العقاب ستطرد بعضًا من حزنكِ.

صوتها يسابق شهقاتها:

ـ أرجوك يا دكتور، لا تفتح صفحات عزمت على طيها مهما كان الثمن، وكفاني ما رأيت.

يد (صابر) تربت على فخذ صاحبه يستأذنه أن يدخل في الحوار:

ـ ما جئنا لنسترجع ما سبق يا صاحبي، بل نطمئن على ابنتي وأبلغها أن قلبي يطلب الصفح عما لاقته بسببي.

لسانها يردد:

ـ الصفح!!

تفتح مكنون ذاكرتها: كلمات الأساتذة تغرقها بالثناء.. قبلات من أبيها تكلل جبينها.. وجه أمها عند تلقّيها لخبر مصرعه.. أبواب السيارة تفتح لتلتهمها.. جسدها يُنهَش بأنياب الأنجاس.. صفعاتهم كادت تطيح برأسها.. ضلوعها تأن في حقيبة السيارة.. دماؤها الساخنة تلهب جلدها!

تنتبه على صوته يرتفع:

ـ ها يا ابنتي، أستمنين عليّ بالصفح والسماح؟

كأن قلبها هو مَن يتكفل بالرد:

ـ سأعيد عليك كلمات قلتها من قبل لواحدة من الجبناء «اطلب من الله المغفرة، فمن يده يتلقّاها كل مَن في الأرض»، أما أنا فكما قلت سابقًا تلك صفحات عزمت على طيها.

يسرع (عُمر) بغضب:

ـ قد لا تعلمين أن الأستاذ (صابر) باع كل ما يمتلكه، ووضع عنقه على نصل سكين يتلهّف منذ زمن لنحرها، أملًا في استخلاصكِ لتكملي ما تبقى لكِ من حياة!

صاحبه يهدئ من غضبه:

ـ دعك من هذا يا دكتور، فقد يكون هناك أمر وقع لها ولم نتوقّف على معرفته، لكن ما أودّ معرفته حقًّا لمَ لم تخبرينا بحقيقتكِ من البداية؟ لكنا أوصلناكِ إلى هنا من حينها، وما كان حدث ما حدث بعد ذلك!

عيناها تصافح الأرض:

ـ قد لا ترغب حقًّا في معرفة حقيقتي، لكنّي سأترك لك ألم اكتشافها! فقط استرجع بعضًا من صفحات ماضيك، وحينها ستتمنى لو لم يولد ذلك اليوم الذي مزقّت فيه أكفان الموت من حولي!

مزيج يتطاحن من مشاعر الخوف والرعب، يصاحبه قليل من الدهشة يلقي بشباكه عليه، صوته يحدّث أعماقه:

ـ صفحات من الماضي!

بعضًا من شظايا تلك المشاعر تصيب مَن بجواره، يلتفت إليه (عمر):

ـ أستاذ (صابر) أتمتلك تفسيرًا لما تقوله (هناء)؟

يبدو (صابر) كأنّه بدأ بالفعل يتصفّح أرشيف ذاكرته فلم تلتقط أذنه تساؤل صاحبه.

صوت الأم وهي تقدّم لهما القهوة يعيده للواقع:

ـ اعذراني على التأخير، فأسطوانة البوتاجاز تلفظ أنفاسها الأخيرة.

يرد (صابر) بانكسار:

ـ لا عليكِ سيدتي، فنحن مَن يرجو المعذرة!

16

طرقات بإيقاع على الباب كأنّها تقبله، تسرع قدماها تمكّن يداها من فتحه، لتهبّ عليها نسائم كلمات فرِحَة:

ـ هنّئي أخيكِ يا (رحاب)، لقد التأمت اليوم الكثير من جراحه، ووضع قدمه على أول طريق يرجو من الله أن ينتهي بالتئام البقية.

يتراقص الفضول بعينيها، فتلحق به للداخل:

ـ قبل التهنئة يا (جلال)، ألا يحق لي أن أعرف أسباب الجراح؟ ومن أين حصلت على دوائها؟

لا تزال نشوة الفرح ترتسم على وجهه:

ـ دعكِ من الجراح وأسبابها.. ما يمكننا الحديث عنه الآن.. دواؤها.

تمتد يدها لتمسك بكلتا يديه، تجذبه حتى تجلسه وتحجز مقعدًا جعلها في مواجهته:

ـ إذًا أخبرني كيف اهتديت إليه؟ لكن بالتفصيل.

يتلفّت فجأة ينظر حوله، كمن تذكر شيئًا:

ـ أين (رضا)؟ لا أسمع صوته، أهو نائم؟

تدرك أنه يسعى لاختبار فضولها، تسند ظهرها للخلف:

ـ قم وابحث عنه بنفسك.

يحاول جاهدًا كبت ضحكاته:

ـ أخبريني حقًّا، أين هو؟

رغمًا عنها تجيب:

ـ بغرفته، اتجه إلى سريره بعد أن سئم انتظار مجيئك، كان يريد أن يلهو قليلًا معك كعادتك مؤخرًا.

ينهض من فوره يجذبها:

ـ إذًا يا عزيزتي، أعدي لنا العشاء بينما ألاعبه قليلًا، بعد ذلك سأطلعكِ على ما تودّين معرفته، اتفقنا؟

صوتها يرتفع:

ـ (جلال)، الطعام يناديك.

يخرج ويد أخيه في يده، يحتل كل منهم مقعده، وقبل أن يتم البسملة تعاجله:

ـ ها، ألن تخبرني الآن؟

يسند ظهره للخلف:

ـ حسنًا، لكن بشرط، أن تستمعي بلا أسئلة أو استفسارات أو حتى مقاطعة، بعدما انتهي، يمكنكِ إبداء رأيكِ، اتفقنا؟

على الفور تسرع يداها تكممان فمها دليلًا على الموافقة، نظرات تائهة من الصغير من حين لآخر تعكس قلة إدراكه لما يدور حوله، يعاود بعدها التهام طعامه.

يلقي (جلال) ببصره نحو النافذة، يشرع يخرج مكنون صدره:

- في يوم ودّعنا منذ قليل.. كأنّ الأرض امتلأت بجمع من الشياطين، أمسك أحدهم بزمام عقل أخيكِ يوجّهه كيفما يشاء، كنّا بداخل سيارة أخرجتنا من زمرة الشرفاء، وفي لحظة كانت قوى الشرّ تعسكر فيها بالمكان، أقدمنا على فعل دفع كبار الأبالسة لتترك مباشرة أعمالها وتكتفي بالتصفيق لنا!

لم تجد (رحاب) سوى تطويق صدرها بذراعيها تحمي قلبها من كتل الرعب التي بدأت تجتاحه، أذناها تفرض على البقيّة من أعضائها سياجًا من الصمت.

حديث الندم يتوالى:

- على استحياء كانت تقف الفتاة وسط مثيلاتها تتوارى عن الأعين، أنا مَن أبصرتها أولًا وأخبرت رفقة السوء من حولي عن جمالها الأخّاذ وجسدها الفاتن، على الفور وضِعت الخطة لاصطيادها! ولم تمض لحظات إلا ونُفِّذت على أكمل وجه. كنت أيضًا صاحب السبق في تقييدها، لن أنسى طالما حييت منظر يدي ترتطم بوجهها في صفعة أحسّ قلبي بقوتها عندما حاولت... فقط حاولت النجاة بشرفها، وكأن صوت الصفعة أزاح

بعضًا من الغشاوة عن عينيّ ضميري، فعزمت على وضع كلمة النهاية لتلك المأساة قبل أن تكتمل. لكنّ، ما لبثت شراذم الجبن أن تجتمع بداخلي حتى دَفَنَت ضميري فتوارى صوته تحتها. فلم أقوَ إلا على الانسحاب!

(رحاب) تمسك بلجام لسانها رغم سيل التساؤلات التي تنهمر عليه من كل جوانحها، تلمح الدمع بعيني أخيها عند قوله:

- رمتني بكلمات تمنيت لو أن الموت انتشلني قبل أن تخترق صدري: «اذهب، سينتقم الله لي، منك ومنهم». لذت بالفرار قبل أن ترجمني بكلمات أخرى! طوال الليل وأنا هائم على وجهي، وقد ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت حتى أطلّت الشمس بوجهها، فأسرع الليل يلملم أشلاءه يبحث لنفسه عن مأوى، فلم يجد أرحب من أعماقي فالتجأ إليها. من يومها والسواد يعشش بداخلي، وفجأة! واتتني فكرة كأنّ ملكًا ساقها إليّ، فصرت من أول الصباح لانتهائه، التزم ذلك المكان المشؤوم حيث قتلت المروءة، حتى ابتسم القدر لي، رأيتها وظلال جريمتنا يلفّها فتتبعتها حتى بيتها.

تنهيدة عميقة تعرف طريقها لخارجه:

والآن، أريد رأيكِ في أمر عزمت عليه.

يحسّ لسانها بالحرية فينطلق:

ـ وبماذا يفيد رأيي بعد كل ما صنعت! أرأيت قطع البلّور! هل يمكن إعادتها لنسقها الأول بعد ما صارت شظايا وأشلاء!

يشيح بوجهه للجهة الأخرى رافعًا يده يستوقفها:

ـ ما لهذا أخبرتكِ، فما عاد يجدينا الندم، فقط أريد رأيكِ في ...

لم تتركه ليكمل، عقلها يدرك ما ترمي إليه كلماته، فقطعت عليه الطريق:

ـ لا تظنّ أنّ ما ستفعله –مهما كانت طبيعته– سيغيّر من الواقع، وأنا لو كنت مكانها لمزقتك كما يتمزق بيت عنكبوت نسجه في الخريف، فوق شجرة في العراء، في يوم ريح عاصف، من أول وهلة أراك فيها.

يطرق رأسه ينظر أسفل قدميه:

ـ يعلم الله أنّي ما أريد إلّا تعويضها عن بعض ما عانته بسببي، أريد مساعدتها على استكمال الحياة، أريدها أن تمحو ذلك اليوم الكئيب من ذاكرتها، أريد مساعدتها لأكمل بناء نفسي من جديد.

بعضًا من دموعه تلامس الأرض:

ـ أريد عفوها ليشفع لي أمام الله، أريد استباق الزمن لأحميكِ من مصير كهذا قد ينتظركِ ذات يوم، أريد أن...

ـ تندفن بقية كلماته تحت وطأة بكائه، تسرع يداه تخفي وجهه ليظهر صوت نحيبه!

تفارق (رحاب) مكانها، عيناها تنطق بالتحدي:

ـ (جلال)، هل ترضى أن تتزوجها، بعد كل الذي حدث لها؟

ـ كأنها ألقمته قنبلة، عيناه تنكسر للأرض، يتلعثم:

ـ زواج!! أنا... أنا لم أفكر بالأمر من تلك الجهة، الزواج أمر له ترتيبات أخرى!

ـ تطلق ضحكة هازئة:

ـ إذًا يا أخي لا تزال نفسك ملطخة بالإثم والخسّة، وعقلك كعقل البقيّة؛ أسير عادات الجهل والظلام!

ـ تهتز رأسه غضبًا:

ـ ما تقولينه عسير على أي رجل يا (رحاب)، كيف أرضى بها زوجة وقد استباح جسدها غيري! هتكت سِترها عيون أخرى!

ـ تنظر له بأسى:

ـ لا فرق بينك وبينهم يا (جلال)، كلكم جناة! وتذكر يا أخي أن الصامت والراضي عن الخطأ.. لا يقل جرمًا عمَّن فعله!

ـ يضع رأسه بين يديه، يعتصر عقله، بينما كلمات أخته تتردى بأعماقه كأحجار ملتهبة تدكّ وجدانه!

17

تظاهر بأنه يلملم حاجياته من على المنضدة، وعلى حين غرّة منها خطف من حسنها قبلة، ينهض وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

ـ لم أجد أفضل من هذا خاتمة لحديثنا، لكنّي ما توقعت قط أن تكون بهذه المتعة! حقًّا (هيام) يا (هيام)!

تتحسس بيدها موضع القبلة وكأن ابتسامته انعكست على وجهها:

ـ لم يفز بها غيرك يا (خالد)، فدومًا كانت هيئتي الفاخرة، ومهابة أبي في النفوس تردع الكثيرين حتى من ملامسة سيارتي!

تنتابه ضحكات عالية:

ـ ولكني لست من هؤلاء الكثيرين، بل أنا من نوع يندر وجوده يهوى عبور الصعاب، وامتلاك كل ما غلا ثمنه وعلا شأنه، وحسُن وجهه وطبعه.

تمد يدها إليه ليساعدها في النهوض:

ـ إذًا إلى أين يا رجل الصعاب؟

يقرّب هاتفه لعينيها:

ـ انظري، لقد تأخرت ما يقارب الساعة عن صاحبيّ، مع أنني مَن حدد الموعد، يبدو أنني بعد زواجنا لن أغادر البيت وسأتوقف عن إعطاء أي مواعيد حفاظًا على سمعتي فيما سبق!

توكزه بكتفه:

ـ ومن قال إنني سأتركك تغادر عشنا، أمامك خمسة أيام، افعل فيها ما يحلو لك، استعد بعدها لدخول قفص ليس له سوى مفتاح وحيد، أستأذنك لتفسح له مكانًا لأضعه بجوارك في قلبي.

يقرّب كلتا يديها من شفتيه ليضع على كلّ منهما قبلة:

ـ اعذريني حبيبتي، لن أسمح لأي شيء يشاركني في قلبك مهما كانت أهميته، واعذريني أيضًا يتوجّب عليّ الذهاب الآن، فقد قتلهما الانتظار.

تطوّق صدرها بذراعيها، تحدّق بعينيه:

ـ أيمكنني أن أذهب معك، فبداخلي شوق للتعرّف إلى أصدقائك.

يهز رأسه بعنف تعبيرًا عن رفضه، يداه تشاركان لسانه التحدث:

ـ أريدكِ أن تكوني مفاجأة لهما، أريدهما أن يحترقا من الفضول ليعرفا من هي التي استطاعت أن تخطف قلب (خالد فهمي)، أودّ أن يطلقا خيالهما الواهن في كافة الاتجاهات يحاولان رسم صورة لكِ، وأنا واثق تمام

الثقة أنهما مهما حاولا؛ فلن يتوصلا لبعض حقيقتكِ، حتى اسمكِ سأعذبهما قبل أن أخبرهما به.

وعد بالاتصال وقبلة في الهواء كانا آخر ما تلقّته منه قبل أن يختفي عن نظرها، تعود لمقعدها بجسدها فقط؛ فقلبها أخذه الفارس معه، أما عقلها فقد ذهب بعيدًا ينسج قصصًا عن يوم الزفاف.

تتوقف سيارته فجأة أمام أحد النوادي المفتوحة، يترجّل منها مسرعًا، يتجه نحو الداخل.

ما إن يبصره صديقاه حتى يقفزا نحوه، ينطق (عصام) بغضب:

ـ ما كلّ هذا التأخّر، لقد تآكلت مقاعدنا من طول الجلوس، فمنذ ما يقارب الساعتين ونحن نستجدي البوابة أن تعلن عن قدومك! إن كان هناك ما يشغلك؛ فلمَ أحضرتنا من الأساس إلى هنا؟!

يلتزم الصمت، يكتفي بإشارة تطالبهما بمعاودة الجلوس، وفجأة ينفجر ضاحكًا بطريقة تدفعهما ليشاركاه ضحكاته، يده تشير لأحد العاملين بأن يُحضر لهم مشروباتهم المعتادة، بمكرٍ يبدأ حديثه:

ـ كنت واثقا من أنكما ستنتظراني مهما طال غيابي تريدان معرفة حقيقة المفاجأة.

ينهض (هاني)، يقرّب مقعده منه أكثر:

ـ حقًّا يا (خالد)! لقد أعيانا التفكير ولم نتوصل إلى شيء، وعقلي سيحترق إن لم تخبرني الآن.

يلتفت (خالد) باتجاه الآخر:

ـ وأنت يا (عصام)، ألم يهدك عقلك لشيء؟

يرفع (عصام) رأسه ينظر:

ـ عقلي يحدّثني بأن المفاجأة المزعومة التي أرهَقتَنا بها، هي مَن أخرتك عنا كل هذا التأخير. ومن سابق معرفتي بك –حتى إنني أعرف عنك أضعاف ما يعرفه أبواك– لا ينسيك مواعيدك أو يجعلك تتناساها، إلا أمر وحيد هو رفقة الفتيات ومجالستهن، أليس كذلك؟!

بابتسامة زائفة ارتضاها قناعًا لوجهه ظل يصفق لصاحبه:

ـ يبدو أنني أسأت تقدير عقلك، لكن إن كنت ذكيًّا بما يكفي، احرق مفاجأتي للنهاية، ولا أظنك تفعل!

ثالثهم كعادته يكتفي بالاستماع. يحرّك رأسه يمنة ويسرة حسب صوت المتحدث.

يحسّ (عصام) أن كلمات (خالد) نوع من الاستهزاء، تتصاعد نبرات صوته:

ـ نعم أنا ذكي وبما يكفي، ولو كنت أمتلك المال؛ ما صار حالي إلى ما تراه الآن، على عكس الكثيرين يتصنّعون ذكاءً هم أبعد ما يكونون منه!

علي الفور يدرك (خالد) أنه المقصود بتلك الكلمات، يطبِق عليه الغضب، يشهر سبابته يتوعد:

ـ حذار يا (عصام) أن تتفوه بما لا طاقة لك به، يكفي أنني أرضى بالانحدار لأجالس أمثالك، انظر حولك جيدًا فلولا مكالمة منّي ما وطئت قدماك مكانًا كهذا حتى ولو واصلت العمل ليلًا ونهارًا! ولا تنس أن الكثيرين ممن تقصدهم، يحسدونك على رفقتي!

يحاول إبطاء أنفاسه المتسارعة:

ـ من حسن حظك أن حالتي المزاجية اليوم كانت على ما يرام، لذلك سأتغاضى عن حماقتك تلك، لكن إيّاك أن تعود لمثلها!

يجدها (هاني) فرصة مواتية ليمارس هوايته، ينظر باتجاه (عصام) نظرات معاتبة، يدعمها بإشارات من يديه:

ـ ماذا أصابك يا (عصام) أبعد كل ما يبذله (خالد) لأجلنا، تخاطبه بتلك اللهجة وبتلك الكلمات! ثم انظر لِمَا فعلت؟ كان الفرح يشع من عينيه يسابق خطواته، وها هو الآن يتنفس لهيبًا تلفحنا حرارته.

تحقق لـ (هاني) ما أراد، فكانت كلماته كصاعقة أصابت محطة وقود، بدا (عصام) كلغم وانفجر، يقفز يطيح بمقعده بعيدًا، يقترب من (هاني) ويمسك بخناقه بكلتا يديه، يحدق في عينيه بقسوة، يخرج كلماته ببطء ككتل حجرية:

ـ ها هو كله لك، فأغرقه بكذبك كما تشاء، ولا تنس أن تلعق أسفل نعليه كلما تراه، علّه يعطف عليك بفضلاته! لازمه كظله حتى لا يضيع عمرك سدى، أليست تلك كلماتك!

يدفعه بغلظه حتى كاد يسقط أرضًا، قبل أن يغادر المكان، يشعر (هاني) برئتيه تعودان للعمل من جديد، إثر خطوات (عصام) تبتعد.

لم يتحرك (خالد) من موقعه قيد أنملة! كأنّه كان ينتظر ما ستفسر عن المواجهة، لكن الوجوم تمكّن منه عقب رحيل (عصام)، تذكّر به مشهدًا تمخّض عن خسارته لصديق آخر منذ وقت ليس بالبعيد!

على الرغم من محاولات أبيه المتواصلة وإيحاءات الشباب من بني طبقته، لإثنائه عن مرافقة أولئك الرعاع كما يسمونهم، كان تمسّكه بهم يزداد، هو يعتبرهم حلقات الوصل بينه وبين البقيّة من جموع الناس غير ذوي الأملاك ومخازن المال، مصدر سعادته الوحيد كان ينبعث عندما يرى الفرح بعيونهم وسيل أمواله يغرقهم، إفساحهم له ليتولى القيادة في كلّ تحرّكاتهم، كثيرًا ما عوّده على مواجهة أزمات ما كان ليواجهها أو يعاصرها، لو لم ينزل إلى عالمهم وآلامه المتواصلة.

إضافة إلى كل ذلك، فهو دومًا يشعر بأن داخله رباطًا وثيقًا يشده نحو بيئتهم، إحساس يعاوده من لحين لآخر يدفعه للقول بأنه واحد منهم، أو أن بعض أجزائه تنتمي لوسطهم.

يقطع (هاني) أحاديثه الداخلية:

- هوّن عليك يا (خالد)، فما هو إلا يوم أو اثنين، وسيرجع بعدها يطلب العفو والمغفرة. وحتى إن لم يعد، فقد استرحنا منه ومن بذائة لسانه.

وجه (خالد) لا يعكس أيّ ردود فعل عقب كلمات صاحبه، لكنه تذكّر فجأة أن مفاجئته لا تزال في صدره! وبطريقة أبعد ما تكون عن الفرح؛ يفشيها:

ـ زفافي الإثنين القادم، فاحرص على الحضور.

بصمت كأنّه يغالب لسانه:

ـ أخبر (عصام) و(جلال) أنّي أنتظرهما.

يهزّ (هاني) رأسه بقوة كأنّ الكلمات توقفت على أبواب أذنيه:

ـ ماذا؟ ماذا قلت؟ زفافك، الإثنين القادم! (عصام) و(جلال)! كيف هذا!

يتجاهل تساؤلاته:

ـ لا تكثر التساؤلات، حاول فقط أن تكون في أبهى صورة.

ينتصب قائمًا ينوي المغادرة:

ـ وابذل قصارى جهدك لتحضرهما معك.

18

يغلق باب الغرفة بإحكام بعد أن أصبحا بالداخل، يتجه لأقرب مقعد يلقي بجسده عليه، يضع رأسه بين كفيه، تتناثر الأحزان من أنفاسه ككرات لهب يقذفها بركان في أوجّ ثورانه، يردد في صمت كلمات اخترقت قلبه المثخن بالجراح: «استرجع بعضًا من صفحات ماضيك؛ حينها ستتمنى لو لم يولد ذلك اليوم الذي مزقت فيه أكفان الموت من حولي»!

أسئلة مارقة تطلق سهامها نحوه:

أي صفحة تقصدها من ماضٍ لعين يتلبّد بالأخطاء والأوزار؟

أيكون ما اقترفته بحقها أو بحق شخص يهمها أمره بشع لتلك الدرجة التي لم يغفر لي عندها، ما صنعته لأجلها؟!

وكيف لي أن أعرف وهي لم تعطني بصيص ضوء أتحسس خلفه؟ وحتى إن تمكنت من التوصّل لحقيقة ما تقصده، كيف يمكنني التكفير عنه؟

يد تهزّ كتفه برفق:

ـ أستاذ (صابر)، هوّن عليك، يكاد الهم يقضي عليك، كفاك ما تكبدته، والله يعلم أنك بذلت أكثر مما يمكنك وتقوى عليه نفسك! حتى إن الموت كان عند أطراف قدميك.

يرفع رأسه بصعوبة كأن يدا تضغطها لأسفل:

ـ لا، يا دكتور، ما عاد في العمر متسع لأضيّع أيامًا أخرى دون إصلاح بعض مما سبق، علّني أجد شيئًا يطيح ببعض ذنوبي أمام الله.

يقبض على إحدى يديه حتى يكاد يقبلها بدموعه:

ـ ساعدني يا دكتور، بالله عليك ساعدني.

يسرع (عُمر) بسحب يده ليضع قبله في منتصف رأسه:

ـ أثق أن الله سيضعنا على الطريق، لكن ألا يجب أن نعطيه حقه أولًا، نصلّي العشاء وبعده نتناول العشاء، فبطوننا خاوية منذ الصباح.

خاطر يسقط عليه فجأة:

أظن أننا أغفلنا شيئًا مهمًّا، السيارة متى يتوجّب عليك إعادتها؟

يبدو (صابر) كأن الأمر لا يعنيه:

ـ لا تشغل بالك بالأمر، وليفعل صاحبها ما يشاء.

يلتفت نحوه (عمر):

ـ لا، كفانا ما نحن فيه، فما ذنب مالكها فيما نفعله؟

يصمت للحظات ثم يتم:

ـ غدًا إن أَذِنَ الله، سأذهب لأعيدها، وأطمئن على أمي وأيضًا لأحضر بعضًا من النقود، فقد أوشك ما معنا على النفاد. ها ما رأيك؟

يهز رأسه بالرفض:

ـ لا، لا، اذهب وأعد السيارة، ولا تعد.. فأمك مريضة وبحاجة لك، وكذلك عملك أنت في حاجة له، أما أنا فسأتدبر أمري والله معي.

يمسك (عمر) برأس صاحبه بين يديه، يرفعه ببطء لأعلى، ينظر في عينية:

ـ أستاذ (صابر)! هذا أمر جمعنا القدر عليه، على غير طلب مني، والآن نفسي تتوق لاستكماله، فإما أن نصل لنهايته سويًّا، وإما أن يصل جثماني لمثواه الأخير!

لم يجد (صابر) فعلًا مناسبًا إلا أن يقبله على جبينه:

ـ أتعلم يا دكتور أني قضيت ما يربو على ربع عمري في الترحال، بلد تطردني لأخرى تتلقاني، ومع ذلك لم أقابل شخصًا اجتمعت فيه كل خصال الخير مثلك.

يربت على كفته وهو يكتم ابتسامته:

ـ دعك من هذا، فهناك كثيرون يفوقونني علمًا وخلقًا، لكن الأضواء لا تعرفهم ولا يصاحبهم الضجيج، هيا بنا نؤدي فريضة الله فقد سرقنا الحديث.

يمسك بيد رفيقه ويتوجها نحو الماء، علّ خريره يُسقِط عن كاهلهما أعباء الظنون ومشاق الحياة.

ينتشر الخشوع شيئًا فشيئًا على صوت (عمر) الندي يصدح بالقرآن، فتأوِّب الجمادات معه تنفيذًا لكلمات الله، تتقاطر الملائكة من السماء تشهد مواضع الطاعات مصداقًا لقول رسول الله، دموع يُضاء بها وجه (صابر) تأثرًا بمحكم التنزيل، حركات بتناسق تؤديها الأرواح قبل الأجساد، دعوات تشابهت في الكثير من كلماتها تنبعث من كليهما عند تلامس جبهتيهما مع الأرض، في الركن شيطان يعضّ على يديه حسرة من الرحمات التي تغمر المكان.

تسرع الدقائق في المضي وهما يؤديان الصلاة، كلمة الختام يلقيها (عمر) بتسليمه عن يمينه وأخرى عن اليسار.

قبل أن ينهضها من موضع الصلاة، تقبض يد (صابر) على كتف صاحبه الذي انتبه لها مسرعًا، ينطق (صابر) بعطف أبوي:

ـ أنت حقًا بارع في كل شيء يا ولدي، لو كانت لديّ ابنة؛ لزوجتُكَ إيّاها حتى ولو رغمًا عنك!

يقابله (عمر) بأطياف من الامتنان:

ـ لا تقلق يا أستاذ (صابر) فلن أتزوج إلا بمن تتمنى لو كانت لك ابنة مثلها، وستقدم لها الشبكة بنفسِك.

ينتشر في وجهه التبسّم:

ـ لكن موضوعات الزواج هذه يلزمها أضواء النهار، فكلام الليل يذوب في الصباح كما تقول الأمثال.

يتحول عطف (صابر) إلى عزم:

ـ الصباح! مَن يدري ما الذي سيحدث في الصباح يا ولدي، لذا فلنعدّ له عدّته؛ عندما تصل غدًا بإذن الله إلى الإسكندرية، وبعد أن تنجز كل ما تودّ إنجازه، أريدك أن تحضر لي شيئًا في غاية الأهمية، لنفي بوعدٍ قد قطعناه!

19

يتأرجح على مقعده الفاخر، عقله يسبح في محيط من الأفكار، يتثبّت المقعد فجأة كأنه وصل إلى البر! ينهض نحو جهاز الاستدعاء، يضغط على زِره:

ـ (سلوى)، أريد (لطفي الأشقر) حالًا، أخبريه أنّي أريده الآن، الآن تعني الآن.

تمر الدقائق تباعًا وقدماه لا تستقران بمكان، جحيم الانتظار يتمكّن منه، غضب عارم يتجمع بداخله، يتوجه نحو الباب ليصبّه فوق رأس السكرتيرة.

ما إن يفتح الباب حتى يصطدم برجل عظيم الجثة، هيئته تلقي في النفوس مزيجًا من المهابة والرعب. تستقر فوق أنفه نظارة سوداء أفلحت في إخفاء بعض ملامحه، حُسن هندامه يوحي بأنه رجل المهام الصعبة التي تتطلب قدرًا كبيرًا من المكر والدهاء وأحيانًا القوة إن لزم الأمر.

يتراجع صاحب المكان خطوة للخلف، ينظر إلى أعلى حيث وجه الآخر:

ـ أين كنت يا (لطفي)؟

تمتد يد (لطفي) تزيح نظارته، يطأطئ رأسه لأسفل قليلًا:

ـ معذرة (فهمي بيه) ها أنا بين يديك، ملامح سيادتك توحي بأن الأمر جدّ خطير!

يجذبه للداخل موجها حديثه للسكرتيرة:

ـ لا أريد أن أسمع أي شيء، أو أرى أحدًا حتى يصلكِ أمري بخلاف ذلك، أفهمتِ؟

يسرع رأسها يسابق صوتها:

ـ نعم، نعم كما تأمر سيادتك.

يغلق الباب بحرص من الداخل. يعود لمكتبه بخطوات وئيدة، يده تشير لـ (لطفي) بأن يجلس، وقبل أن يلامس جسده المقعد بادره:

ـ أريدك لأمر لن يقوى على أدائه غيرك، وقبل أن تعرفه أريده أن يتم في الخفاء وبأعلى درجات السرية والكتمان وبأقصى سرعة ممكنة. أيمكنك ذلك؟

يعتدل في جلسته، ينظر نحوه بثقة:

ـ يهيأ لي أن سيادتك ما أرسلت في طلبي، إلا ليقينك الكامل أنني أستطيع إنجاز كل ما تريده، حيثما تريد في أي وقت تريد!

يسند سيادته ظهره لمقعده، يتأرجح به قليلًا، تتناثر على وجهه بعض من بذور الفرح:

ـ روحك هذه تبشر بالخير يا (لطفي).

تمتد يده نحو أحد الأدراج لتخرج دفتر الشيكات، ينزع منه واحدًا، يوقّعِه دونما نظر كأن يده تعرف المكان بالضبط، يلقي به نحو (لطفي):

ـ ضع به الرقم الذي تريد ولن أراجعك فيه.

يلتقطه (لطفي)، ينظر له بعين تعكس أطماعه، يتناول القلم هو يعلم جيدًا إن أتم المهمة سيحصل على الرقم الذي سيضعه! فيكتب: (١٠٠٠٠٠٠ جنيه) مليون جنيه مصري فقط لا غير.

يتناول (فهمي) الشيك، يضعه في الدرج دون أدنى التفاتة منه للرقم الذي كُتِب.

ـ دعنا الآن نتحدث عما جئت بك من أجله.

هكذا يبدأ سيادته الحديث قبل أن يفارق مقعده.

يلتزم (لطفي) بالصمت التام، فخبرته الكبيرة في مثل تلك الأمور علّمته أن بداية الخيط تكمن في أدق التفاصيل التي تختفي بين كتل الكلمات، عقله يدوّن كل ما تلتقطه أذناه من حديث رئيسه الذي يتواصل على قرع قدميه فوق الأرضية الملساء:

ـ منذ ما يزيد علي سنوات سبع، كان هناك شخص يلازمني طويلًا في الماضي، كان يعمل سائقي الخاص ولمهارته كنت أصطحبه معي للخارج، حتى عرف عن تعاملاتي أكثر مما ينبغي.

ـ فجأة تغيّرت أحواله! لا أدري ماذا أصابه! بدأت يداه ترتعش وأعصابه تهتز، كثيرًا ما حذرته بأن عمله في خطر إن لم ينتبه لذلك، لكنه تجاهل تحذيراتي حتى كاد أن

يُهلكني. لم أجد بدًا من إقصائه عن العمل، وأجزلت له العطاء، وبالفعل اختفى من حياتي، لكن بعد استيلائه على بعض أوراقٍ يفوق ثمنها ثمن جيش من أمثاله.. ومن حينها ورجالي يتعقّبونه في كافة الأنحاء.

ـ مرات عديدة كان على وشك السقوط في أيديهم، لكنه كان يفلت في آخر اللحظات.

يتوقف فجأة، يلتفت إليه:

ـ أظنك الآن قد توقّفت على طبيعة المهمة.

ببطء ينهض (لطفي) وبخطوتين يقترب منه:

ـ معذرة، (فهمي) بيه، فكل ما قلته إلى الآن لم يفدني بشيء، بل على العكس، أظهر أن الأمر يتطلّب جهدًا ومشقة والكثير من الوقت، وما أظنك أرسلت في طلبي إلا لضيق الوقت.

يرفع يداه أمام وجهه ليسكته:

ـ لم أكمل بعدُ يا (لطفي)، انتظر لتعرف البقيّة.

يقطع خطوتين، يتم:

ـ منذ يومين، فوجئت به يقتحم عليّ المكتب، ويقف حيث تقف الآن ومعه شاب كأنّه يستقوي به، جاء يطالبني بإعادة فتاة وجدها رجلان من رجالي أثناء مداهمتهما لغرفته. ولسوء الحظ لقيا حتفهما في حادث أثناء عودتهما، وحتى الآن لا أدري ماذا أصابها؟

ـ لم تكد يداي تحكم قبضتهما عليه، إلا وضابط من الشرطة يطل بوجهه القبيح كأنه كان على الموعد! جاء يستفسر عن الحادث وعن بقايا دم لجسد آدمي في حقيبة السيارة، حينها أدرك الشقيّان أنّ الفتاة ليست بحوزتي، ففرا برفقة الشرطة.

يد (لطفي) تتحسس جبهته، إيماءة من رأسه توحي بأنّ عقله اهتدى لنقطة البداية، ينظر لمحدثه نظرة تغفلّها الثقة:

ـ أما زال هناك شيء تريد إعلامي به يا باشا ويكون ذا أهمية من وجهة نظرك؟

يقترب ببطء من النافذة، يبدو كأنّه يسترجع المشهد من ذاكرته، ينظر إلى الأسفل نحو الشارع:

ـ إليك الآن ما سيسهل عليك الأمر، لقد صفعته بقوة فتفجّر وجهه بالدم من أثر خاتم كان بأصبعي. أضف إلى ذلك أن أحدهم كان يستقل سيارة حديثة من نوع ميتسوبيشي حمراء اللون.

ينهض (لطفي) وعلى وجهه قسمات الفرح:

ـ نعم، هكذا يكون الكلام، لكن لم يتبق سوى تساؤلين صغيرين أريد لهما جوابًا، كم كانت الساعة عند مغادرتهما المكتب هنا؟ وما اسم هذا الضابط؟

يغمض عينيه، يعتصر ذاكرته:

ـ تقريبا كانت الواحدة ظهرًا، أما هو فأظن أن اسمه (عماد) آه (عماد العارف).

تمتد يده لتحضر نظارته من فوق المكتب، يخفي بها عينيه استعداد للرحيل:

ـ حسنًا (فهمي) بيه، سأستعير له صورة من شؤون العمّال، أظن أن ملفه لا يزال هنا.

إيماءة من رأس الآخر تقول:

ـ نعم، ستجدها هناك.

يتم (لطفي):

ـ مع نهاية نهار الغد سيكون أمام سيادتك أخبار عنه، إن لم يكن هو نفسه.

بدهشة يسكنها الغضب، يقول:

ـ لا، بل نهاية نهار اليوم، وأريده هو بلحمه وعظامه، لا أخباره.

تتساءل يد (لطفي) قبل لسانه:

ـ وكيف يكون ذلك؟ ذلك أمر يشبه المستحيل!

تهوي يد (فهمي) فوق المكتب بقوة قبل أن يهوي بجسده فوق مقعده:

ـ ها قد قلتها بنفسك، يشبه المستحيل وليس بمستحيل، وأعدك أن أضاعف الرقم الذي وضعته في الشيك إن أتممت الأمر كما أريد، وسيكون خالصًا لك مضافًا إليه كل ما تنفقه حتى تأتيني به.

يحدق بساعة يده التي تكاد تقارب التاسعة والنصف:

ـ أعد سيادتك أن أبذل قصارى جهدي، لكنّي لا أضمن تحقيق النتائج المرجّوة منّي في مثل هذا الوقت القصير.

تشرع قدماه تخطوان باتجاه الباب لكنه توقف فجأة على صوت سيادته:

ـ (لطفي)، أنت لم تعمل عندي إلا منذ وقت قصير، قد سألت واستقصيت عنك كثيرًا قبل أن أستقدمك لتكون رجل المهام العسيرة لديّ، فلا تجعل تلك المهمة تكون ختامًا لحياتك هنا.

حركات رأسه تدل على موافقته، قبل أن يعلن صوت الباب عن رحيله.

20

تصارع الشمس بقايا الضباب ليكتمل إشراق قرصها، تتسلق الهواء ببطء لتشرف على الدنيا، شيئًا فشيئًا تضج الأرض بالحياة، يتسلل شعاع افترق عن إخوته عبر نافذة لم تلتحف بستارها ليصطدم بوجه (عمر) يعيده لقائمة الأحياء، ينهض يزيل أشلاء النوم عن جسده، يتجه صوب النافذة، تلتقط عيناه مشهدًا وخز عقله: أب يشد على يد ابنته الصغيرة برفق، وعلى ظهرها أثقال التعليم، يسرعان الخطى لاستباق أبواب المدرسة.

يتجه من فوره تلقاء صاحبه الذي لا يزال النوم يكتنفه، يوقظه برفق:

ـ أستاذ (صابر)، أستاذ (صابر) استيقظ، قد واتتني الآن فكرة ربما ستهدم سقف حيرتك!

يعتدل (صابر) فجأة وكأن النوم خدعة أجاد تمثيلها:

ـ واتتك فكرة! ها قد وجدنا المخرج، فأفكارك دومًا لا تأتي إلا بخير.

يشاركه الجلوس فوق السرير:

- تذكر معي جيدا كلمات المقدم (عماد) عندما التجأنا إليه ليساعدنا في التوصّل إلى الفتاة، أخبرنا بأنها تعيش مع أمها وأخيها الصغير بعد وفاة أبيها في حادث سيارة، حياة للفقر أقرب من أي شيء آخر، حينها سألته أليس لديهم أقارب يتفقدون أحوالهم ولو في المناسبات؟
- قال والأسى يعتصره: من واقع ما أمامي أجد أن هؤلاء أناسًا تقطّعت بهم السبل فلا أهل يهرعون إليهم عند النكبات، ولا صاحبًا يتحسس أخبارهم من حين لآخر.

يفارق (عُمر) السرير يتجه نحو النافذة، مرة أخرى ينظر للشارع كأنّه لا يريد أن يرى أثر القادم من كلماته على وجه رفيقه، يتم:

- فلنعد الآن لآخر عبارات الفتاة «استرجع بعض من صفحات ماضيك» وبالتالي لا يتضمن ألبوم ماضيك صور الفتاة أو أمها أو أحد أقاربها المعدومين الوجود، بل على العكس، منذ أن عرفتهم وأفعالك الخيّرة تسبق أقوالك! إذًا فالحلقة الوحيدة المفقودة، هي الأب، أشعر بأن السر دُفن معه!

يستدير ببطء، يسند جسده للجدار، ملامح صاحبه تستجديه أن يكمل، يحاول إخفاء اعتقادًا بناه على ما سبق:

- لكي لا نبني افتراضنا على أساس هش، سنقصد المقدم (عماد) نَفي له بوعدنا ونطلب منه أن يطلعنا على معلومات الشرطة عن حياة الأب ووفاته، وأظنه لن يمانع،

عندما يرى رأس فهمي عبد البديع قد وضع بين يديه بعد طول اشتياق، وهذا طبعًا بعد أن أعود من الإسكندرية.

يبدو (صابر) كأن بحرًا تتلاطم أمواجه في يوم اشتدت به الريح يجتاح أحشاءه، تطايرت بعضًا من قطراته فالتجأت لعينيه، بواخر خوف كانت على ظهره يتقاذفها الموج تصطدم بجدران قلبه، تتعالى صرخات نفسه:

ـ أيمكن حقًّا أن يكون هو؟ أيكون الرجل الذي أخرجْته من الدنيا أباها؟!

ـ أيعود الماضي القميء من جديد ليسدد لي الطعنات، ويلاحقني بلعناته؟! أسألك اللطف يا الله!

يد (عمر) تعيده للواقع:

ـ ألن تودعني، يجب أن أذهب الآن، سأعود بإذن الله غدًا، احترس على نفسك ولا تغادر هذا المكان، فهناك من يترصّدك.

تمتد يده تقبض على المفاتيح، وقبل أن يتوارى خلف بالباب؛ إذ بـ (صابر) يصيح:

ـ (عمر)، انتظر!

يبدو وقع الكلمة غريبًا على سمعه، تلك أول مرة يناديه باسمه هكذا مجردًا!

يقبل (صابر) مسرعًا، يمسك بكتفيه:

ـ أشعر بأمر سوء سيحدث في غيابك، وإن حدث هذا فلا تتردد لحظة في تنفيذ ما اتفقنا عليه، حتى ولو كان حدّ السكين يتحسس عنقي.

يهزّ كتفيه بقوة، تتساقط بعضًا من دموعه:

ـ عاهدني على ذلك الآن!

لم يجد (عمر) بدًا من إرضائه:

ـ لك عهد الله على ذلك، طالما في العمر حياة!

21

ما إن يتم ارتداء ملابسه حتى يفاجأ بصوت زوجته وهي تعيد ترتيب الفراش:

ـ أرأيت يا (حسن)، ألم أقل لك أنّ في الأمر سرًّا! ها قد زارها أمس رجلان استغربت ملامحهما عيناي، ومكثا عندهما ما يتعدى الساعتين!

تدفع الدهشة لسانه ليتحرك:

ـ من تقصدين يا امرأة؟

تجلس فوق السرير وعلى وجها ابتسامة ماكرة:

ـ من أقصد؟! يبدو أنك نسيت الأمر برمّته! أقصد (ألفت) وابنتها؛ فقد لمحت رجلين يدخلان عندها أمس ربما يكونا أبًا وابنه، حتى قبل أن تعود (هناء) من عملها! يبدو أن لهما علاقة باختفائها؛ فهما دوما لا يزورهما أحد سوانا، أأدركت الآن أن شكوكي لا تنبعث من فراغ؟

يستدير ناحيتها ببطء، يقترب من أذنها:

ـ أتعلمي يا (عليّة) أنني يومًا بعد يوم يزداد إدراكي لحكمه الله في منعه لنا من الإنجاب. فهو يعلم أن المجتمع لن

يقوَ على احتمال نسخة أخرى منكِ! ولا أدري، فربما زوّجني بكِ لأكفّر عن ذنب ربما قد أذنبته في الماضي.

تنهض تتجه إلى الخارج وهي تشير بيدها لا تلقي بالًا لكلماته، يصل لسمعها صوت قدميه تخطوان باتجاه الباب، تلتفت إليه:

ـ (حسن) ألن تتناول الإفطار؟

بداخلها تتمنى ألا يفعل.

سنوات طوال قضاها معها اكتسبته خبرة كشفت له عن سرّ تساؤلها، فيجيب ومقبض الباب في يده:

ـ اطمئني لن أقطع عليكِ سيل أفكاركِ، فأنا أعلم أن الفضول يأكلكِ، وليرحم الله (ألفت) وابنتها مما يدور في رأسكِ.

يغلق الباب خلفه بهدوء وهو يستغفر الله مما ستقدم عليه زوجته.

تسرع (عليّة) لتنظر من النافذة تطمئن على رحيل زوجها، ما إن يختفي عن نظرها، حتى تهرول للخارج، فضولها يسابق يديها وقدميها، تطرق الباب في عجالة، تفاجأ بـ(هناء) وهي على وشك الخروج، يسرع عقلها بنسج حيلة ماكرة:

ـ إلى أين تنوين الذهاب يا حبيبتي وقد جئت لأطمئن عليكِ وأبارك لكِ؟

تنطق عين (هناء) قبل لسانها:

ـ تباركي لي! على ماذا؟!

تدرك (عليّة) أنّ كلماتها أدّت دورها بإتقان، تسند ظهرها لحديد السلّم:

ـ أمس وأنا أنظف الباب، أبصرت رجلين يطرقان بابكم، أحدهما شاب في ريعانه تعلوه الوسامة والبهاء، حدثتني نفسي بأنه جاء ليخطبكِ بصحبة أبيه.

تختم كلماتها بابتسامة محكمة.

ترمقها (هناء) نظرات تبرق بالغضب وهي تخطو للخارج:

ـ أنصحكِ بألا تصدقي أحاديث نفسكِ تلك، فمن الواضح أنها نفس لا تحسن التقدير، اعذريني فعندي عمل ينتظرني. أمي بالداخل أن أردتِ الدخول.

لم تترك لها فرصة للرد ودفعتها من الخلف:

ـ تفضلي، تفضلي، فهي مثلكِ ليس لديها الكثير من العمل.

تسرع يدها تغلق الباب من الخارج.

تتقدم (عليّة) للداخل ببطء، تجول بنظرها في أرجاء المكان، يعلو صوتها مناديًا:

ـ (ألفت) أين أنتِ؟

تظهر (ألفت) بخدود مبتلة وأجفان تسعى جاهدة للانغلاق على ما بداخلها، ترحّب بجارتها على مضض:

ـ أهلًا (عليّة) تفضلي بالجلوس، لحظات سأعد لنا مشروبًا نتناوله.

تختفي مسرعة كأنها تودّ استكمال ما كانت تفعله.

تلقي (عليّة) بجسدها فوق الأريكة، تمنّي نفسها بحديث زاخر بالمفاجآت قد تطفئ نيران فضولها المشتعلة، تغتنم الوقت في إعداد أسئلة عن كل ما يقضّ سكون عقلها.

تعود (ألفت) وبيدها فنجانان من القهوة، وحزن عظيم يرسم ملامحها.

يكسر لسان (عليّة) الصمت قبل أن تتم أول رشفة من قهوتها:

ـ ماذا هناك يا (ألفت)؟ أحدث مكروه؟ فملامح وجهكِ تنطق بالكثير!

تقرب فنجانها من فمها، يغلب لهيب أنفاسها أبخرته الحارة:

ـ ابنتي يا (علية)؛ فمنذ عودتها وأحوالها تستعصي على إدراكي ولا أدري ما العمل، مرارًا أحاول معرفة ما يُخفي صدرها فلا تبوء محاولاتي إلا بالفشل، أشعر بأن داخلها جبالًا من الهموم وقممًا من الأحزان!

تحسّ (عليّة) أن جدارًا وضع في طريقها في تلك الجهة، فتلجأ لجهة أخرى:

ـ أمس رأيت رجلين أتيا لزيارتكِ لم تعهدهما عيناي من قبل، ونحن لا نعرف لكم أهل سوانا، أرجو أن يكون الأمر خيرًا!

تعيد فنجانها مكانه وقد اقترب من نهايته:

ـ والله أنا مثلكِ تماما، لا أعرفهما ولا عهد لي بهما من قبل، كل ما قالته (هناء) لي عنهما، أنهما هما اللذان

أنقذاها بعد الحادث، وأنّ أحدهما طبيب وجاءا ليطمئنا عليها ولم تزد على ذلك!

يبدأ صدر (عليّة) يضيق بتلك الردود، تشعر بأنها ستعود بحال أسوأ من الذي جاءت به، تصيح في وجه مضيّفتها:

ـ أما زلتِ تصدقين تلك القصة المهترئة؟! أما تشعرين أن ابنتكِ قد واجهت أوقاتًا عصيبة، لا تزال آثارها عليها واضحة جليّة؟ أين عقلكِ؟ أم انطفئت بداخلكِ شرارات مشاعر الأمومة وأحاسيسها؟

تشعر بقسوة كلماتها فتتدارك:

ـ كم كنت أتمنى أن يرزقني الله بمثلها، لكنت أفنيت عمري لأحيل آلامها أفراحًا وأحزانها بهجة، اعذريني يا أختي! لا يمكنني التزام الصمت وأنا أرى ابنتكِ التي هي ابنتي تحترق كمدًا وهي لا تزال في أول الطريق وفي عُمر الزهور! يجب أن نعلم ما الذي أصابها.. فقد يكون له عواقب وتبعات إن لم تداوَ الآن وتركت لهواء الأيام والزمن، قد تصبح نارًا تلتهم حاضرها ومستقبلها على السواء.

كأن كلمات جارتها مطرقة هوت على ما تبقي لديها من قلب! تتحسس قدميها علهما لا تزال بهما القدرة على حملها، يبتل صوتها بلهب ينسكب من جفنها:

ـ وكيف الهداية لهذا المبتغى الصعب وقد نصبت حول سرها سياجًا من الكره لعالمنا المكبل بالخطايا؟ ما عاد

لها غير حبي لها تلتحف به، وأخشى إن اقتحمت حضنها أن تضمني لهذا العالم وحينها سأخسر ابنتي للأبد!

تدرك (عليّة) أن مخططها يوشك أن ينهدم، نزغ من الشيطان دفع ذهنها ليتفتّق عن فكرة خبيثة، تعتصر شفتيها كيف غابت عنها من البداية، تنتصب من فورها وبكلمات كلسعات النحل تقول:

- يهيئ لي يا (ألفت) أن بداخلكِ بحرًا يزخر بالأسرار، فمنذ ما يقارب العشرين عامًا حينما حللت أنتِ وزوجكِ بجوارنا، ظللتِ لسنين طوال تأبين الانخراط في حياة حيّنا، ولولا محاولاتي المستميتة والمتواصلة لإخراجكِ من عزلتكِ ما خرجتِ! كثيرًا ما رأيت وجهكِ يتلبّد بالغيوم وتتملككِ الريبة من كل غريب تلمحينه ولو كان حتى عابر سبيل!
- أيضًا زوجكِ، لم أعهده يخالط الرجال أو يحضر تجمعاتهم إلا في صلاة الجمعة! حتى عند وفاته لم يعرفه الكثيرون هنا أو حتّى تذكروا ملامحه.
- ابنتكِ أيضًا لم أعرف لها رفقة أو صديقات ككل البنات في عمرها، وأعتقد أن هذا نزولًا منها على أوامركِ.

تقترب لتنظر في عينيها:

- لا تظني أنني أريد اقتحام حياتكِ أو معرفة سرّ من أسراركِ تكتمينه، كل ما هناك أنّي أعتقد أن ابنتكِ لا تعرف الكثير عنكِ مثلي.. فلِمَ لا تفتحين لها مكنون صدركِ فقد تفعل هي بالمثل وتعلمين منها ما يخفى عليكِ؟

تتراجع (ألفت) للخلف من هول ما سمعت!

أتلك جارتها، أم عين تترصدها هي وعائلتها منذ أن وطئوا المكان؟

يبدو أن استماتتها في دفن ماضيها ودرء كل عين تبغي استراق النظر إليه، كان من جهة أخرى يلفت نحوها الأنظار.

تحاول إخراج لسانها من سباته وهي تنظر للأرض تخفي عينيها:

ـ لا، لا يا (عليّة)، لقد ذهب عقلكِ بعيدًا، فما أنا وزوجي ـتغمده الله برحمتهـ إلا شخصان جمعنا حب العزلة وهجر الناس، وأعتقد أن (هناء) ورثت عنّا الكثير، فلا يأخذكِ الشطط فتنسجي قصصًا بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

يبدو وجه (عليّة) كبالون يكاد ينفجر من الغضب، تردد بصوت مسموع:

ـ يأخذني الشطط!! حسنًا يا (ألفت) ظلّي هكذا حتى تفقدي ابنتكِ وأنت لا تعلمين! هكذا تلفظ آخر عباراتها قبل أن تلقي تحيتها الزائفة وتغادر المكان.

تلقي (ألفت) بجسدها فوق أحد المقاعد لتنقضّ عليها فلول الماضي:

أبعد كل هذا التعب، وكل تلك المعاناة؛ أُخبر (هناء) بالحقيقة؟

كيف ستكون صورتي في عينها بعد أن أخفيت عنها الأمر كل تلك السنوات؟

كيف ستكون ردة فعلها؟ وهل ستظل تراني أمها الحانية أم ستهجرني لغير رجعة؟ ومشاعرها المتبقية تجاه أبيها الغائب عن الحياة، أتتحول لكره ولعنات؟

يا الله دلني على السبيل!!

22

بعد أن أعاد السيارة الحمراء لصاحبها، لا يزال (عُمر) يوازن بين أمرين احتلا عقله طوال طريقه من القاهرة للإسكندرية! أيتجه لرؤية أمه أولًا أم يذهب ليُحضر ما ائتمنه صاحبه عليه؟ شيئًا بداخله يدفعه لإتمام الأمر الثاني أولًا فيستجيب له، يشير لسيارة تاكسي تلقيه في الموقع المراد، طرق تحاصرها أشباه البيوت بلا خطة محكمة، تعجّ بالسائرين، يطلق عينيه في الأنحاء كافة، ها هو المخبز المقصود يظهر عن بُعد، لكنه يوشك أن يغلق أبوابه، يقسو على خطواته حتى يصبح بينهم، شابان يبدوان عاملين فيه يعيدان بعض من الأغراض للداخل، شيخ كبير على مقعده يبدو أنه صاحب المخبز ينتظر انتهائهما.

يلقي عليهم السلام، فيخاطبه أحدهم:

ـ معذرة، يا أستاذ، نفد الدقيق، يهيئ لي أنك لست من ساكني تلك المنطقة، فلو كنت منهم لعلمت أن هذا هو موعد الإغلاق المعتاد.

يلتفت (عمر) نحو الرجل الطاعن في السن:

ـ أنت الحاج (مصطفي) صاحب هذا المخبز؟

ينظر له الرجل ببعض الريبة:

ـ ماذا تريد من الحاج (مصطفي)؟

يسرع بتصحيح الوضع:

ـ أنا (عُمر عامر)، طبيب، صديق للأستاذ (صابر عبد المجيد)، أظنك تعرفه.

يجيب الرجل وقد عادت لوجه ملامحه الطبيعية:

ـ نعم، أعرفه، لكن أين هو؟ فلم نره منذ ثلاثة أيام! نرجو أن يكون بخير، فهو شخص لم نعهد منه إلا صالح الأعمال.

يشعر (عُمر) أن مهمته ستكلل بالنجاح، يقترب من الشيخ هامسًا:

ـ لكنه يريد أمانته التي عندك، (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) أليست تلك هي الآية المتفق عليها فيما بينكم؟

ينظر الرجل تجاه عامِلَيه:

ـ يمكنكما الذهاب الآن، سأمكث مع الضيف قليلًا.

يتابعهما بعينيه إلى آخر الشارع، يمسك بيد الضيف يقوده للداخل، يتوجّه صاحب المكان لأحد الأركان، يحضر مقعدًا يضعه على بعد ويلقي بنفسه عليه وعيناه مع وجه الضيف:

ـ هيا، خذ أمانة صاحبك.

ينطلق (عُمر) بلا تردد ينفّذ الخطوات التي حفظها من صاحبه، يتوجّه نحو مكتب حديدي صغير في أحد الزوايا، يُزيح المكتب بعيدًا عن موضعه، يرفع السجادة المهترئة من مكانها، يتحسس بيده أي البلاطات تهتز، يجدها ويرفعها على الفور، حفرة صغيرة تحتها يختبئ بها كيسًا بلاستيكيًا بداخله مظروفًا ورقيًّا، يلتقطه في عجاله، يزيل ما عليه من غبار وأتربة ثم يفتحه، سرعان ما تنفرج أساريره عن آخرها!

يلتفت صوب الرجل الذي ما زال جالسًا وآثار الزمن على وجهه تخفي مشاعره:

ـ لا تدري كم أعجز الآن عن شكرك يا حاج (مصطفي)، أتعلم أن تلك الأوراق لو ذهبت ليد تخش الله؛ ستهوي كثيرًا من قمم الشر التي تلتهم بلا رحمة أرزاقنا وتعبث بأقدارنا، وبأقدار أجيال لم ترْ النور بعد!

ينهض الحاج وبخطوات واهنة يقترب من المفترش الأرض:

ـ هيا، أعد كل شيء كما كان، واحرص على إخفاء ما بين يديك عن الأعين، فبين يديك الهلاك، ولا تنس أن تبلغ صاحبك منّا السلام.

يسرع الدكتور ليعيد الأوضاع كذي قبل، يزيل ما علق على ملابسه من أتربة، يقترب من الرجل ويعانقه:

ـ لو قام كل منا بدوره ما انحدرنا كل هذا الانحدار، لكن لله في خلقه حكم وشؤون، أتأذن لي الآن.

عدة محاولات من صاحب المكان ليكرّم ضيافته، يقابلها تعففات واعتذارات والكثير من الشكر من (عُمر) قبل أن يفارق المكان.

يبادر الليل قبل أن يغشى النهار، تئن الأوراق في يده من ثقل قبضته المحكمة، يُسرع الخطى يسابق الزمن ليحمل كثيرًا من دعوات أمه لعل الله يمنّ عليه ببعضها قبل أن يعود أدراجه لصاحبه، يهرول باتجاه السلم، ترتفع يده لتطرق الباب برفق فقد تكون جارته (فاطمة) مع أمه بالداخل.

ينفتح الباب وتظهر (فاطمة) التي ما إن ترى وجهه حتى تصيح به:

ـ أين كنت يا دكتور؟! مرارًا حاولت الاتصال بك لكن هاتفك كان دومًا مغلق، حتى ظننت أن أمرَ سوءٍ ألمَّ بك.

رأسه تهتز:

ـ أرجو المعذرة، فقد أضعته، ما يهم الآن كيف هي أمي؟

تطرق رأسها تنظر للأرض:

ـ هذا هو ما أردتك لأجله! فمنذ ساعة رحيلك.. وحالتها تتراجع كأن رؤيتك هي دواؤها الوحيد! جاهدة حاولت التخفيف عنها وطرد قلقها بعيدًا ولكن بلا جدوى، مؤخرًا بدأت تنتابها غيبوبة من حين لآخر، لا تستعيد وعيها الآن إلا قليلًا ولا تقول حينها إلا كلمتين: «أحضر (عُمر)؟! أريد رؤيته».

يقفز قلبه يسبقه للداخل نحو غرفة أمه، تبدو كأنها حزمت حقائب أعمالها تقف على باب الدنيا! يلقي ما في يده على أحد المقاعد، يهوي ليجثو على ركبتيه، يلصق صدره بسريرها، إحدى يديه تمتد لتمسك يدها يحصي نبضاتها، ترتفع الأخرى تتحسس جبهتها.

فيضان مشاعره القلقة يسري في جسدها فتستعيد الأم وعيها، على الفور أرسل قلبها مبعوثيه نحو باقي الأعضاء، لم يفلح إلا في استمالة العقل لصفه، كأنّ البقية استسلموا للرحيل.

يدرك (عُمر) أنّ أمه في نزعها الأخير فانكب يقبّل يديها ويمسح على رأسها، يتساقط دمعه كشلال هادر.

تستجمع الأم ما تبقى من قواها، تحاول رفع يدها لتحثّه على التوقّف عن البكاء، فلم تتحرك سوى أصابعها.

يقترب من رأسها أكثر:

ـ أرجو منكِ العفو يا أمي على تقصيري الشديد في حقكِ، لو كنت أعلم الغيب ما تحرّكت من جوارِكِ قيد أنملة، أقبل قدميكِ وأتمرّغ تحتهما.

لم تتمالك (فاطمة) نفسها، فأفسحت لدمعاتها تشاركه أحزانه!

يخرج صوت الأم يقاوم حشرجات الموت:

ـ لا، يا ولدي لا تقل ذلك، فقلبي يعلم أنك ما تركتني إلا لخير، فلا تأس أبدًا بنيّ على أعمال الخير، كن دومًا على ما أنفقت عمري لأربيك عليه، يعلم الله كم قاسيت لتنبت كل قطعة في جسدك من حلال! فمنذ أن

قضى أبوك نحبه وأنت لم تزل في المهد.. نذرت حياتي لأخرجك للعالم رجلًا بحق.

ـ كانت لديّ قناعة بأنّ الأم إن أخلصت، فيمكنها أن تكون مصنعًا للقيم ومعهدًا للرجال، وأحمد الله أن مثلك تخرّج من معهدي.. وأتمنّى أنني كنت نِعم الأم لك كما كنت نِعم الابن لي.

سعال ينتابها فيكتم صوتها، لم تصغ لرجاء ابنها يطالبها أن تستريح، تتحامل على نفسها، تتم حديثها الواهن:

ـ أنصت إليّ يا ولدي فأنا أشعر أنّ هذا آخر عهدي بك، قد رزقك الله بني عمل هو مهنة ورسالة، فاقتطع من مهنتك لرسالتك حتى ولو لم يتبق لك منها شيء. وإيّاك أن تقدم على أمر قد تندم عليه، اعرض كل ما يعترضك على قلبك وعقلك، فإن اتفقا فامض فيه وإلا فلا، احرص بني على مداومة الصلة بالله يعرفك في الشدة قبل الرخاء، تجنب أتباع الشيطان قدر استطاعتك، فإنك وإن لم تعمل بعملهم، أصابتك شظايا أفعالهم.

تلتفت إليه بطرف عينها إثر خاطر أتاها فجأة:

ـ كم كنت أتمنى أن أحضر عرسك! أتصفّح وجه عروسك وأوصيها بك خيرًا، أتلقّى قبل الأرض أبناءك، أطالع البراءة في عيونهم كل صباح، لكنها إرادة الله يا ولدي، فلا تسخط ولا تقنط! وثق بأن الرحمن لا يريد لنا إلا الخير.

يتوقف لسانها فجأة، يرتفع بصرها لأعلى ببطء، ترتسم على وجهها المضيء ابتسامة حانية كأنها تستقبل وفودًا طال انتظارهم، تتثبت مقلتاها فجأة كأنها تدقق النظر في شيء يُعرَض عليها، ابتسامتها تشرع في الازدياد، يرتفع أصبعها السبابة قليلًا، تتحرك شفتيها بصعوبة يبدو كأنها تنطق بالشهادة، يعود إصبعها لمكانه ثم ينحني رأسها!

يتحامل على يده ليسبل عينيها، يستدير يفترش الأرض يُسند ظهره للسرير، يفكّ أسر دموعه تخالطها زفراته الملتهبة ونحيبه المختنق، روحه تركض بداخله تبحث عن مخرج فتصدم نفسه لتنزف بعضًا من آلامها المختبئة: دومًا كانت العزلة سجنه المتنقّل والخلوة أمر لا مفرّ منه! الصداقة، الصحبة كلمتان لم يتذوق طعمهما قط! قضى سنوات يلتهم الكتب ويحصي السطور، منذ أن بدأ الإدراك يعرف طريق عقله، وضع الهدف نُصب عينيه، لا بد أن يصبح طبيبًا مهما كانت العقبات، لن يدع شيئًا يعترض طريقه، سيخوض الحرب ضد الفقر للنهاية، ولن يستريح حتى ينتهي من حرب أخرى أشد ضراوة، سيطارد المرض الذي أردى أبيه، أينما رآه، سيناجزه لينتشل من بين أنيابه قدر ما يستطيع من الضعفاء! لكنه ها هو على حين غرّة يفقد أمه في خضم المعركة.. يشعر بصفه يتضعضع وبحصنه يُخترق، فقد كانت هي شعاع النور الذي يتسلقه كلما أحكمت الوحدة حصارها حوله، ها هي شمسه تغرب ويسقط في الآسر!

يشعر بيد تحنو على كتفه، صوت يناضل ليصل لأسماعه:

ـ هيا يا دكتور، عهدتك قويّا تفتك بالشدائد، قم وانزع عنك لباس الضعف هذا، وادفن أحزانك، فما زال في العمر بقيّة لتكمل حلمها فيك، انهض لتزفّ أمك البارّة لجنات عرضها الأرض والسماوات، فقد كانت طيلة عمرها طيفًا من النسائم ونفحة من الطيب.

يلتفت نحو جثمان أمه المسجّى، يدقق النظر في ذلك الوجه الذي كان دومًا منبع الدفء والحنان، يقبض على يدها الباردة، يزحف نحو رأسها ليضع قبلة على جبهتها وضع فيها كل ما يكنّه نحوها، ترفض شفتيه الانفصال عنها كأنهما تدركان أنها القبلة الأخيرة!

23

يتكئ (لطفي) على أريكة فاخرة في منتصف منزله، يطالع ورقة في يده باهتمام، بين الفينة والأخرى يلقي نظرة على ساعة يده، ما إن يلمح عقاربها يكادون أن يستقروا عند الواحدة حتى يقفز من فوره نحو سترته يكمل بها هندامه، لم تنس إحدى يديه أن تلتقط النظارة والأخرى تتحسس جيوبه الممتلئة قبل أن يغادر المكان.

كان قد اهتدى لعدة حلول استقر على أن يبدأ بأيسرها وفي الوقت نفسه أسرعها.

ها هي الساعة تكاد تقترب من الربع بعد الواحدة، ها هو قسم الشرطة الذي يقصده يظهر من بعيد، يهبط من سيارته بعد أن صفّها على بُعد كاف.. يداه تحكم تناسق مظهره وهو يتجه نحو عسكري يتقاسمه الملل والإرهاق، يقترب منه، يقول وعيناه تتجول في أركان المكان:

ـ السلام عليكم، كيف حالك أيها الجندي، أريد منك مساعدة صغيرة، وإن فعلتها سأكرمك منتهى الكرم.

يبدو على العسكري عدم الاهتمام، ينظر له بلا مبالاة دون حديث.

بهدوء يخرج (لطفي) من جيبة حفنة من مئات الجنيهات، يضع اثنتين منها في جيب الحارس الذي ينتبه من فوره:

ـ بماذا يمكنني مساعدتك يا أستاذ؟

جاهدًا يكتم سعادته:

ـ يوجد ضابط يعمل هنا يدعى (عماد العارف)، هو يريد الزواج من ابنة أخي، ونحن لا نعلم عنه شيئًا، وكنت أريد السؤال عنه وعن أخلاقه وهكذا، أنت تفهم ما أعنيه!

تهتز رأس العسكري، بينما لعابه يسيل على حفنة النقود التي تتراءى أمامه في يد الآخر، يجيب في عجاله:

ـ هو ضابط في منتهى الاحترام، يا ليت كل الشرطة مثله.

يرسم (لطفي) على ملامحه ابتسامة زائفة:

ـ أرحت قلبي يا هذا، لكنّي أريد معرفة شخصيته عن قرب، أريدك أن تدلّني على السائق الذي يتحرّك معه دائمًا بسيارة الشرطة، من المؤكد أنه يعلم عن شخصيته معلومات أكثر، هل هو كريم أو بخيل، وكيف هي شخصيته، وهكذا!

يتلفّت حوله العسكري، قبل أن يجيب:

ـ ها هو هناك، المجند (فايز عبد الواحد)، هو الذي يتحرّك مع المقدم (عماد) دومًا، وحقًّا سيفيدك في هذا الأمر أكثر.

يغرس في جيب العسكري ما بقي في يده من نقود:

ـ أشكرك حقًا، وأرجوك ألا تخبر أحدًا بهذا الأمر، لا نريد أن يعرف المقدم أننا نسأل عنه وعن أخلاقه.

بسعادة يرد:

ـ لا، لا تقلق، أتم الله لكم الأمر على خير.

يتقدم (لطفي) بخطوات واثقة نحو الموقع المقصود.. مقعد حجري يعتليه شخص بمفرده يحتسي الشاي، لا تزال ملامح القرية ملتصقة به، تلك الملامح التي سيحسن (لطفي) استغلالها، يكسو وجهه ببعض التأثر، قائلًا:

ـ أنت المجند (فايز عبد الواحد)؟

تتحول دهشته لارتياب:

ـ نعم، أنا مَن تقصده، مَن أنت؟ وماذا تريد؟

يرتدي (لطفي) قناعه المعتاد:

ـ لا، لا تقلق، فالأمر بسيط جدًّا بالنسبة لك، لكنّه مهم جدًا بالنسبة لي ولآخرين من خلفي ينتظرون مساعدتك بفارغ الصبر، وأظنّك لن تتوان عن مد يد العون والمساعدة لنا.

يستولي عليه الفضول:

ـ هات ما عندك، وأرجو أن أفلح في مساعدتك.

يواصل (لطفي) حيله المتقنة:

ـ أمس وبناء على أمر من الضابط (عماد)، قد اصطحبت معك في تلك السيارة؛ شخص أصابه جرح في وجهه من أمام مجموعة شركات (فهمي عبد البديع) ذلك

الرجل العتي الفاسد. هذا الشخص يهمنّي أمره كثيرًا فهو صديقي منذ زمن طويل، ولقد حذرته مرارًا لأجل اتقاء شر أولئك العصبة، لكنه التزم العناد حتى أصابه ما رأيت! فمن أجلي وأجله، ومن أجل كل عائلته الذين أوجعهم ما حدث له؛ أرجوك أن تخبرني إلى أين أوصلته؟ فمن يومها وأخباره تجافينا، حتى ظننا أن يد الشر طالته من جديد.

تتحرك دوافع الخير في نفس (فايز) التي على الفطرة، فيقص عليه الحكاية منذ أن أصبح الجريح بجواره في السيارة حتى أنزله أمام العيادات الخارجية لمستشفى قصر العيني. كلّ ما دار بداخل السيارة من حديث بين الضابط والمصاب؛ يسجل الآن في ذاكرة (لطفي) كأنه كان وسطهم!

يخرج (لطفي) له بعض النقود على سبيل الشكر، يرفضها الآخر بقوة مع تمنياته بكونه قد قام بكل ما يمكنه من مساعده.

هو الآن أمام مبنى الأيادي البيضاء، يهاله هذا الزحام العظيم من الأجساد المتألمة! لا بد أن يركز جهوده على الأشخاص الذين يحتم عليهم عملهم التواجد بالخارج دومًا، فهؤلاء هم الذين من المؤكد أنهم رأوا سيارة الشرطة أمس.

تسرع قدماه نحو شخصين توحي ملابسهما بأنهما من أهل النظافة، نأيا بنفسهما بعيدًا عن أقدام الرائحين والغادين، توجّست نفسهما خيفة من هيئته الثرية وخطواته المتلاحقة باتجاههما، يقترب منهما ينحني بقامته الطويلة، يهمس:

ـ أريدكما لأمر ستجنيان منه في عدة دقائق أكثر مما ستجنيانه في سنة من عملكما هذا، فقط إن أحسنتما تنفيذه، وهو أمر أعتقد أنه سهل بسيط، ما رأيكما؟

يتوقفان على أطراف أقدامهم من العرض السخي وكل أعضائهم تنطق بالموافقة.

تعلو وجهه ابتسامة المنتصر وهو يعلمهما بتفاصيل المهمة:

ـ أمس في مثل هذا الوقت تقريبًا، ألقت سيارة شرطة للمستشفى هنا بشخص به جرح في وجهه، وقد لحق به شاب يستقل سيارة ميتسوبيشي حمراء اللون. أريد منكما معرفة ما إذا كانا لا يزالان بالداخل أم خرجا! ورقم الغرفة حيث يتواجدان أو وقت خروجهما، أظن أنه لا يوجد ما هو أيسر من هذا؟

ينطق وجه أحدهما بالفرح حتى قبل أن يكمل الاستماع، لكنه التزم الصمت حتى انتهى الغريب من حديثه، يتساءل بجشع:

ـ كم ستعطينا إن أخبرتك بأكثر مما تطلب؟!

يدرك (لطفي) بدهائه الكبير أن العامل يعرف الكثير، فيُخرج من جيبه رزمة نقود كبيرة يطوّح بها:

ـ كما قلت سابقًا، أجر سنه كاملة يزيد لا ينقص!

يفرك العامل يديه كأنّه يليّنهما كي لا تجرح هذا المبلغ الضخم من وجهة نظره، يسرع يدلي بكل ما يعرفه:

ـ كنت يومها كما تراني الآن أستريح هنا، وفجأة ظهرت السيارة الزرقاء ليخرج منها الشخص الذي تقصده،

أسرع نحوه جمع من العاملين هنا يصحبونه للداخل على اعتبار أنه شخص يهم الشرطة أمره! مكث بالداخل ما يقارب الساعة وخرج بعدها بصحبة الشاب الذي تحدثت عنه أيضًا، واستقلا سيارة بنفس الأوصاف التي ذكرتها، حينها كنت قد انتهيت من عملي وأودّ الذهاب لبيتي، فجأة وجدت سيارتهما تتجه نحوي، وإذا بقائدها يسألني ما إذا كنت أعرف مكانًا يأويهما ويكون معتدل النفقات، وجدتها فرصة وركبت معهما ودللتهما على مكان لا يبتعد عن مسكني إلا بقليل.

يلقي له (لطفي) بكل ما في يديه من نقود بعد أن علم منه العنوان بالتفصيل، يمتطي سيارته ويفرّ من المكان.

ـ حقًّا معتدل النفقات!

هكذا يتلفظ تعليقًا على المبنى وهو يتجه صوبه، لا يزال الحظ يقوم بدوره على أكمل وجه، وكأنّه أقسم أن يسانده حتى النهاية، فالمكان يبدو خاويًا من كل شيء، يقترب مما يمكن تسميته مجاملة «الاستقبال».

يخرج له شاب في مقتبل العمر يستبيحه العذر في أن المكان لا يليق بأمثاله، يجد (لطفي) أنها فرصة ليتقن خدعة جديدة، يده تُحكم إخفاء عينيه خلف النظارة، يخرج صورة يضعها في وجه الشاب على طريقة رجال الشرطة وهو يقول:

ـ علمنا من مصادرنا الموثوقة بعد طول بحث أن هذا الشخص نزيل هنا برفقة آخر يصغره في العمر بكثير.

يتجول بنظره في الأنحاء كافة، يتم ببطء:

ـ قد أتيا إلى هنا أمس في مثل هذا التوقيت، فأعلمني الآن هل لا يزالان يقيمان هنا أم غادرا؟ فهما مطلوبان بشدة.

الاضطراب يكتنف الشاب، طريقة إلقاء الضخم لكلماته ألقت في نفسه الرعب فألجمت عقله عن استقصاء هويته فلم ينطق إلا بعبارة واحدة عانى كثيرًا حتى أخرجها متناسقة:

ـ الشخص الذي بالصورة لا يزال بالأعلى في الغرفة التي في الواجهة، أما الآخر فقد غادر في الصباح.

قدما (لطفي) تستعرضان قوتيهما على السلم الخشبي فبدا وقعهما كأن يد الشيطان تدق طبول الحرب، يرى باب الغرفة أمامه فيحث قدميه على الرفق بالأرضية، يتقدم نحوه بهدوء، يطرقه بأدب جم، ينفتح الباب ببطء ينم على حرص مَن خلفه، عينا مَن بالداخل تتصفحان الوجه الجديد:

ـ من أنت؟ وماذا تريد؟

عينا (لطفي) بالخارج تتأكد من الملامح، يبدو أنه استوثق منها، وفجأة تدفع قدمه الباب بقوة لم تستطع يد (صابر) صدها، يعيد صاحب الغرفة تساؤله الفزع:

ـ من أنت؟

يجيبه بقبضته قبل صوته:

ـ أنا مَن يضع كلمة النهاية للحكايات.

يشعر (صابر) بأن رأسه اقتلعت، جاءته الضربة المتقنة أسفل ذقنه، يسقط مغشيًا عليه.

يبحث (لطفي) عن شيء يوثقه به، يلمح الملاءة العتيقة تغطي السرير، لم تنقضي الدقيقة إلا وأصبحت قيدًا متينًا أوثقه به، يحمله على كتفه كالمفارق للحياة، يهبط السلم بهدوء، إشارات منه للشاب يلتزم الأخير على إثرها بالصمت، يخترق الشارع بحملِه بثقة غير عابئ بنظرات القليلين المكبلة بالدهشة، يلقيه في حقيبة السيارة، يطلق عنان ضحكاته الهادرة ويده تقبض على الهاتف، يضغط علامة الاتصال:

ـ أبشر (فهمي بيه) الصيد قد سقط في الفخ!

24

طرقات خفيفة في منتصف الباب تدل على قِصر قامة الطارق، يتوجه مَن بالداخل صوب الباب ليرى الزائر، يفتح الباب وينحني نحو الصغير:

ـ (محمود)! كيف حالك؟ ها، ماذا تريد؟

يد الصبي تشير نحو الأسفل:

ـ عم (عصام)، هناك شخص بالشارع يريد لقاءك.

تعلو الدهشة وجهه:

ـ شخص بالشارع! لمَ لمْ يصعد إلى هنا؟ ألم يخبرك اسمه؟

يرد الصغير ببراءة:

ـ لا، لم يفعل، فقط كل ما قاله لي عندما رآني على أول السلم، اذهب للأستاذ (عصام) وأبلغه أن شخصًا ينتظره بالأسفل، ويريده لأمر مهم.

يده تعبث بشعر الصغير:

ـ حسنًا، أخبره أني قادم، وأبلغ أباك منّي السلام، وقل له إن الفول اليوم لم يكن ككل يوم.

يهزّ الصبي رأسه قبل أن يهرول على الدرجات في خفة وسرعة كأنه كرّة من المطاط.

يختفي (عصام) بالداخل للحظات، قبل أن يخرج ويغلق الباب من الخارج، يهبط ببطء يغالب فضوله ليرى مَن هذا الشخص المجهول، يتوقّف على باب العمارة، ينظر يمنة ويسرة، لا وجود لهذا المنتظِر، يتقدّم نحو ناصية الشارع، فيقفز في وجهه شخص بطريقة أفزعته.

فيصيح بغضب:

ـ (هاني).. ما الذي جاء بك يا ذو الوجه العكِر! أبعد كلّ ما صنعته تجرؤ على المجيء إلى هنا! لك حق، فأنت لم ولن تعرف الخجل أو الحياء مطلقًا.

يعطيه ظهره، يهمّ أن يعود أدراجه.

يتعلّق به الآخر:

ـ أرجوك أعطني فرصة، معك كل الحق فيما قلته، وأنا جد آسف على ما بدر مني، وها قد جئت أصلح ما أفسدته. كل ما أطلبه منك أن تسمعني، اسمعني فقط، وافعل ما يحلو لك بعد ذلك.

يدفع (عصام) يديه من على ملابسه بحنق، يعدّل من هيئته:

ـ هات ما عندك، وأوجز، فليس بي طاقة لأطالع خلقتك تلك لمزيد من الوقت.

يبتلع (هاني) الإهانة على مضض، يغرس يديه بجيوب سرواله:

- أولًا، أعتذر عن طلب لقائك بتلك الطريقة، لكن ما كان بيدي حيلة أخرى، فكنت أعلم أنّك لن تستقبلني في بيتك، وستغلق الهاتف في وجهي عندما تسمع صوتي.
- ثانيًا: أقسم لك أنني ما أردت إشعال الموقف بينك وبين (خالد) ولا تدري كم عانيت لأجعله يصفو من جِهتك، حتى إنه طلب مني أن أدعوك لحضور زفافه يوم الإثنين القادم.

جيوش من الدهشة تجتاح وجه (عصام)، ينطق باستهجان:

- زفافه! هكذا بين يوم وليلة! أليس هذا هو (خالد) الذي يقول دومًا لو اجتمع حُسن نساء الأرض في فتاة واحدة، ما حرّكت مشاعري قيد أنملة!

يعرف التبسم طريقة لوجه (هاني):

- لو عرفت مَن هي العروس لما تفوهت بمثل هذا الكلام! ولأدركت سرّ تعجّله. إنها (هيام) ابنة (كمال الهاشم) إمبراطور من أباطرة هذا العصر، أظنّك سمعت بهذا الاسم كثيرًا، فمنتجات مصانعه تضجّ بها مصادر الإعلام المسموعة والمرئية وحتى المخفيّة!

زفرات مكبلة بالحسرة ينفسها (عصام) في كلماته:

- (خالد بن فهمي عبد البديع) يتزوج بابنة (كمال هاشم)! المال يحتضن المال! والعز يكتنف الجاه!

ـ وأنت يا معدم، بمن ستتزوج! لن ترضى بك إلا بنت بائعة الجرجير، هذا إن وقف الحظ إلى جوارك وتجرأت لتحلم بالزواج! يا لحظنا التعس!

ينتشله الصمت فجأة، يسترجع من ذاكرته بعضًا من كلمات (خالد) أثناء استعلائه عليه: «يا لك مني غبي أحمق! هذا الغبي يدعى (عصام)! سيذهب عمرك سدى دون أن تمتلك مثله! يكفي أنني رضيت بالانحدار لأجالس أمثالك»!

عيناه تبرقان فجأة عندما واتته فكرة مارقة، يبدو أن شيطانًا هبط على رأسه فجأة، فألقمه إيّاها! يُمسك بكتف من أمامه:

ـ ما رأيك يا صاحبي في أمرٍ سنجني من وراءه ما يجعلنا نلحق بركب الهاشم وعبد البديع؟ فقط أريد منك رقم هاتف (هيام) خطيبة (خالد)، وإن تمّ الأمر كما ينبغي فلك النصف مما سأحصل عليه! ها، ما رأيك؟ أستكون إلى جواري أم ليست بك حاجه للمال الوفير؟

تتساقط علامات التعجب قبل الكلمات من فم (هاني) الفاغر:

ـ المال الوفير من وراء رقم هاتف! وكيف هذا؟

يهزّ (عصام) كتفه بعنف:

ـ لا تكثر التساؤل، فقط أجبني! أستساعدني أم لا؟

لم يقو (هاني) على كبح جماح أطماعه، فنفسه تقف في صف المال دومًا:

ـ حسنًا، سأحضر لك رقم الهاتف، لكنّ تذكّر أن النصف لي، وإن سقطت في بئر الخطر؛ لا أعرفك ولا تعرفني، فنفوذ هؤلاء القوم لا حدود له، وعظامي لن تتحمل منه أقل القليل، اتفقنا؟

تهتز رأس (عصام) بالموافقة، إشارات من يديه تتعجله لينطلق:

ـ اتفقنا، هيا إذًا، اذهب الآن لتأتيني به، لا وقت أمامنا لنضيّعه، هيا.

يتابع خطوات صاحبه تبتعد، بينما علامات الفرح تبدأ السريان في ملامحه!

رنين هاتفه يكسر الصمت، يشعر أن الهاتف يتراقص في يده عندما رأى اسم (هاني) يتراءى أمامه.

ـ ألو، نعم يا (هاني)، أسعِد قلبي وقل بأنك قد حصلت عليه.

ـ ...

ـ ها! ٠١٢.....، يا له من رقم مميز للغاية! وحقًّا مَن غير هؤلاء سيقتني الأرقام المميزة! لكن أخبرني كيف عرفت الرقم؟

ـ ...

ينتابه الضحك:

ـ أنت دومًا هاتفك بلا رصيد، وشهادة حق، (خالد) دومًا كان لا يحرمنا من التحدث عبر هاتفه!

ـ ...

ـ لا تقلق، يا صاحبي، كما اتفقنا، كل ما سنحصل عليه؛ سيكون مناصفة.

يغلق الهاتف دون سلام.

يستلم أقرب المقاعد، يعتصر عقله ليُحكم خطته، يسدّ ما بها من ثقوب قد تساعد في الاهتداء إليه، تنقضي عليه ساعات وهو لا يزال على حالته تلك، يقفز فجأة كأن يدًا نزعته بعنف من مقعده، يتحسس هاتفه، يهبط للشارع وسط تهليل من الشيطان.

يتوقف على أعتاب متجر لبيع وشراء الهواتف النقالة، يختفي بداخله لعدّة دقائق يخرج بعدها وهو يحصي بعضًا من النقود، يقطع مسافة ليست بالقصيرة قبل أن يدخل إلى إحدى الصيدليات، يلقي لبائع الدواء بنقوده قبل طلبه:

ـ أريد دواء منومًا لا يظهر تأثيره فورًا، بل بعد ساعة أو أكثر!

25

يداه توشك على التيبّس من كثرة مصافحة أيدي المشيّعين، نظراته لا تنصبّ إلّا على ارتفاع شبر من الأرض؛ حيث ترقد أمه في مثواها الأخير، يشعر كأنّ معظم أجزائه بالأسفل معها! لم ينتبه بعد لكونه بمفرده بعد انصراف الجميع، قدماه تأبي الحراك، يخال صوتها الفرِح يطرق أسماعه بأن يظلّ حتى تستأنس لجواره، ما عاد يتمالك أعضاءه، تهوى ركبتاه على مقدمة القبر، تنهمر دموعه تروي شجرة الصبار الناشئة كأنّه يوصيها بأمه! يكاد وجهه ينغرس في التراب لولا يد أمسكت بكتفه، صوت يأخذ بسمعه:

- هيا يا بنيّ لو كان الدمع يجدي ما جفّت منّا المقل، تلك إرادة الله يا ولدي وما علينا سوى الصبر والاحتساب، فعمّا قليل سيأتي يوم ونلحق جميعًا بها، هذا أمر لا مفرّ منه، فانهض فعجلة الحياة لا تتوقف لأحد. إن كان لها وصية فأنفذها ولا تنسها في دعائك، هذا هو ما تحتاجه منك الآن، لا هذا الذي تفعله.

توقظ تلك الكلمات ذاكرته، يسترجع بعضًا من وصاياها «لا تأس أبدا بنيّ على أعمال الخير. كن دومًا على ما أنفقت عمري لأربيك عليه. اقتطع من مهنتك لرسالتك حتى ولو لم يتبق لك منها شيء»!

يشعر بدبيب قوي يسري في جسده كأنها روح تنبهه لما يتوجّب عليه فعله، تسرع قدماه الخطى كمن يفرّ من سبع يلاحقه، يتوارى خلف مساكن ارتضت بالمقابر جارًا، ينحني به الطريق ليستقيم به آخر، يندفع على الدرج بقوة، ينفتح الباب تحت وطأة يده، تطوف عيناه بكافة الأنحاء، تنطلق يداه تعبث بكل شيء بحثًا عن الأوراق، يتذكر فجأة أنها لا تزال على المقعد بالداخل، تنهيدة مكبلة بالحزن تنبعث من داخله عندما يرى سرير أمه أصبح فارغًا، يقترب من وسادتها، يحتضنها بقوة، شيء صلب يصطدم بيده، يقطع الوسادة، فيجد لفافة بها كومة من النقود مع ورقة صغيرة كتب فيها «هذا مهرك يا ولدي» تنفجر عيناه بالدمع تغرق ما في يده، لحظات يحاول قدر ما يمكنه تجميع شتات، يوزّع النقود على مختلف خفايا ملابسه، ثم يسرع للخارج، ما إن يغلق الباب حتى يصطدم بجسد جارته (فاطمة)، تبادره على الفور:

- إلى أين يا دكتور؟

كأنه لم يسمعها، تجيب نفسها عندما تلمح ما بيده:

- يبدو أنك راحل مجددًا، ألا تنتظر ليوم آخر لتستقبل من لم يأت من المعزيين؟

يده تحكم الخناق على الأوراق:

ـ هناك ما هو أهم يا (فاطمة) اعتذري للجميع نيابة عنّي فالأمر لا يحتمل التأخير، ويعلم الله ما حدث في غيابي! ها هو مفتاح شقتنا، احفظيه معكِ فربما تطول غيبتي هذه المرة، أراكِ على خير بإذن الله!

تعود لقدميه سرعتها، ينطلق بأقصى قواه، أعضاؤه تسابق بعضها للوصول للشارع الرئيسي، سرعان ما يختفي بأحشاء أول سيارة توقفت أمامه، تلقي به حيث يوجد جمع غفير من مثيلاتها؛ فينحشر بأول واحدة منهن ستقصد القاهرة.

حركة السيارة السريعة وبرودة الجو، تدفع الركاب لإغلاق النوافذ، أنفاسهم تنشر الدفء في ربوعها، تحس أعضاؤه بالاسترخاء، فلم يستريح منذ يومين، يبدأ النوم يحوم حوله، لم تنقضِ دقائق قليلة إلا وتمكّن منه!

يستيقظ فجأة كالمذهول إثر وكزه من السائق:

ـ أستاذ، استيقظ ها قد وصلنا. لم يعد هنا غيرك أريد الأجرة فأنت لم تدفع بعد! كنت نائمًا كأنك من أهل الكهف!

ينظر (عُمر) ليديه، يصيبه الفزع عندما يراها فارغة، يصيح بلهفة:

ـ الأوراق أين ذهبت؟! كانت هنا في يدي.

ينطلق يبحث في كافة أرجاء السيارة كافة.

يكابد السائق دهشته:

ـ أي أوراق يا هذا، أنا لم أر شيئًا، أتلك حيلة للفرار من الدفع، لا، أنا لن أدعك.

يُلقي له بالكثير ممّا معه:

ـ خذ ما تريد، لكن بالله عليك، ألا تعلم مكانها؟ ألا تعرف من أخذها؟ ألا تتذكر بعضًا من ملامح مَن كان بجواري؟ أرجوك ساعدني.

يرق السائق لحالة، ينطلق يشاركه البحث، فوق المقاعد، تحتها، في الأمام، في الخلف، وحتى تحت السيارة! ينتهشهما اليأس فيسقط (عُمر) في محيط من الحزن كأنه فقد النطق.

ـ قلبي معك يا هذا، وليعنك الله.

تلك كانت آخر كلمات السائق قبل أن يبتعد بسيارته بعد سيل من الاعتذارات.

بعقل فقد جميع قدراته، بأقدام لا تعرف وجهتها، بحواس توقفت عن أداء مهامها، بأعماق تضاهي بسوادها ظلام الليل؛ ظل (عُمر) يضرب في الشوارع والطرقات دون هداية! فجأة، يشعر بأذنيه تستقبل آذان الفجر، كأنّ هاتفًا يستحثه لإلقاء همومه بين يدي الله. يشعر بقلبه يطرق قضبان صدره يطلب من قدميه التوجّه نحو المسجد، يقف في الصف بحذاء مَن بجواره كمرصوص البناء، يهرع للسجود يطلب من الرحمن اللطف والرحمة، يرفع بعد الصلاة يديه يستكمل الدعوات، ما إن يقبضهما إلا ويسقط فيهما الحل! سجدة

طويلة كانت بمثابة الشكر خرج بعدها يتهادى في الطريق يرجو أن يحالفه التوفيق، كل ما فيه يرجو الساعات أن تسرع بالانقضاء، يناشد الشمس أن ترتفع حتى يحضر مَن يرجو لقاءه.

ها هو يقترب بعد رحلة مشي طويلة، يتقدم نحو الداخل فإذا بصوت يناديه:

ـ دكتور (عمر)، دكتور (عمر) إلى أين أنت ذاهب!

يلتفت من فورة للخلف يصيح:

ـ المقدم (عماد)! ما جئت إلا إليك، وأتمنى أكثر أن تساعدني لأفي لك بالعهد، أما زلت تذكره؟

يتقدم نحوه الآخر مادًّا يده:

ـ العهد! قد خلتكم تناسيتموه، ها، أخبرني بالذي حدث علّني أستطيع المساعدة.

يسرع لسان (عُمر) يقصّ عليه الحكاية من البداية يقاطعه (عماد) قبل أن يكمل، يضع يده على كتفه:

ـ تعازينا الحارة في وفاة الوالدة، لو كنت علمت ما تأخرت عن واجب العزاء.

يتم (عُمر) ما بدأه حتى يصل للمطلوب:

ـ أريد من سيادتك إن أمكن، أن تضع هواتف (فهمي عبد البديع) تحت المراقبة فبالتأكيد من استولى على الأوراق سيسعى جاهدًا ليساومه عليها، حينها يمكننا تحديد مكانه واستعادة ما سلبه لتحكم الشرك حول بُغيتك، ها، أيمكنك حقًّا المساعدة؟!

يسقط الضابط في بحر من التفكير، إشارات من يديه تعكس صعوبة الأمر وهو يقول:

ـ هذا أمر يحتاج لموافقات كثيرة حتى يتم، إضافة إلى أننا حتى الآن ليس بيدينا شيء قوي يدينه! لكن لا تقلق سأضع مستقبلي رهنًا لذلك حتى ولو كانت الإقالة هي نهاية المطاف.

يمسك (عماد) بيده، يصطحبه للداخل، يتوقف (عُمر) فجأة إثر شيء تذكَّره:

ـ هناك أمر آخر، أتتذكر الفتاة التي أهديتنا عنوانها؟

إيماءات من رأس الضابط تدفعه ليكمل:

ـ قد أخبرتنا حينها أن أباها قُضي في حادث سيارة، أيمكنك أن تتصفح ملف تلك القضية مرة أخرى، فحدسي يخبرني بأن لهذا علاقة بموضوعنا الرئيسي فإني أشتم رائحة صاحبنا تفوح منه.

بعين شرطي خبيرة ينظر إليه:

ـ ألهذا الأمر فقط؟ أشعر بأنك تخفي الكثير عنّي، لكن ليكن ما تريد، فكل ما يشغلني الآن هو إيقاع صيدنا في الفخ، وأي شيء سيقرّبنا من هذا الهدف سأفعله بلا تردد، لكن أين صاحبك فلم أعهد رؤيتك من دونه؟

يلقي (عُمر) بجسده على مقعد بجوار المكتب، يطرق رأسه ينظر للأرض:

ـ فررت من لقائه، فكيف لي بمواجهته بعدما ضيّعت أمانته؟ وعزمت على عدم رؤيته إلا والأوراق في يدي أو في يدك كما اتفقت معه، أرجو أن يتحقق عزمي سريعًا، فالقلق يكاد يقتلني عليه، فمن المؤكد أن صاحبك الآخر أرسل ألفًا من جنوده ليقصّوا أثره.

يحتل (عماد) مقعده:

ـ لا تقلق، بإذن الله سنجدها، اذهب الآن لرفيقك وأخبره أن الأوراق بين يدي، لكن الأمر سيستغرق وقتًا للتأكد مما فيها، وسأعلمك بالتطورات أول بأول.. آه! هل لديك هاتف!

تهتز رأس الدكتور بالنفي قبل لسانه:

ـ كان لدي، لكنّي فقدته حيث لقيتني أول مرّة.

يخرج (عماد) هاتفه:

ـ خذ هذا ودعه معك لأحادثك عبره، اعتبره هديه منّي جزاء ما قدمت لي.

يبدي الدكتور اعتراضًا بشدة، يصر الضابط على موقفه وينتصر لرغبته. يختفي (عُمر) بعد عبارات شكر أجادها لسانه، يتلكأ في سيره بعدما احتضنه الشارع المزدحم، ينظر لساعته فكأن الثواني تتلكأ مثله، لكنّ عقله سرعان ما يأخذه إلى وادٍ آخر:

كيف سأقف بين يدي (صابر)؟!

هل أخبره بما حدث فعلا؟! أم أتبع ما قاله الضابط (عماد)!

وإن فعلت، هل سيصادق وجهي على ما ينطق به لساني!

ماذا سيكون موقفي إن لم تتوصل الشرطة للأوراق!

يا لها من مصيبة حقًّا! أأكون بذلك قد خنته!

لكنّ الله يعلم أنني ما آليت جهدًا في سبيل ذلك، لقد تحاملت على قلبي وطويت أحزاني بداخلي، حتّى التعازي لم أستكمل تلقّيها من أجل اتمام هذا الأمر، حتى عملي هجرته منذ أيام ولا أعلم ماذا سيكون مصيره!

أيذهب كلّ هذا سدى ويتبقّى فقط ألم المعاناة!

يصطدم مجددًا بقول أمه «لا تأس أبدًا بنيّ على أعمال الخير» فيستعيذ بالله من همزات الشيطان، يرفع يده نحو السماء:

ـ يا الله، ما لي غيرك، فلا تتركني.

ما إن يراه الشاب الذي يعمل في الاستقبال حتى يهرع باتجاهه، تنبعث من لسانه كلمات كطلقات الرصاص:

ـ أنقذ صاحبك يا دكتور! فبعد رحيلك بسويعات قليلة حضر إلى هنا شخص تفوق هيئته ملامح رجال الشرطة، وخرج برفيقك محمولًا على كتفه!

كأن مطرقه تهوي على رأسه، يترنّح قليلًا ليستوعب الصدمة، إحساس بالذنب يكاد يخنقه، تركه وحيدًا يجابه سطوة الشر بمفرده، حتى ما كان يعتمد عليه ليبقى حيًّا؛ أضاعه في لحظة غفوة لا تغتفر! يا الله صدق حقًّا مَن قال «لا تأتي المصائب فُرادى»! يُخرج بعضًا من نقود معه يعطيها للشاب:

ـ هذا ما تبقّى من ثمن إيجار الغرفة.

يرفض الآخر بإصرار:

ـ لا والله، يكفي ما أصابكم، أرجو منك العفو والمعذرة فلم أتمكن من المساعدة.

يد (عُمر) تستوقفه:

ـ لا عليك فالذنب ليس ذنبك، بل هي أحمال تتابع على عاتقي، ولا أدري أسأواصل الصمود أم ستخور قواي! ادع الله لي فما أحوجني الآن لنظرة بعين عطفه. استودعك مَن لا تضيع عنده الودائع.

يعطيه ظهره، تُسرع قدماه تبتعدان، صوت الآخر في الخلف:

ـ صحبتك السلامة، وليكن الله في عونك.

يسير ببطء كأن سلاحًا ملتصقًا بظهره، لا تفرّق قدماه بين الرصيف وقلب الطريق، تارة هنا وتارة هناك، شيئًا فشيئًا يستعيد عقله قدرته على العمل، يبدو أنه اعتاد على تلك الظروف، ينظر للسماء الغائمة كأنّه يستكمل تلقّي الفكرة التي واتته فجأة: لم لا يذهب للقاء (هناء)؟ فهي تعلم الكثير وتُخفيه، فربما إن علمت بما جدّ من تطوّرات، يلين قلبها وتفرِغ ما بداخل صدرها لتساعدهما، ربما إن علمت إن روح (صابر) الذي أنقذها في خطر، فقد تفعل هي بالمثل وتُدلي بشيء يكون ذا قيمة!

يظهر خاطر لينقضّ على فكرته يحطّمها: مَن قال إنّها تعلم الكثير، فحتّى أمّها لا تعرف أقل القليل، ظهر هذا جليًّا عند لقائك بها!

خاطر آخر يلملم أشلاء الفكرة: لكن كلمات الفتاة لا تدع مجالًا للشكّ في أنها تعلم بعض الأشياء عن (صابر)، لكنّ ما هي يا ترى هذه الأشياء! وما الضير في الذهاب فربما تكون ذا قيمة، مَن يدري!

يستقر عزمه على الذهاب إلى بيتها، يُلقي بنظرة على ساعته:

ـ قد، تبقّى الكثير على ميعاد عودتها. وليكن، سأهيم على وجهي حتى تعود.

26

تتوقف سيارة (لطفي) التي تحمل الصيد عند الباب الخلفي للقصر، يجد سيده (فهمي عبد البديع) ينتظره وحيدًا بعدما صرف الحُرّاس والانتظار يكاد يقتله! يُسرع (لطفي) بفتح حقيبة السيارة، يُلقي بالجثة على كتفه يهرول نحو الداخل، يهبطان لمكان يشبه السرداب بنهايته حجرة متسعة تخلو من أي شيء يساعد على الحياة، يُلقيه على الأرض كالجوال بلا أدنى حرص!

يصيح به سيده:

ـ أفقه من غيبوبته، هيا.

يمسك (لطفي) برأس (صابر) ويصفعه عدة صفعات أعادته للحياة!

آهات مكتومة تخرج من (صابر)، يكاد لا يقوى على فتح عينيه، يتملّكه الرعب فجأة عندما يرى هيئة الواقف عند رأسه، يحاول الزحف للخلف فتخوناه يداه.

ينحني نحوه (فهمي)، يحملق في وجهه:

ـ أهلًا، يا (صابر)، ها قد علمت الآن أن يدي ستطالك حتى لو كنت في بطن سبعٍ حكم عليه الدهر بالانقراض!

ها، أتريد أن نضيّفك كما ينبغي مع أمثالك، أم ستوفّر علينا الوقت وعلى نفسك عناء ضيافتنا الثقيل؟

يلقي (صابر) بنفسه في حضن الصمت، يُسند ظهره إلى الجدار، يهيئ نفسه لملاقاة كل ما هو مؤلم وعسير.

يجيب الآخر نفسه:

ـ حسنًا، يبدو أنك ستنال من كرمنا الكثير.

يلتفت للواقف بجواره:

ـ (لطفي) لا تبخل عليه بكل ما عندك، وأثقل كاهله بما لا يقوى على حمله. ثم اتبعني بعد ذلك لتحصل على مَا اتفقنا عليه.

يتقدم خطوتين ثم يتوقف، يقلّب فكرة في رأسه، ينظر للملتصق بالأرض وهو يقول:

ـ يبدو أن اليوم يوم سعدك يا (لطفي)، فبخلاف المبلغ الذي أصبحت تملكه؛ فكّرت في إعطائك بعضًا من الحوافز، لك على كل معلومة تستخرجها منه أو كل ورقة نعرف مكانها، مئة ألف جنيه، ها، ما رأيك؟!

يفرك (لطفي) يديه من شدة الفرح:

ـ رأيي! تقول مئة ألف وتسألني عن رأيي! اطمئن سيادتك واعتبر أن الأوراق قد عادت لأحضانك.

يقترب من المستند للحائط:

ـ أستاذ (صابر) أعلم جيدًا أنك تعرف طباع هذا الرجل أكثر مني بمراحل، وتدرك تمامًا أنه لا يتوانى عن حماية

نفسه ضد أي خطر بكل ما أوتي من قوة حتى لو اضطر للقضاء على كثيرين في سبيل تلك الغاية، وأظنك لا تعرف كم دفع لي حتى ألاحقك، ما يفوق المليون! وها أنت قد سمعت منه الآن أن كل معلومة بمئة ألف! وأعتقد أنك تعلم أنه لن يدع هذا المبلغ يفارق خزانته دون تحقيق النتائج المرجوة من ورائه حتى ولو وصل به الأمر إلى تفتيت جسدك حتى تصبح كذرات الرمال ليحصل منك على ما يريد. فلِمَ لا تحرمني من مكاسب أخرى سأجنيها من وراء التفنن في إيذائك وتنقذ ما تبقى من أيامك من براثن تفكيري المؤلم، وتأكد من أنني لن أتورّع عن إتيان أي شيء، أي شيء قد يعجز عن تفكيرك. فأنت لا تعلم مدى شغفي الشديد بالمال الذي أسعى إليه بشتى الطرق، وأعبر لأجله كل العوائق والصعاب حتى ولو كان أبي ذاته إحداها!

ابتسامة باكية كانت أولى ردود (صابر)، يتبعها بقوله:

ـ ما أنت إلا كَوَلِيّ نعمتك؛ طبل أجوف! لذا فأنصحك أن تدخر كلماتك تلك لمن يأبه بها، أما أنا فنذرت ما تبقى من أنفاسي لأكفّر عن سيئات هي كل ما تبقى لي من رفقة سيدك، ولست بأحمق لأعطيه النصل الذي سيجز به رقبتي، فأنا وأنت ندرك أن ما يبقيني حيًّا هو ما بحوزتي من أوراق تدينه.. أفأسلّمه إياها ليسحقني بعدها!

يقترب منه (فهمي):

ـ أظن أن لك رفيقًا يهمك أمره، أعدك أنه سيكون إلى جوارك هنا إن التزمت العناد، فثق بأننا في النهاية سنحصل على ما نريد مهما كانت العواقب.

يدا (صابر) تسوّيان التراب وكأنه يمهد لنفسه مكانًا يستلقي فيه:

حسنًا، يبدو أنكما من عشّاق إضاعة الوقت، سأستريح قليلًا ريثما تنتهيان، وعندما تريداني فأنتما تعرفان كيفية إيقاظي.

ضربة مفاجأة من قدم (لطفي) الصلدة تدخله مرة أخرى في نومة قسرية.

27

يده تطرق باب الشقة بإيقاع، ويده الأخرى تتحسس زجاجة المنوّم، يرتّب أفكاره وينسقّها، يزيّن وجهه بابتسامة ماكرة.

ينفتح الباب لتظهر امرأة جميلة، تضع مرفقها على الحائط وتقول في غنج:

ـ (عصام) أين كنت يا فاجر؟ شهورًا طوال مرّت ولم أرك، خلتك نسيت طريقي.

يدفع يدها بكتفه نحو الداخل:

ـ لا، لا يا (سوزي) لا تقولي هذا. فأنتِ دومًا في القلب والعقل.

يستلقي على أريكة وثيرة، يخرج الزجاجة ويضعها على منضدة صغيرة بجواره.

تنحني صاحبة البيت نحو الزجاجة، تنظر إليها باستغراب لا يخلو من الارتياب:

ـ ما هذه؟ وما حاجتنا بها؟

يعتدل قليلًا، يلتفت نحوها:

- (سوزي)، أريدك لأمرٍ لن يقدر عليه سواك، ولك منّي العهد إن تحقق الأمر كما خططت له، لن يستطيع أحد إيقاف مسيرة عشقنا أبدًا. واطمئني فالأمر لا ينطوي على أخطار إن نفذتِ تعليماتي بدقة. ها أستساعدينني لنظل سويًّا حتى انتهاء العمر؟ أم أن رأيكِ قد تغيّر وأفسحتِ قلبك ليسكنه غيري؟

تقترب لتقبض على يديه بكلتا يديها:

- تعلم جيدًا أن قلبي أغلق عليك من زمن ومفتاحه لا يزال معك، وأنا على أتمّ استعداد لفعل أي شيء لأبقى في أحضانك، لكنّي أشعر أن الأمر جدّ خطير فوجهك ينطق بما لا ينطق به لسانك، فلِمَ نعرّض أنفسنا للمخاطر؟

يرفع يدها نحو شفتيه:

- ثقي بي يا حلوتي، فأنا عصام الذي لا يقوى على الحياة بدونكِ، فكيف أغرر بكِ أو أعرضكِ للخطر أو الأذى وقلبي لا ينبض إلا باسمكِ.

تنهض لتحجز مكانًا لها بجواره على الأريكة، تُلصِق جسدها بجسده، تميل برأسها على كتفه:

- يمكنني الآن الإنصات إليك بانتباه، فأخبرني بما تريد على مهل وبأدّق التفاصيل.

يلتفت إليها بجسده، يضمّها لصدره واضعًا ذقنه فوق رأسها:

- أعيريني سمعكِ جيدًا وأصغي إليّ بكل جوارحكِ، وانسي تمامًا أن لكِ لسانًا حتّى انتهي.

تهتز رأسه لاهتزاز رأسها بالموافقة، يتم ببطء وبمنتهى الهدوء:

ـ سأعطيكِ رقم هاتف يخصّ فتاة أريد إذلالها، ستحادثينها لتطلبين لقاءها لأمرٍ يتعلق بزوجها المنتظر، ستحددين أنتِ الموعد والمكان، وليكنّ أحد الأماكن العامة التي لا تبتعد عن هنا بكثير، ستذهبين قبل الموعد بوقتٍ كافٍ، ستطلبين مشروبين قبل أن تأتيكِ، وتتحيّني الفرصة المناسبة لتضعي في إحداهما نقطتين من تلك الزجاجة التي أمامك، ثم ضعيه أمام المقعد الذي ستشغله حين قدومها. عندما تحضر وبعد أن تتناول مشروبها، أخبريها أنّ خطيبها يتواجد الآن في شقة مشبوهة مع إحدى الفتيات، وأنكِ فاعلة خير وستجعلينها ترى خيانته بعينها، لكن اطلبي منها أن تصرف سائقها، فسيارتها قد تلفت الأنظار، ضعيها في إحدى سيارات الأجرة وتجوّلي بها قليلًا حتى يظهر تأثير المخدر كي لا تستطيع تمييز الشوارع وعنوان هذا المكان، ثم أحضريها إلى هنا، ستكون حينها شبه غائبة عن الدنيا، وهنا يأتي وقت مهمتكِ الكبرى، أظنكِ الآن فهمت مقصدي؟!

تقفز من مكانها كأنّ ريحًا أطاحت بها:

ـ ألهذا الحدّ تراني فاسقة! أجِيء لك بها إلى هنا لتفعل بها ما تشاء، وأجلس كحارسك على الباب! أجننت أم أن عقلك قد مات!

ينهض نحوها مسرعًا يهدّئ من ثورتها:

ـ يبدو أنّك فهمتِ حديثي على نحو خاطئ، فأنا أريد أن أكون خارج الإطار تمامًا وأنتِ التي ستفعلين كل شيء.

تكاد الدهشة المّتشحة بالغضب أن تأكل وجهها، فلم يتحرك لسانها.

يقترب منها أكثر، يضع رأسها بين يديه، يغوص في عينيها، يكمل:

ـ مرة أخرى تفهميني على نحو خاطئ، تذكّري ما قلته في البداية، أريد إذلالها لا إيذاءها، نريد فقط تصويرها عارية وهي تتقلب على تلك الأريكة وأنتِ معها بقليل من ملابسكِ، لكن حذار أن يظهر وجهكِ، نريد أن يتم كل شيء بلا آثار.

يتحرّك فمها بصعوبة من ضغط يديه:

ـ أستظل ملقاة هنا حتى تعود لوعيها؟

بعجالة يردّ:

ـ لا، ستتصلين بي بعد أن تنتهي من التصوير، حينها ستجديني بالأسفل ومعي سيارة، سنأخذها ونلقِي بها أمام أبعد مستشفى، هذا كلّ ما في الأمر.

تختفي يده في سترته لتعود بحفنة من النقود:

ـ خذي، فربما تحتاجين بعض الأشياء، أريد منتجًا يضاهي ما يوجد في خفايا الأسواق، لم يتبقَ إلا اسمها واسم مَن سيكون زوجها، أما هي فـ (هيام كمال الهاشم) وهو

(خالد فهمي عبد البديع) ها، أهناك أيّ استفسارات أو أشياء لم يستسغها عقلك جيدًا؟

تبدو كأنّها تعتصر ذاكرتها، ينفتح فمها ذهولًا:

ـ أليس هذا هو صاحبك ذو المال الوفير! ماذا حدث بينكما لتضمر له كل هذا العداء؟!

يصيح بحدة:

ـ كان! كان صديقي فيما مضى! أما الآن فهو غنيمتي التي لن أفلتها قطّ من يدي، وأيضًا نكون قد خرجنا من صداقته الطويلة بشيء ذي نفع.

تستعيد موقعها على الأريكة وقد تملّكها الخوف:

ـ أنت حقًا لا صاحب لك، وهذا يثير بداخلي طوفانًا من المخاوف، إن كان هذا هو حالك مع شخص أفنيت معه من عمرك سنين طوالًا، فكيف بي ولم تعرفني سوى من أشهر عدة، وحتى لقائنا الأول كان صدفة يصعب تكرارها.

يقترب منها ببطء، تعتلي وجهه ابتسامة ماكرة:

ـ لا يا (سوزي)، فالوضع معكِ مختلف كل الاختلاف، فأنتِ بالنسبة لي مصدر سعادة لا ينضب، فكيف أتولّى عنه وأنا لم أتذوّقها قطّ قبل رؤياك! إضافة إلى إن ضياء المستقبل ستشع من هنا، أتتركها لأتخبط ثانية في ظلمات ماضيَّ وحاضري البائس؟! ثم أنسيتِ كل ما بيننا؟ أنسيتِ كيف كان أول لقاء جمعنا. كانت أولى

نظراتكِ كسهم اخترق منّي الحنايا فأرداني صريعًا تحت أقدام هواكِ، فمن اليوم الأول صار بيننا ما تعدّى الحب والأشواق بمراحل، فثقي بي يا حبيبتي تمام الثقة، ودعي عنكِ تلك الهواجس لتصبّي جام تركيزكِ على ما كلّفتكِ به، فذلك هو الطريق للمستقبل الرغد.

يقبض على الزجاجة قبل أن يستلقي بجوارها:

- دعينا من كل هذا وانظري لما بداخل تلك الزجاجة، فهو يظهر أثرًا بعد ساعة، ونقطتين كفيلتين بإغراق شخص في النوم لما يزيد على الست ساعات، ويهيئ لي أن هذا الوقت كافٍ لننتهي من عملنا تمامًا.

يصمت ليفكر قليلًا، يتم:

- لم يتبق سوى بعض التنبيهات، استوثقي من فقدانها الكامل لتركيزها وهي في السيارة، أعدّي كل ما يلزم سلفًا قبل ذهابكِ، وانتبهي لعيون المحيطين بكِ جيدًا، فأي خطأ ولو كان تافهًا يمكن أن يوردنا التهلكة، حاولي التغيير من ملامحك قليلًا فيجب الاحتياط لكل شيء، واختاري لنفسك اسمًا عاديًّا لا يجلب الشبهات. (سوزي) التزمي الحذر من أن يلين قلبكِ ولو للحظات، فالأمر لا يحتمل المزاح، وإن خطونا خطوة فلا مجال بعدها للتراجع ولا بد من أن نكمل للنهاية.

28

ينفتح الباب العظيم فجأة، تدخل فتاة على قدر من الجمال وقدر أكبر من الزينة، تحمل بين يديها مظروفًا صغيرًا، صوت جهوري يخرج من خلف المكتب الكبير:

ـ ماذا وراءكِ يا بسمة؟

تضع ما بيدها أمامه:

ـ معذرة (كمال بيه)، أخبرني رجل من الأمن أن امرأة منتقبة جاءت إلى هنا، وأعطته هذا ليسلّمه لسيادتكم.

يتناوله، يخرج ما فيه:

ـ ما هذا، (CD)! وما تلك الورقة؟

يفتحها بلهفة، يقرأ بعينيه:

ـ «نرجو أن يتسع صدرك معاليك لما هو آت، واحذر أن تبوح ملامحك بشيء لا نريد له الإفشاء، ستجد مع الرسالة (CD)، تخص شخصًا من أقرب الناس إليك، فشاهدها بتمعّن وتدقيق ونتمنى أن تحافظ أعصابك على قوّتها لتعدّ لنا عشرة ملايين من الجنيهات، ويهيئ لنا أن ذلك المبلغ الزهيد يعدّ قطرة في بحر أموالك المترامي، فلا تبخل علينا به يا صاحب الأملاك.

ـ يوجد بداخل المظروف أيضًا، شريحة هاتف محمول، ضعها في أحد الهواتف لنحادثك عبرها، ولا ترهق نفسك في البحث عن بياناتها، فهي بلا أي معلومات! سنحادثك قريبًا لنرتّب الأمر، وللعلم لدينا من النسخ الكثير فلا تضطرنا لتحصيل المبلغ من السوق. أمامك حتى نهاية نهار الغد وإلا سنهدي صهرك المستقبلي واحدًا كالذي بين يديك، نتمنى لكم مشاهدة ممتعة».

إحدى يديه تشير للسكرتيرة بالانصراف، يده الأخرى تضع (CD) في موقعه بالحاسب، ينتظر قليلًا. فجأة تجحظ عيناه وفكه الأسفل يتدلّى.. نبضاته لا تكفّ عن التسارع، يشعر بالمقعد يغوص به لا يقوى على احتمال مشقّة حمل جسده المفكك الأواصر، يردد بضع كلمات كأنّه لا يُحسن غيرهن:

ـ (هيام)! كيف هذا! ومتى!

يستمر هكذا لدقائق، شيئًا فشيئًا يستعيد بعضًا من قواه الخائرة، يضغط على زر فوق المكتب حتى كاد أصبعه أن يلتوي:

ـ لا أريد أيّ مكالمات أو مقابلات من الآن فصاعدًا.

يقبض على هاتفه النقّال، يضغط أرقامًا فلم تكن به طاقة للبحث عن أسماء، غضبه يكاد يشعل المكان:

ـ (هيام) أين أنتِ؟

ـ مع (خالد)!!

ـ اعتذري منه، أريدكِ هنا حالًا، بمفردكِ.

ـ ...

ـ أسرعي وستعرفين ما اقترفتيه.

ـ ...

ـ لا تكثري الكلام، أسرعي فقط.

قدماه لا تستقران بمكان، صوت خطواته البطيئة كطبول حرب ستدور رحاها عمّا قليل، تمضي عليه الدقائق كأنّها أسرى تُساق إلى الموت، سهام نظراته تخترق ساعته الأنيقة:

لقد انقضت أكثر من عشرين دقيقة ولم تحضر بعد! سترى منّي ما لم تره من قبل. أنا أوضع تحت رحمة أوغاد يتهددوني؟ قسمًا لأنسفنّهم نسفًا.

ذاك بعض مما يضطرم في صدره.

ينصت، ها هي آتية، تستفسر من (بسمة) عن الأمر، يفتح الباب مسرعًا يناديها:

ـ (هيام)، تعالي إلى هنا، أسرعي.

يجذبها بقوة نحو الداخل. ويغلق الباب بعنف.

يدفعها بكلتا يديه فتسقط على المقعد أمام المكتب، يُدير شاشة جهاز الحاسب نحوها، يتوجّه صامتًا يحجز مكانًا أمامها والغضب يتقاطر من ملامحه.

تكاد عيناها تخترقان الشاشة، تعكس أنفاسها المتقطعة ميلاد خوف بأعماقها، تضع يدها على فمها تمنع شهقاتها من التحوّل لصراخ.

تتأرجح إحدى قدمي أبيها فوق الأخرى كأنّها تنفث بعضًا من ثوران بركانه، يرمقها بنظرات ككرات اللهب.

تنتابها الآن حالة رعب كاملة، كل ما فيها يرتعد، تنهض لتنزوي في أحد الأركان، تسند ظهرها إلى الحائط تطوّق صدرها بيديها، تتحدر دمعتان على خدّيها، تختفي إحداهما بين شفتيها.

تتوقف قدمه عن الاهتزاز لتضرب الأرض بعنفٍ ضربة خلعت قلبها، خطوتان بطيئتان باتجاهها جعلاها تصيح:

ـ أقسم يا أبي أنني لا أتذكر شيئًا من هذا، وكيف حدث، ولا كيف ذهبت، ولا حتى كيف عدت.

تتلاشي كلماتها تحت وطأة نواحها.

تمتد يده لتمسك بذراعها، يشدها نحو أحد المقاعد، يجلسها، ينظر في عينيها:

ـ تماسكي، لتخبريني بالأمر من البداية وبالتفصيل، أريد أن أعلم كل ما أصابكِ، فربما شيء صغير يدلّنا على مَن فعل ذلك.

تتعالى شهقاتها كأنّها تفرغهم دفعة واحدة، تسقط رأسيها بين كفيها تنظر للأسفل:

ـ تقريبا في التاسعة من مساء أمس، أصدر هاتفي رنينه الخاص بالأرقام الغريبة، وعلى العكس من عادتي أجبت. فوجئت بامرأة تطلب لقائي لأمر يخصّ (خالد)، ظلت تشعل الغيرة في قلبي بكلماتها القارصة حتى وافقت على مقابلتها بأحد الكافيهات بوسط البلد، كانت ملامحها عادية لا تبعث على الشكّ أو الريبة، ولا أدري بعدها ما الذي حدث!

تعتصر ذاكرتها، تتم:

ـ آه، تناولت بعضًا من مشروب كان أمامي، شعرت بعدها كأنّ برأسي جبالًا ينوء بحملها.. ولما أفقت من غيبوبتي وجدت نفسي في أحد المستشفيات وخرجت منها على وجه السرعة. أقسم بكل الأيمان هذا كل ما أتذكّره!

ينفجر فيها كطلقة مدفع:

ـ يحدث كلّ هذا ولا أعلم شيئًا! تبيتين بالخارج كأنني غائب عن الدنيا! لمَ لم تعلميني على الفور بكل ما حدث؟!

تتحامل على نفسها لتقف، تبتعد عنه قليلًا، تنظر من النافذة، تلتفت إليه فجأة كأنّ الرد ينضج بداخلها:

ـ أُعلمك! بماذا أُعلمك؟! أخبرني أنت متى كنت جواري؟! ماذا تعرف عنّي غير الاسم والشكل كغيرك من الناس! أتعرف صفاتي! ماذا يسعدني! ماذا يغضبني! أتعرف موقع غرفتي من البيت! أتذكر تاريخ مولدي! أخبرني عن نوع الصلة التي تربطنا! أهي بين أب وابنته، أم بين اثنين لا يلتقون إلا مصادفة! حدثني عن المشاعر التي بيننا إن كانت توجد من الأساس!

أنهار الدمع تحفر خدها، تقترب منه ببطء:

ـ ألم تفكر ولو للحظات ما سر تعجلي لإتمام الزفاف بأسرع وقت!

تهتز رأسه من تلقاء نفسها كأنّه لا يدري ما الذي تتحدث عنه!

تتم (هيام) حديثها الباكي:

ـ لأول مرة أشعر بقرب إنسان، أحسّ برعايته، بلهفته لرؤياي، يفعل ما أريد في الوقت الذي أريد، يتفانى لإسعادي، يقرّبني إليه أكثر من نفسه، يحرص كل يوم على تصفّح وجهي، يتفقّدني حتى أثناء نومي، أشعر أن ما يربطني به أقوى من أي رباط آخر، وجدت معه ما كنت أفتقده في أبي وأمي، هو ما...

يقاطعها في حدة:

ـ ها أنتِ ستفقدينه إلى الأبد! أيمكنكِ تخيّل ردّة فعله عندما يرى مَن ستكون زوجته، تتلوى عارية على كل مواقع الإنترنت! أتعلمين كم طلب السفلة مقابل هذا، عشرة ملايين من الجنيهات، أنتِ تجعليني صيدًا للأراذل.

يسيل غضب يمتزج بالحقد من عينيها، تسرع نحو حقيبة يدها، تخرج هاتفها، تجد الرقم على الفور كأنّه الوحيد بذاكرة الهاتف، تلصقه بأذنها:

ـ (خالد)، أريدك حالًا!

ـ ...

ـ في مكتب أبي، أرجوك تعال على الفور!

ـ ...

ـ ستعلم كل شيء عندما تصل!

ينهض نحوها أبوها، يقبض على ذراعيها بغلظة:

ـ ما هذا الذي تفعلينه؟! أجننتِ، أم أن الصدمة قد أتت على عقلكِ؟

تستخلص نفسها من بين يديه بعنف:

ـ أنا لن أضع نفسي تحت رحمة أحد، وما كنت لأخفي عنه شيئًا كهذا، فإن تفهّم طبيعة ما كنت عليه كان بها، وإن لم يتفهّم فهذا قدري ولن أفرّ منه، أنا ضحية هنا، إن لم يقف في صفي الآن؛ فلا حاجة لي به!

يضرب الآخر كفًا بكف عوضًا عن صفعها:

ـ وسمعتي بين الناس! سيقال بنت (كمال الهاشم) لم تجد مَن يردعها، خير لي أن أقتلكِ ولا يمسّ اسمي بسوء.

تصرخ في وجهه:

ـ تلك سمعتي لا سمعتك، وإن كنت ستدفع لهم، ادفع! أما أنا فلن أتراجع عن قراري حتى لو قتلتني كما تقول، فتلك حياتي وليست حياتك ولن أبدأها على أسرار وكتمان!

يتراجع ليلقي جسده على مقعده خلف المكتب:

ـ آه! لو كنت أعلم الغيب، ما أرجعتكِ من الخارج قط، جازى الله أمكِ بكل السوء، فهي من أرادت هذا.

كلمته كانت إيذانًا بأن الصمت سيستبد بالمكان، كأنّ الاثنين أفرغا كل ما بداخلهما، يلتزم كل منهما بموقعه، أصابعه تنقر على سطح المكتب تنفيسًا عما يعتريه، أما هي فتقف بجوار النافذة تنظر للأسفل.

كلاهما لم ينتبه أن شاشة الحاسب لا تزال تعرض مشاهد (هيام) العارية.. لقطات متتابعة تظهر رسومًا على الحائط.

صوت (خالد) بالخارج يحادث السكرتيرة، يدخل في عجالة ويتجه مسرعًا نحو (هيام) التي لم تبرح مكانها، تلتفت على تساؤل أبيها الغاضب:

ـ مَن هذا الذي معك يا (خالد)؟

يتولّى رفيق (خالد) الردّ:

ـ أنا، أنا (هاني)، صديق (خالد) منذ أمد بعيد.

يشير له صاحب المكان بلا أدنى اهتمام:

ـ اخرج، اخرج، نريد الحديث في أمرٍ خاص.

يشعر (هاني) بآماله تتقوّض، كان يمنّي نفسه باستقبال حافل يقوّي عزمه على طلب عمل يساعده في بناء حياته، رسمت له أطماعه الجائعة صورة عن مستقبل رغد ينتظره إن أفلح في مسعاه، لذلك ظلّ يلح على صاحبه بأقصى ما يمكنه ليصطحبه معه، ولم يجد الأخير بدًا من الموافقة. لكنه ها هو يعود حتى بغير خفّي حنين.

يلتفت نحو صاحبه المنشغل عنه بالحديث مع محبوبته، يخيّل إليه أن دموعها المنهمرة ما هي إلا ترف زائد لرفض طلب صغير من رغباتها التافهة، يتجه للخارج بتثاقل كأنّه يجر أذيال الفشل، تتجول عيناه بأرجاء المكان الفخم بنظرات يفوح منها الحسد، لكنّه فجأة يتسمّر في موقعه لا يصدّق ما يراه.. عيناه تلمح تلك الرسوم على الحائط في شاشة الحاسوب التي غفل عنها الجميع.. يكاد الذهول يخنقه، أبهذه السرعة نجح (عصام) في مخططه، يدقق النظر أكثر

«نعم، نعم هذه هي شقة (سوزي) فتلك الرسوم الخليعة لا توجد إلا هناك، كيف لي ألا أعرفها وقد زرتها معه مرات عدة! يا له حقًا من ماكر، خطط ونفّذ بمنتهى الإحكام والدقة، لكنه فعلها دون أن يخبرني»!

وفجأة كأنّ شيطانا يتقافز أمامه يرمي له بحيلة خبيثة:

ـ لِمَ لا تبيع (عصام)! أنت دومًا لم تكن له صاحبًا بما تعنيه الكلمة، بل كنت مجبرًا على صداقته، ثم ألم يفعلها هو مسبقًا وباع (خالد)!

يسترجع: لكنه وعدك بالنصف! ومَن يدريك أنّه صادق؟ مثل هذا لا يؤتمن، أسرع واغتنم الفرصة فقد لا تأتيك ثانيةً وتندم وقت لا يجدي الندم، هيا اطرق على الحديد الساخن، هيا.

لم ينتبه أحد من الجميع أنه لم يخرج بعد، فالرجل يعتصر رأسه يفكر، صديقه ومعشوقته بينهما مشادة حامية الوطيس! الآن استقر عزمه على عدم الخروج من هنا إلا بغنيمة، يعود إلى القابع خلف مكتبه، يميل برأسه نحوه، بكلمات أقرب للهمس:

ـ أنا أعلم ما الذي يؤرّق العقل العظيم، ومستعد لكي أخرجه من مأزقه هذا!

يرفع (كمال) رأسه:

ـ أنت! ألا تزال هنا! ألم أطلب منك الخروج!

يقاطعه (هاني) مسرعًا:

ـ أرجو من سيادتك أن تخفض صوتك، لا أريد لـ (خالد) أن يعرف شيئًا، وأعدك أن الأمر سيحلّ في لمح البصر، لكن أيمكننا أن نكون على انفراد؟

يصمت الجالس قليلًا، يوازن الأمر في رأسه، يرتفع صوته:

ـ (هيام)، رافقي (خالد) لمكان آخر لتكملا حديثكما، أريد أن أحادث هذا في أمر مهم.

لم ينتبها لما قاله، يعيد أمره بحدّة أكثر، فيمتثلان بدهشةٍ تستولي على ملامحهما، يظن (خالد) أن صاحبه نجح في مسعاه، لكن ما ألمّ به لم يدع لعقلة فرصة ليتقصّى حقيقة الأمر.

يحتل (هاني) المقعد المقابل، يبدأ في تحويل أحلامه لواقع:

ـ منذ بضعة أيام حدثت قطيعة بين (خالد) وأحد أصدقائه يدعى (عصام)، فعزم الأخير على الانتقام، وكان انتقامه بهذه الطريقة التي رأيت، وما ابنتك إلا ضحية لمخططه البشع.

ينهض الآخر بلهفة:

ـ أتعرف أين يقيم؟! دلّني على مكانه ولك مكافأة ضخمة.

قلبه يتراقص في صدره، مبتغاه يقترب من التحقق، لكن أطماعه لم تتوقف بعد، ينهض، يبتعد قليلًا:

ـ تحلّى بالصبر (كمال بيه)، أعتقد أن الأمر يتطلّب خطة مضادة، فما أدرانا أنّه بلا شركاء، وإن تعرّضنا له بالأذى، قد يظهر آخر ويذيع ما نعمل جاهدين على كتمانه، فدعنا نفكّر قليلًا لنهتدي لحل يجنبنا الكثير من الخسائر.

يستعيد (كمال) جلسته:

ـ معك كل الحق، لكن الوقت يمر وهذا خطر لا بد ألا نغفله.

يغرق (هاني) في بحر من الصمت، كأنّ إعمال عقله أمر لم يعهده، إشارات يديه توحي باقترابه من العجز، فجأة تبرق عيناه كمن وجد كنزًا من ذهب، يتقدم نحو المكتب:

ـ واتتني فكرة ربما تنال رضاك، ما رأي سيادتك في أن نتخلص منه نهائيًّا؟

يقابله الآخر بكلمات فظة:

ـ أهذا أمر أعجز عنه حتى انتظر منك الإشارة يا أبله، لو أردت ذلك ما ظللت هكذا أواصل الاستماع لحديثك المهترئ.

يقاطعه (هاني) بأعصاب متجمدة:

ـ عذرًا، ما قصدت هذا سيادتك، بل أقصد أن أخلصك منه أنا بهدوء وبلا آثار، فأنا ما زلت بالنسبة له صديقًا ولن يخالطه أدنى شك في نواياي، بل يمكن أن يطلعني على كل ما في جعبته، ها، ما رأي العقل العظيم فيما قلت؟

يتراجع على مقعده. إبهاماه يلاحقان بعضهما خلف أصابعه المتشابكة، يغمض عينيه يتصنع الاستغراق في التفكير، تمر اللحظات على الآخر كالسنين ينتظر الإذن بالتنفيذ، يفرّق الجالس بين أجفانه ببطء، يرفع رأسه ينظر إليه:

ـ أخبرني أولًا كيف ستقضي عليه، فما زلت لا أثق في قدراتك.

ينقضّ (هاني) على المقعد كأنه كان ينتظر السؤال:

ـ الأمر سهل جدًا، سأسممه بتناول وجبة دسمة، وبعدها سأحصل على كل الأسطوانات التي بحوزته، هذا كل ما في الأمر.

يعتدل صاحب المكان، يجلس على حافة مقعده، ترتسم على وجهه ابتسامة زائفة إعجابًا بتلك الفكرة:

ـ أحسنت، تلك أأمن طريقة للانتهاء من متاعبه، لكن كن على حذر، فيبدو أنه لن يكون سهل المنال، فإن كشف أمرك؛ سيصيدك قبل أن تصطاده.

يفتح خزنته الخاصة، يخرج منها رزمًا من الأوراق المالية، يلقي بها نحوه:

ـ تلك مئة ألف، اذهب وتمتع قليلًا، وعد إليّ هنا بعد ساعة، ستجد الوجبة الشهيرة وزجاجة السّم في انتظارك.. كن يقظًا وأنت توزّع السم، حتى لا تقتل نفسك.

يفرق (هاني) النقود على جيوبه، يسرع الخطى للخارج تسبقه نفسه الدنيئة وأطماعه الواسعة.

يتابعه (كمال) حتى أُغلق الباب عليه وحيدًا، تبرق عيناه بفكرة مفاجئة، يقبض على هاتفه ويجري اتصالًا في عجالة، يتحدث بكلمات هامسة، يضع أركان خطة بديلة هي التي ستعرف التنفيذ.

29

يشعر بإرهاق يضرب قدميه وهو مستند إلى أحد الأعمدة، يُخرج الهاتف من جيبه يحدّق فيه، يرفعه لأعلى يرجوه أن يتعالى رنينه بالبشرى، تلحظ عيناه أرقام الساعة وهي تكاد تدهم الخامسة، يُسرع الخطى يلوم نفسه على التأخير وقد قضى ساعات طوال يضرب في الأرض بلا جدوى.

ينحني به الطريق حتى أوصله للبيت، وقع أقدام تسبقه يدفعه للإبطاء، يصل إلى الباب فيجد شابًّا وفتاة يصطحبان صبيًّا توحي ملامحه بعدم انتمائه لهذا الواقع الصعب، يتبادلون النظرات كأنهم يعجزون عن الطرق، يستمر الوضع للحظات يرفض التغير، لم يجد بدًّا من اختراقهم ليكون أول الطارقين، ينفتح الباب بهدوء فتظهر صاحبه البيت ترحب:

ـ أهلًا دكتور (عمر) تفضل بالدخول.

تنظر إلى الواقفين خلفه:

أهم معك؟!

يسرع كبيرهم بالرد:

ـ نحن نريد (هناء) أليس هذا هو منزلها؟

تتوالى عبارات الترحيب ثانية:

ـ نعم، نعم تفضلا فهي بالداخل عائدة لتوّها من العمل.

يتقدم الثلاثة نحو الداخل بخطوات بطيئة وحرج كبير، يشعر (عُمر) بأن الوقت لن يناسب الحديث فيما أتى من أجله فيرجو الاستئذان، ترفض صاحبة البيت بإصرار وحسم.

يجلس ثلاثة منهم متجاورين، يرتضى (عمر) لنفسه بمقعد منفصل، بينما تختفي صاحبة البيت بالداخل لإكرام الضيوف.

صوت (عمر) يكسر حدة الصمت التي أطبقت بالجميع:

ـ أنا (عُمر عامر) من الإسكندرية وأعمل طبيبًا.

يشعر الآخرون بالحرج، ينطق الرجل منهم بقلق:

ـ (جلال شوقي عبد الرحمن) وتلك أختي وهذا أخي الأصغر (رضا).

تظهر (هناء) فجأة قبل أن يتم حديثه، يسبقها صوتها:

ـ خير يا دكتور، أتوصّل صاحبك للحقيقة، أم لا يزال يقلّب الصفحات؟ ولماذا لم يأتـ ...

ينقطع صوتها ليتولّى الاضطراب رسم ملامحها عندما وقعت عيناها على هيئة الجالس بين أخويه، ما إن يراها (جلال) حتى ينتصب واقفًا مطرقًا رأسه لأسفل مغمض العينين استعداد لسيل سباب توقّع أن يغرقه.

تشدّ الأرض على قدميها، يتوقف كل شيء فيها ما عدا لسانها:

ـ أنت!! ما الذي جاء بك! ألم يكفك ما فعلت! هيا، عد أدراجك فالمكان هنا لا يتسع لأمثالك.

تنتفض أخته لتخرجه من مأزقه:

ـ نرجو الرفق بنا يا صاحبة الخلق الحسن، وأقسم بالله عن أخي أننا ما جئنا إلى هنا إلا لطلب الصفح والعفو ممَن تمتلك منهما الكثير، ولنحاول إصلاح ما أفسدته لحظة ضعف أحسن الشيطان استغلالها، ونحن أيضًا على أتم استعداد لتقبّل كلّ ما تفعلينه بنا، إذا كان هذا يرضيكِ.

يدرك ابن الإسكندرية أن لهذا الشاب علاقة بما أصاب (هناء) فيلتزم الصمت عل القادم من الحديث يكشف عن المزيد.

يشعر (جلال) بأنها فرصته ليُخرج ما في صدره، يلتقط طرف الحديث من أخته:

ـ إنّي والله لمقدر لما يعتريكِ الآن وأعلم ما ترسّخ بداخلكِ من أحقاد تجاهي، ومعكِ كلّ الحق في هذا ولن ألومك على كل ما ستفعلينه، لكنّي أودّ التكفير عما فعلت، إحساسي بالذنب يفتك بي ويدمّر حياتي!

تبدو (هناء) كأنها تغوص في بحر بلا قرار، ألجمتها عباراته المفاجئة! تموت بداخلها الكلمات فلم تجد ما تنطق به.

صوت أخته يظهر مجددًا:

ـ اعذريني فيما سأقوله الآن، مع أنني لم أعايش ما عانيتيه ولا أتخيّل كيف ستكون ردّة فعلي إن كنت في مكانكِ.. لكن لما لا ننسَ ما فات بكل ما فيه! لأننا استسلمنا

للندم سيحيلنا لهيئات محطمة تعجز عن مواصلة الحياة، ولننظر لموقعنا الآن، يمكننا أن نتقاسم الآلام سويّة حتى نطوّيها أو ندفنها.

لولا أن الموقف لا يلائم لانطلقت يدا (عُمر) بالتصفيق إعجابًا برجاحة عقل المتحدثة، يقول في نفسه:

ـ قد أحسن اختيار مَن يدافع عنه.

تشعر (هناء) بثقل الكلمات على سمعها، يسقط جسدها على المقعد فيصدر أصواتًا كأنّه يأنّ تحت وطأة ما يسكنها، تحاول جاهدة دفع لسانها لينفث بعضًا من كمدها، تقول:

ـ قالوا قديمًا «لا يشعر بالجمر؛ إلا القابض عليه» فما بالكم بي والنار تتضرم بداخلي من حينها لا يكف اشتعالاها عن الازدياد يومًا بعد يوم، حتى أصبحت خاوية كأعجاز النخل.. تطالبوني بالنسيان واستكمال الحياة بعد أن تحطمت بداخلي صورة الحياة! أي حياة تلك التي لا يأمن الفرد فيها على نفسه، على أعضائه؟! أي حياة تلك التي يعربد فيها شيطان الشهوة في كل الأرجاء، شهوة امتلاك الغير، شهوة امتلاك المال، شهوة امتلاك حتى الأنفاس! كيف أطوي بين عشية وضحاها آلام لحظاتٍ شنقت فيها الفضائل بأيد خبيثة في ظل تغافل من ضعاف النفوس أو تواطئ منهم! كيف أنسى صفعة أخيكِ حين حاولت النجاة! كيف أنسى تخلّيه عنّي بعد أن وضعت كل أملي عليه حين بُعث ضميره من

جديد، قبل أن يقتله ثانية بقوله: «اعذريني ليس بيدي شيء»! لم يرحم نظراتي تكاد تقبل حذاءه! أخبريني كيف لا أستسلم للندم وكلّ ما حولي يسانده!

دلّوني على الجيّد في الحياة حتى أقاوم لاستكمالها! عذرًا لقد تأخرتم كثيرًا، لقد أصبحت من يومها حطام إنسان يكره كل ما في الحياة!

هنا يصيح (عُمر):

ـ يكفي هذا، فأمكِ بالداخل ولا أظنكِ تريدين إعلامها بكل هذا، هيا أخفى دمعك حتى لا تشعر به فكفاها ما بها.

يطبق الوجوم على البقية كأنّ ألسنتهم أُنسيَت الكلام، الصغير ينظر لأخويه نظراتٍ تائهة لا يرضى لهم بالسكوت.

يواصل (عُمر) حديثه:

ـ لننحي هذا الأمر جانبًا الآن، فحديث الجراح هذا لن يجدي بشيء، لكن ما يجدي الآن هو محاولة إنقاذ إنسان تكاد حياته تقترب من النهاية، وقد أقرضكِ قرضًا حان الآن وقت سداده.

ترفع رأسها نحوه:

ـ لا تحدثني عن صاحبك مرة أخرى، فهو السبب لكل ما أنا فيه الآن.

ينهض من مقعده مسرعًا، يقترب منها:

ـ هذا هو ما أريد معرفته فقط، كيف كان الأستاذ (صابر) رغم ما قدمه لكِ، سببًا لما تعانيه الآن؟

تنتصب واقفة بعنف، تتجه صوب النافذة:

ـ أنا التي أرجوك الآن يا دكتور، فبعد كل ما نطق به لسانك لا تجعلني أشوّه صورته أمامك، فما أعرفه قد يقلب أحاسيسك تلك من النقيض إلى النقيض.

صوت (حسام) أخيها الصغير ينبعث من الداخل ويأخذ بأسماع الجميع:

ـ أمي، أمي، ماذا أصابكِ!

يهرع الجميع نحو الداخل، يحيطون بالأم الغائبة عن الوعي، يُمسك الطبيب بيدها، تنقضي ثوانٍ كالأعوام على المحيطين انتظارًا لكلمات تطرد المخاوف بعيدًا. نواح (هناء) ينعكس خوفًا على ملامح الضيوف، (جلال) تكاد أنفاسه تتوقف، فقد أراد أن يُصلح بعض ما أفسده لكنّه ها هو يزيد الطين بله ويزيد الجرح عمقًا.

ـ بما أن كل شيء قد ترتب على سابقه، ولولا ما صدر منكم ما كنت لأقف موقفي هذا، فامكث معنا قليلًا فربما نحتاجك لإعلامنا بأشياء قد تكون ذا نفع وقيمة.

تلك كلمات (عمر) تستحث (جلال) الانتظار بعد أن كان يريد الرحيل.

(هناء) ما عادت تقوى على كتم حزن ينم عن عظمته تلك الرجفة التي تمتلك أعضاءها. يريد (عُمر) أن يستغل الفرصة:

ـ انظري لحجم خوفكِ من فقدان أمكِ، ها هي فرائصكِ ترتعد كلما هاجمكِ هذا الشعور! هذا بالضبط هو ما أشعر به منذ اختفاء الأستاذ (صابر) فقد اعتبرته الأب الذي أهدانيه الله ليعوّضني عن أب لم أعش في كنفه سوى سنين قصار، ولم يعد لي الآن غيره بعد رحيل أمي منذ أقل من يومين، لكِ أن تتخيلي كم يعاني هو الآن في قبضة ظالم متجبر لن يتوانى عن إيداعه القبر، إن لم يحصل منه على ما يريد، فأرجوكِ لا تساهمي في فقداني لأبي الثاني بصمتكِ المتعمد هذا!

تصرخ فيه بقوة فتتطاير من عينيها الدموع:

ـ وما علاقتي أنا بكل هذا؟ أتراني بلا هموم لتحملني همومًا أخرى؟

(جلال) وأخته نظرات مغلفة بالدهشة والحرج، يلتزمان بصمت يلفهما بقوة.

تتوالى كلمات (عُمر) مجددًا:

ـ ألا تذكرين قولكِ له الذي رددتيه اليوم مرة أخرى «استرجع بعضًا من صفحات ماضيك» ألا يدل هذا على أنكِ تعرفين شيئًا وتُخفيه؟

تلتفت إليه بعيون تتقد:

ـ إذًا فاسمع، (صابر) هذا الذي تدعوه أبًا هو مَن أفقدني أبي، قتله بلا أدنى رأفة ولا رحمة، اعتمد على أنّه أصم وطحن عظامه بسيارته، أخرجه من الحياة ليستكملها هو في خدمة سيده ولعلمكِ أنا لا أتجنى عليه، بل هو الذي أخبرني بهذا دونما علمه بحقيقتي.

لا يبدو على (عمر) الاندهاش:

ـ كنت أتوقّع هذا، فقد ترسّخ إحساس بأن لأبيكِ علاقة بهذا، لكنه ها هو الآن يدفع الثمن بعدما سقط في براثن (فهمي عبد البديع)، ذلك الطاغية هو سبب كل الشرور التي تحيط بنا الآن.

ينتفض (جلال) فجأة كمن تلقى سوطًا على ظهره بمجرد أن طرق الاسم أذنيه، تتساقط الكلمات منه كأن لسانه يتحدث من تلقاء نفسه:

ـ (فهمي عبد البديع)! منذ متى وأنت تعرفه؟ وكيف؟ وأين؟ وما علاقته بك وبصاحبك؟ أهو حقًّا من قتل والدها؟ يا الله! ما هذا الذي يحدث؟ أنحن حقًّا لا نزال في الدنيا، أم عدنا لزمن الأساطير!

تشرئب أعناق الجالسين نحوه، كان (عُمر) أول المتحدثين:

ـ ماذا أصابك؟ يبدو أنك تعرفه وتعرف الكثير من الأشياء الأخرى!

يهوى (جلال) على المقعد كأن أثقالًا تطبق على صدره، يُخفي وجهه بيديه:

ـ إذًا هذا الرجل وابنه هما سبب كل الآلام التي ألمت بهذا البيت.

صرخة (هناء) تملأ البيت:

ـ ابنه! مَن ابنه هذا الذي تقصد؟

كأنّ الكلمات غصّة في حلقه تكتم أنفاسه، فيكابد ليخرجها:

ـ ألا تذكرين السيارة السوداء! ابنه هذا هو صاحبها.

ـ أتذكرين مَن قام برشوة الموظف! ابنه هذا هو مَن فعلها.

ـ أتذكرين الشاليه المشؤوم! ابنه هذا هو مالكه.

صوته يتصاعد حتى وصل لأقصى مداه:

ـ أتذكرين ما أصابك من البداية إلى النهاية! ابنه هذا هو مَن خطط له!

يغرق في بحر من دموعه.

تهوى (هناء) على الأرض، تستند إلى الجدار، تمسك برأسها الذي كاد يسقط أمامها يريد إفراغ كل بشاعة العالم التي أصبحت تحتله: أي أرض تلك التي نحيا فيها! ما بال دائرة الشرور تحكم خناقها حولي! ألا يوجد في تلك الدنيا غيري لتتكالب عليه النكبات!

تطلق آهةً عظيمة تخرق كبد السماء.

تهرع نحوها (رحاب) تحتضنها بقوة تشاركها الدموع.

كعادة عقله في العمل وقت الأزمات، يقترب (عمر) من (جلال) ويمسك بكتفه:

ـ أتعرف مسكن هذا الرجل والد مَن كان صديقك؟

تهتز رأس الآخر بالإيجاب، يكمل (عُمر):

ـ ألا يمكنك أن ترافقني إلى هناك، أظن أن صاحبي سجين بيته ولعلنا قد نتمكن من إنقاذه، ها ما رأيك؟

يستدير (جلال) إليه:

ـ لا أعتقد أن هذا قد يجدي، بل قد نسقط في قبضته نحن أيضًا، فمن المؤكد أن هذا الظالم يُحكم الإطباق على صاحبك بأقصى ما يمكنه طالما الأمر كما قلت قد يهدم إمبراطوريته.

يصمت فجأة كأنه تذكر شيئًا قبل أن يتم:

ـ يبدو أن الحظ قد يساندنا، فزفاف ابنه (خالد) بعد الغد: أي أننا يمكننا التجول بحريّة في أرجاء المكان، ومن المؤكد أن (فهمي) يخبئ صاحبك في مكان ما بالقرب منه، ليشرف بنفسه على استنطاقه بالقوة، ها ما رأيك أنت الآن؟

تساؤل يخرج من فم (عُمر):

ـ ألا ترى أن تلك المناسبة تقتصر على أنواع معينة من المدعوين، فكيف يمكننا الانصهار وسطهم حتى لا نلفت نحونا الأنظار؟

يربت (جلال) على كتفه:

ـ ماذا دهاك يا دكتور! أنسيت أنني كنت واحدًا من أصدقاء صاحب الزفاف وترددت على ذلك المكان مرارًا ويعرفني الحراس والخدم جيدًا، ثم إن صاحب الزفاف أرسل لي دعوة للحضور، لا تقلق ودع الأمر لي، لكن اسمح لي أن أضيّفك في بيتي، فكما علمت أنك من الإسكندرية.

ينظر تجاه (هناء) برجاء:

ـ وأرجو من (هناء) أن تسمح لأختي (رحاب) بأن تظل معها هنا، لتساعدها في رعاية أمها.

لم تجب (هناء) سوى بدمع لا يكفّ عن الانهمار، وشهقات لا تكفّ عن التتابع.

30

يصعد درجات السلم كمن يسعى نحو سامر يوشك أن ينفضّ، يُلصق أذنه بالباب مع تمنيات بأن تحوم ملائكة الموت بالمكان، ينصت أكثر، ها هي صوت ضحكات (عصام) بالداخل، يبدو أن ملائكة العذاب بدأت تتوافد فعلًا، يطرق الباب بقوة، فيفتح ببطء، تظهر صاحبة البيت بزينتها الصارخة تقول:

ـ (هاني)! ماذا أصابكم يا شباب، تتوافدون تباعًا بعد طول غياب!

يقاطعها على الفور:

ـ هل (عصام) هنا؟ أريده في أمر مهم.

تجذبه للداخل بقوة وتغلق الباب بإحكام:

ـ أدخل أولًا، وبعد ذلك ننظر فيما تريد.

يتقدم ببطء نحو المائدة الفارغة، يضع وجبات الطعام التي في يده فوقها بهدوء، يتجه صوب صاحبه المستلقي على الأريكة في استرخاء، يقرّب المقعد ليجلس بقربه، يفتتح حديثة بضحكة ساخرة:

ـ لم يدرِ بخلدي يومًا أن لك عقلًا يفكّر هكذا، فتلك ليست أفكار أناس مثلنا، بل أفكار عقول يندر وجودها حتى في أواسط الشياطين.

يعتدل الآخر فجأة، يعتليه الغضب:

ـ ومَن أدراك بأفكاري لتتحدث هكذا! فأنا ما زلت أفكّر فيما يمكنني عمله.

يعاود (هاني) ضحكاته:

ـ يبدو أنك كنت تنوي ألّا تعلمني، أو بالأدق كنت تريد أن تستغفلني، على العموم قد علمت بكل شيء، ورأيت الفيديو الذي أنتجتماه أيضًا ولهذا حضرت إلى هنا.

يقترب منه (عصام) بلهفة:

ـ ها، وماذا كانت ردة فعلهم، هل سيرضخون لمطالبنا؟

يصمت لثوانٍ يضغط على أعصاب الآخر:

ـ تذكّر ما اتفقنا عليه سابقًا، لي النصف مما سنجنيه قلّ أو كثُر.

تتدخّل صاحبة المكان في الحوار:

ـ ماذا؟! لك النصف وله النصف وأنا أخرج هكذا كما دخلت، إنّي أحذركما فأنا مَن نفذت كل شيء وعرّضت نفسي للهلاك، ويمكنني أن أهدم كل ما بنيتماه إن أغفلتما حقي.

يسرع نحوها (عصام) يضمها لصدره:

ـ مَن قال هذا يا حبيبتي، لا تستمعي لكلام هذا الأحمق، بل سيكون لك نصيبًا يفوقنا، دعونا أولًا لا نستبق الأحداث، ولنرَ ما الذي سيقدمون عليه.

يخرج (هاني) الأطعمة، يوزّعها على المائدة:

ـ بل أنتما الأحمقان وأعميان أيضًا، ألم تريا ما أحضرته؟ هل أكبد نفسي تلك الخسائر دون خبر مفرح أحمله! حقًّا حمقى!

يهرولا نحوه، يحجز كل منهما مقعدًا في مواجهته، تنهمر منهما الأسئلة، لسانه يحثهما على الهدوء، وهو يوزّع الطعام في طبقيهما، يسند ظهره إلى الخلف ينظر لهما باستعلاء يقول:

ـ لقد جئتكم من هناك رأسًا، لن تتخيلا هيئة أبيها الآن، استبد به الغضب حتى كاد يقتلها لولا تدخّلي أنا و(خالد)، أؤكد لكما أنه لن يتوانى عن إجابة مطالبنا، بل ويمكن أن يزيدنا لضمان السكوت. هيا! هيا لنحتفل ببداية عهدنا الجديد، لكن مَن سيجلب لنا الماء؟

يتطوع (عصام) لأداء المهمة، تلحق به (سوزي) للداخل بعد أن طالبها (هاني) بإحضار مزيد من الأطباق، يختفيا بالداخل لفترة، يستغلها لإفراغ كل ما تحتويه زجاجة السّم في طبقيهما، يصل لسمعه صوتيهما يتناقشان، يستقر عزمه على ألّا يقرب الماء فقد يلدغاه قبل أن يتمكن منهما، يعيد الزجاجة لموقعها تلامس جسده.

يخرجان حاملين ما طلب منهما، يضع (عصام) أول الأكواب أمام (هاني)، تحضر (سوزي) بقية الأطباق وتجلس بجوار (عصام) يحاولان إخفاء فرح يتعاظم بأعماقهما.

(هاني) يفتتح الأكل ليطمئنهما إلى طيب الطعام، يتابعاه ببطء ينتظران أن يقرب الماء بشغف، يستمر في الالتهام بنهم مما دفعهما إلى مشاركته الأكل، حتى لا يثيرا بداخله الشكوك.

يتوقف (هاني) فجأة، تجحظ عيناه كأنّ حلقه امتلأ بالنار! تمتد يده بلا رويّة نحو الماء، يروي جوفه الملتهب، يرى الفرح يتراقص بعيونهما فيرمى بالكوب في وجه أحدهما فيتفاداه بصعوبة، يشعر بجمر يتلظّى بأحشائه، يهوى من فوق المقعد يلتوى كثعبان فقد رأسه! تتشبث أصابعه بأي شيء عساه ينقذه، يتكوّر جسده ثم ينفرد بقوة كأنّ كل عضو فيه يبغي الفرار، آهات بلا صوت تنطق بها عيناه وقد تلوّنت بالدم، يحاول التمسّك بطرف المائدة فتخونه يداه تصطدم بالأرض تتبعها رأسه، يلفظ آخر أنفاسه في الحياة.

يشرع (عصام) بالنهوض فيتقوّس في موضعه، تسرع يداه تقبض على معدته تغوص أصابعه بثنايا جلده تسعى لاختراقها، يسقط على جنبه فتلحق به الأخرى فوقه، يركلها بقدمه في ظهرها فيتعالى صوتها بالصراخ، يسيل لعابه على الأرض سرعان ما تخفيه ملابسه.

تزحف (سوزي) باتجاه النافذة بمرفقيها، تستند إلى الحائط، تفتح فمها كأنّ ألسنة النار تنبعث من داخلها.

ترتفع يد (عصام) تشد مفرش المائدة فيتساقط ما فوقها تباعًا على رأسه، تكاد ملامح وجهه تختفي تحت ألوان الطعام، يلتصق وجهه بالأرض، يرتجف بشدة كأنّ صاعقة تضربه، ثم يصمت للأبد.

تمتد أصابع (سوزي) كالكلاليب لأعلى، تنهض ببطء كأنّ الاتصال بقدميها يوشك على الانقطاع، لم تكد تلقي نظرة للخارج حتى ترتمي للخلف، صوت عظام ركبتيها تتحطم كان آخر صوت يخرج منها.

سكين يناجز مزلاج الباب بمهارة، يفتحه ببطء، يدخل شخص تتوارى يداه تحت قفازين، يعبث بكل محتويات الغرف، يجد بُغيته مخبأة بعناية داخل أحد الأدراج، يقلّب بين يديه عددًا من الأقراص المدمجة ((CD، يمسك بهاتفه، يقرّبه من فمه:

ـ نعم (كمال بيه)، تمّ الأمر كما أردت سيادتك.

31

يدخل الضخم بخطواته الوئيدة، يحتل مقعدًا في مواجهة الجالس خلف مكتبه، ينفث زفيرا عميقًا قبل أن يقول:

ـ وبعد يا (فهمي) بيه؟! ما الذي يمكننا عمله بعد كل ما فعلناه به؟! يبدو أن هذا الـ (صابر) فقد الإحساس بالألم تمامًا، ها نحن منذ أكثر من ثلاثة أيّام أذقناه فيها ألوانًا من عذاب شتى ولا جدوى! أخشى إن تمادينا في ذلك أن يموت السرّ معه، ونصبح بعدها تحت رحمة صاحبه الشاب، الذي لا نعرف له موقعًا، وهو كما علمت من سيادتك لن يتوانى عن إيداع الأوراق إن كانت معه للشرطة، إن نما إلى علمه مقتل صديقه.

يسند الآخر ظهره إلى مقعده يتأرجح به:

ـ لا أظن هذا يا (لطفي)، فإن كانت الأوراق بحوزته حقًّا، لقام بهذا من أول يوم اختفى فيه رفيقه، فهو لا يعلم الآن إن كان حيًّا أم أخرجناه من الدنيا.

ابتسامة مكر تتسلسل خلسة لملامحه:

ـ أعتقد أننا الآن أمام احتمالات ثلاثة:

- الأول: ألا تكون الأوراق بحوزته أو حتى لديه علم بمكانها.
- الثاني: أن تكون حقًا معه، ولكنه يخشى إن أقدم على هذه الحماقة أن نلحقه بصاحبه.
- الثالث: أن تكون بحوزته أيضًا لكن أطماعه استولت على تفكيره ويرى أن يغتنمها فرصة ليشقّ طريقًا لمستقبله على أشلاء مَن كان صديقه.
- وكما ترى يا صاحب العقل الذي انخدعت به، أن كل تلك الافتراضات منطقية وفي صفنا أيضًا.

يطرق (لطفي) ينظر للأرض، سرعان ما يرفع رأسه يبدو أنه تذكر أمرًا فجأة، يصمت قليلًا قبل أن يحدث به:

- لكن حفل زفاف (خالد بيه) اليوم! ألا يمكن أن يسبب وجود (صابر) هذا على مقربه من المدعوين قلقًا أو أي شيء يلفت الانتباه لوجوده بالأسفل؟

يرد الآخر بسخرية:

- كيف هذا يا ذكي؟! ماذا عساه يفعل وسط الضجيج والضوضاء وهو أسير غرفة في باطن الأرض؟ ولكن حتى نطمئن تمامًا اذهب إليه قبيل الحفل وأوثقه جيدًا، لا نريد أن نترك شيئًا قيد الاحتمالات.

يقطع رنين الهاتف كلماته، ينظر إلى الرقم المجهول على الشاشة، إحساس بداخله يستحثه الرد على العكس من عادته:

- نعم أنا (فهمي عبد البديع) لكن مَن أنت؟

ـ ...

ـ فاعل خير! وهل لا يزال أحد يفعل الخير في أيامنا هذه! وكيف عرفت رقم هاتفي يا فاعل الخير؟

ـ ...

ـ صدقت! النقود تفعل كل شيء، ها ماذا هناك؟

ـ ...

ـ أشياء تقدر بملايين! هات ما عندك فلا وقت لديّ لأضيّعه مع أمثالك.

يقفز فجأة ليقف على أطراف أصابعه، ينطق وجهه بالفرح:

ـ حقًا أهي بين يديك الآن؟

ـ ...

ـ حسنًا، حسنًا سأعطيك فوق ما تطلب.

ـ ...

ـ لا، لا ما رأيك أن تحضر حفل زفاف ابني اليوم وتأخذ ما تريد.

ـ ...

ـ أعتقد أنك تعرف العنوان، وتعرف هيئتي أيضًا.

ـ ...

ـ حسنًا سأنتظرك، لكن احذرني، فإن ظهرت الأوراق مجددًا، سأجدك ولو كنت في قعر الأرض، وسأقتلع رأسك من فوق عنقك! لعلك تعلم مع مَن تتعامل.

يغلق الهاتف بقوه، يكاد الفرح أن يذهب بعقله:

ـ أسمعت يا (لطفي)! ها هي المستندات ستعود لنا بكل يسر وسهولة، يبدو أن أحد احتمالاتي أصبح واقعًا بالفعل.

ينهض (لطفي) مسرعًا:

ـ ائذن لي الآن، لنستريح من هذا الـ (صابر) للأبد.

صوت سيده يستوقفه قبل أن يكمل خطوتين:

ـ لا، لا انتظر فقد تكون تلك مؤامرة ضدنا، لننتظر حتى نحكم قبضتنا على مستنداتنا وبعدها سنرى ما الذي يجب علينا فعله.

يستكمل (لطفي) خروجه فيصطدم بـ (خالد) عند الباب، يدخل ببطء، تنم ملامحه عن حزن عميق يسكنه، يلقي بجسده فوق مقعد عن بعد، يبدو كمن يريد البكاء لكن دموعه تأبي الظهور.

يناديه والده متعجبًا:

ـ ماذا هناك يا (خالد)؟ أتلك ملامح إنسان سيحتضن بعد قليل حوريّة من الجنة، أخبرني ماذا حدث؟

يحاول رفع رأسه فتسقط مجددًا:

ـ صديقاي يا أبي، (هاني) و(عصام) وجدا ميتين صباح اليوم في شقة في السادس من أكتوبر، تقرير الطبيب يقول بأنهما تناولا طعامًا مسممًا!

تطل دموعه النادرة:

ـ أما كان يمكنهما الانتظار قليلًا ليكونا بجانبي اليوم، يا لعجائب القدر، دومًا كنت أعتقد أنهما لن يتركاني مهما حدث، لكن الموت لم يدخل في حساباتي مطلقًا.

يعطيه أبوه ظهره:

ـ أهذا فقط ما يزعجك؟! ظننت أنّ الأمر ذو أهمية، هنيئًا لك بالخلاص من هؤلاء الأوباش، قم وانظر لما ينتظرك، فاليوم سيكون يومًا فاصلًا في حياتك وسترى أن أباك دومًا لا يُخطئ التقدير، هيا، هيا يا فتى، اطرد هذا الحزن الهش واستعد لما هو قادم.

سيارات عِليَة القوم تحيط بالمكان، أنغام صاخبة وضجيج، ضحكات هنا ورقص هناك، ملابس المدعوات تتحدى برودة الطقس بكل جبروت، أحاديث كان المال محور معظمها تختفي منها كلمات تفتك بعديدين غيرهم.

يقف (فهمي) وحيدًا، ينتظر حدثًا سيقتل قلقه، عنقه يكاد ينقصف من التلفّت في كل اتجاه.. ينفتح فمه فجأة، تتسع عيناه عن آخرها، يبصر شخصًا يقترب منه يحتضن مظروفًا ورقيًّا بقوة ويتصنّع خوفًا يغطي به وجهه، يُلقي التحيّة بصوت مهتز، تمتد يد (فهمي) تنتشل المظروف منه، يحدق فيه بمنتهى الفرح، يخرج ما بداخله، يتصفح الأوراق بسعادة بالغة تضجّ بها ملامحه. للحظات يبدو كمن لا يصدق نفسه، يعيد المستندات كما كانت، يخرج شيكًا يقربه إليه قائلًا:

ـ ربما لا تعلم حجم سعادتي الآن بك، كأنك طويت كل هذا العالم ووضعته في يدي، هيا مدّ يدك وللعلم هذا فوق ما اتفقنا عليه، افعل كل ما يحلو لك وسط هؤلاء القوم، هيا، هيا كُل واشرب وارقص فالآتي من الأيام ليس كسابقه.

يأخذ (فهمي) بيد مَن أصبح ضيفه، يوصله للمأدبة العظيمة ثم يختفي ليواري أوراقه التي أضنته بحثًا خلفها.

يتزايد الضجيج إثر ظهور العروسين، يكاد حسنهما وتناسق مظهريهما يذهب بالعقول، يسرعا بالانسجام مع أنغام الموسيقى وسط تهليل من أغلب المحيطين.

هنا يظهر الدكتور (عمر) والضابط (عماد) وقد غيّرا من هيئتهما ومعهما (جلال) دليلهما في ذلك البيت الفسيح، جميعهم يسترقون الخطى ويرسلون نظراتهم في كافة الأنحاء وقد استغلوا انشغال الجميع بالنظر انبهارًا بالعريس وعروسه، يقتربون من الضيف الذي لازم المائدة، يهمس في أذنه الضابط (عماد) وهو يضغط على كتفه كي لا ينهض من كرسيه:

ـ طمئنّي يا صول (حامد)، أشكّ في أمرك أم انطلت عليه الخدعة؟

يجيب الآخر بعدما ابتلع ما في فمه:

ـ لا تقلق (عماد) باشا، تمّ كل شيء كما أمرتني سيادتك.

ينطق (عمر) بملامح مبتسمة:

ـ لا أدري كيف أشكرك يا حضرة الضابط، بفضلك عادت الأمانة التي حملتها وفرطّت فيها، لكن أيمكن أن تخبرني ماذا فعلت مع الشخص الذي سرق منّي الأوراق؟

ينظر يمنة ويسرة:

ـ لا يزال في الحجز، لكنّي سأخلي سبيله، فأنت تعلم أنه لا سند قانوني لحبسه، خاصة أنني وضعت هواتف (فهمي عبد البديع) قيد المراقبة دون إذن قضائي، بل بعلاقات شخصية فقط. لكن دعنا من هذا الآن، ولننجز ما أتينا من أجله، فمن المؤكد أن (صابر) مختطف هنا في موقع سري.

يلتفت صوب (جلال):

ـ هيا يا دليلنا! فأنت أعلمنا بذلك المكان، نريد أن ننتهي في عجالة.

فجأة يتعالى الضجيج لمستوى قياسي، يدوّي المكان بالتصفيق عندما تطأ قدما الراقصة المشهورة أرضية المسرح الكبير، يظهر (فهمي) مجددًا ليحيّها من بعيد، تردّ له التحيّة بدفعة اهتزازات من خصرها، غيرة تنتهش بعضًا من قلوب الحاضرات لتعلّق أنظار الجميع من الرجال بحركاتها.

تقبض العروس على يد العريس بقوة، عيناها ترجوانه أن يتناسى زلتها، يده الأخرى تربت على يدها كأنه يخبرها أن ما يشغله ليس ما يدور في عقلها.

يتقدم (كمال الهاشم) والد العروس ليقدّم التهاني للعروسين، يعقبه (فهمي عبد البديع) والد العريس، يكاد من فرط سعادته أن يتراقص أمام الحضور، يهبط من فوق المسرح ويده بيد الراقصة بعدما انتهت من وصلتِها، يميل نحوها برأسه:

ـ ما رأيكِ أن نقضي الليلة سويًّا، نستعيد بعضًا من أيامنا الخوالي التي ما أظنكِ قد نسيتها.

تجيبه بضحكات تقطر بالميوعة تعبيرًا عن الموافقة؛ فيسرع نحو ابنه ثانية، ينتحي به جانبًا:

ـ أين مفتاح شاليه الاسكندرية يا عريس؟ أظنك لست بحاجة له بعد الآن.

يتلعثم الابن في الرد:

ـ وماذا تريد منه؟ أعتقد أنه ليس نظيفًا بما فيه الكفاية.

يوكزه بكتفه في ظهره:

ـ لا شأن لك أنت بهذا، فقط أعطني إيّاه.

يخرج (خالد) جمّة مفاتيح من جيبه، ينزع منها المفتاح المقصود، يتناوله أبوه على الفور، يسرع ليختفي من المكان بصحبة صاحبة الخصر النضر.

فريق البحث الثلاثي يواصل مهام البحث في أركان حديقة الفيلا الفسيحة تحت جنح الظلام دون جدوى، يوشك اليأس أن يكون حليفهم، الدكتور والضابط يصران على استكمال البحث، ثالثهما يتذرّع بعدم الجدوى.

فجأة يصيح (عُمر):

ـ حضرة الضابط، أنصت، أظن أن هناك صوتًا خلف هذا الجدار.

يقتربون من مصدر الصوت، أنّات مكتومة تصارع للظهور، باب لا يمكن تمييزه من الجدار عن بعد، يقتربون منه بحذر، تتحد قواهم عليه حتى تحطم بعد عدة دفعات قوية، يهبطون الدرج ببطء، تبدأ أعينهم شيئًا فشيئًا تعتاد الظلام، يتقدمون بخطوات صغيرة.

ينطق (عمر) بفرح يمتزج بالدهشة قبل أن يسرع نحوه:

ـ الأستاذ (صابر).

ينقضّ ثلاثتهم على قيود الطريح يقطعونها، يحزّ قلوبهم هيئة جسده المثخن بالجراح.

ينطق (صابر) بصوت مبحوح باكٍ:

ـ دكتور (عمر)، أرجوك خذني الآن لمنزل (هناء)، أرجوك.

يهدئ (عمر) من روعه:

ـ حسنًا، حسنًا، سنفعل ذلك، اهدأ الآن فقط.

يتشارك اثنان في حمله، يُسرع خلفهم الثالث يرقب لهم الطريق، يتوجهون نحو أقرب جزء من السور، يقفز اثنان فوق جداره، يسحبان المصاب لأعلى مع معاونة من الثالث الذي بالأسفل.

وقع أقدام تقترب، وصوت جهوري يصيح:

ـ مَن هناك؟ انتظروا يا لصوص.

يهرول (لطفي) بأقصى قواه نحوهم، يتمكن من التشبث بإحدى قدمي الأخير قبل أن يتم صعوده، فيعالجه بضربة من قدمه الأخرى في وجهه تسقطه أرضًا وقد تفجرت أنفه بالدمّ، لكن ذلك لم يمنعه أن يحذو حذوهم، يكاد وجهه أن يصافح الرصيف جرّاء قفزته الخاطئة. خوف يرتع في قلبه: لا بد من اللحاق بهم، إن اكتشف (فهمي بيه) فرار الصيد من يدك سيقتلك بدلًا منه، هيا، هيا! أسرع قبل أن يختفوا عن نظرك.

يبصرهم ومصابهم يُثقل حركتهم وهم يقتربون من السيارة التي سرعان ما احتضنتهم لتنطلق بهم، يسرع نحو سيارته، يلقي بجسده داخلها فتسرع تلاحق مَن سبقتها.

32

صوت الهاتف يقطع سيل كلماته المعسولة التي تنهمر على الراقصة بجواره، يرفعه نحو عينه بلا مبالاة، ينطق بهدوء:

ـ (لطفي)، ليس هذا بوقتك.

يغلق (فهمي) الهاتف تمامًا، يميل على مَن تشغل المقعد المجاور:

ـ ها أنا أترك كل شيء لأجل عيونكِ، أرأيتِ يا (زيزي) أم أناديكِ بـ (زينات)، ذلك الاسم الذي لا يعرفه غيري.

تنخرط في ضحكاتها الماجنة:

ـ أقدّر لك هذا، لكن التفت إلى الطريق أمامك حتى نصل.

تنطلق قهقهاته بطريقة هيستيرية، تصرخ الراقصة بقوة لاهتزاز عجلة القيادة في يده لكنه سرعان ما يستعيد السيطرة على الوضع، تتزايد سرعة السيارة إثر ضغطة من قدمه، تبدو كأنها تسابق نفسها أو تود أن تقسو على وجه الطريق الأسود.

ها هي تترك زحام المدينة خلفها، أمواج البحر تتعانق من بعيد، ثم ما تلبث السيارة أن تستقر أمام أحد الشاليهات.

يضع (فهمي) ذراعه على كتف المرأة وهما يصعدان سويًّا، يناولها المفتاح لتكون هي السابقة في الدخول.

تتوجه (زيزي) إلى الحمام لتصلح زينتها، أما هو فيستلقي على الأريكة يمنّي نفسه بليلة حافلة، يغرق في تخيلاته، يهز رأسه بقوة فيسقط على الأرض، ينفجر ضاحكًا مما أصابه، تلمح عيناه شيئًا يختفي تحت الأريكة، يبدو كبطاقة شخصية أو رخصة قيادة. يتوقف عن الضحك، تمتد يده لتحضره، تبدو الصورة غير واضحة كأنها صورة قديمة، يستعيد جلسته، يزيل قليلًا من غبار اعتلاه.

وفجأة.. تكاد عيناه تفارقان محجريها.. نبضات قلبه لا تكفّ عن التسارع توشك أن تفجّر صدره.. يستخلص أنفاسه بمشقة.. يحدّق في الاسم مرارًا كأنّه لا يستوثق من نظره، فلا يجد إلا (هناء سعيد عبد القوي عمران)!

أسئلة ترتدي ثوب الأفاعي تتعاقب على عقله تلدغه:

أتكون حقًا ابنة (سعيد) الذي أعرفه؟

الاسم الثلاثي لا يترك مجالًا للشك في هذا!

وإن كانت هي، فما الذي جاء بها إلى هنا؟ وكيف أتت؟ ومع مَن؟

أتكون قد حضرت لتخبر (خالد) عما بدر منّي تجاه والدها منذ سنين طوال؟

ومن أين تعرف (خالد) من الأساس؟

تساؤل ينطلق من بعيد ليدمي قلبه:

أيكون (خالد) قد أتى بها إلى هنا كما يأتي بغيرها وهو لا يدري مَن هي، ولا هي أيضًا تعلم بحقيقته؟

ينتفض من مكانه يصرخ:

ـ تلك هي الطامة بحق، يا الله! أيمكن أن يحدث هذا؟

تخرج الراقصة على صراخه فزعة:

ـ لماذا تصيح هكذا؟ ما الذي حدث؟

يخرج من ملابسه كمًا لا بأس به من النقود، يضعه في حقيبتها ثم يمسك بذراعها يجذبها للخارج، لم يأبه لمحاولاتها التخلّص من قبضته أو استنكاراتها المتلاحقة وهو يغلق خلفها الباب.

يطيح بكل شيء يعترضه، يضرب الجدران بغضب، كلّ ما فيه ينتفض، أعضاؤه تبغي التفكك منه، روحه تعوي بداخله، عقله يدخل في طور الخمود لا يدري ماذا يفعل.

يعود لتساؤلاته مجددًا:

أيطلب من (خالد) تفسيرات حول الأمر؟

كيف هذا واليوم عُرسه؟

وكيف ستكون ردّة فعله عندما يعلم الحقيقة؟!

يتدارك: لكن، لا بد أن أعرف ماذا حدث بينهما.

يداه لا تطوعانه عندما أراد رفعهما إلى السماء، منذ زمن بعيد لم يلتجئ إلى الله أو يدعوه بشيء! يتحامل على نفسه:

ـ أسألك اللطف يا الله.

كأنّ لسانه يستغرب تلك الكلمات، يتحامل على جوارحه بالمثل فيرددها مرارًا، يشعر بالخوف يتكالب عليه، هذا شعور كان قد نسيه تمامًا، يفتح النافذة ببطء شديد، يرجو الليل أن يلملم سواده في عجالة، لكن الليل يرفض رجاءه باستعلاء! تنقض عليه الدقائق كشفرات تقطع كبده، يدب الوهن في قدميه، يفترش الأرض يسند رأسه إلى الجدار، يتصفّح بعضًا من صفحات ماضيه، ينطق بأسى:

ـ آه منك أيها الماضي، ظننت أني قد دفنتك للأبد وتلقّيت العزاء، أسقطت من حساباتي أنه ما من أمر في تلك الأرض يقع؛ إلا وأحصته دفاتر القدر!

يفيق من غفوته فجأة على أذان الفجر يعلن أن الله أكبر مما سواه، جاهدًا يلملم جسده، يغلق خلفه الباب بلا إحكام، يكاد يسقط على الدرجات لولا تشبّثه بالحديد، يتوجه نحو السيارة كأنّ بقدميه أثقالًا لا تفارقها، تبتعد به ببطء، تترنح كأنّه نسي القيادة، بعيون شبه مغلقة ينظر للطريق، يبدو كمن يغفو ويفيق كل دقيقة، عن بعد تظهر ملامح القاهرة وهي تتفتح ضجيجها اليومي، تتملكه الدهشة لا يدري كيف وصل.. يتجه أولًا صوب منزله حتى يستعيد وعيه كاملًا، يقترب من البوابة الكبيرة، يفاجئ بالواقف هناك يحدّث نفسه، يناديه بصوته المبحوح وملامحه الغائمة:

ـ (لطفي) ماذا أصابك؟

يهرول الآخر باتجاهه عندما طرق الصوت سمعه:

ـ (فهمي بيه)، أين كنت؟ منذ أمس وأنا أحاول محادثتك، لكنّ هاتفك كان دومًا مغلقًا.

يشير له بأن يلتزم الصمت وهو يترجّل من السيارة:

ـ أحضر لي (خالد) الآن أينما كان، أعتقد أنك تعرف في أي فندق نزل.

يلمح الدهشة تفوح من وجه الآخر فيكمل:

ـ أعلم أن اليوم صباحيته، لكنّي أريده الآن.

يقترب منه (لطفي) أكثر:

ـ أظن أن هناك ما هو أهم من ذلك، (صابر) قد فرّ أمس بمساعدة ثلاثة كانوا من المدعوين في حفل الزفاف.

يكاد (فهمي) يبصق في وجهه لكن (لطفي) أسرع لينقذ نفسه:

ـ لكني تتبعتهم حتى عرفت مكانهم وها هو العنوان.

تمتد يد (فهمي) من فرط غضبه نحو مسدس كان بخصر الآخر بعد أن تناول منه الورقة التي تحوي العنوان، يقول وهو يعود لسيارته:

ـ كما قال السابقون «إن أردت أن تنجز أمرًا على أكمل وجه؛ فافعله بنفسك».. هيا أحضر (خالد) والحق بي في هذا العنوان على عجل.

يريد (لطفي) أن يثنيه عن عزمه، لكنّ السيارة كانت كقائدها المقفل أذناه، تتحرّق للذهاب، تنطلق به كالبرق تختفي من أمامه. صاحبها يصبّ غضبه المكبوت على محرّكها الذي يستجيب أولًا بأول، كأنّ الإطارات تخشى ملامسة وجه الطريق، يفتح الورقة بيد واحدة بعنف، يقرأ ما فيها بسرعة ثم يكورها ويلقي بها بعيدًا، شر مستطير يجتمع ليسكنه، كوّن بداخله عزمًا على أن يستريح من كل ما يؤرقه تمامًا وللأبد، يقبض على المسدس بقوة، يدقق النظر في كاتم الصوت، يستوثق من امتلائه بطلقات الموت.

يركن سيارته بعيدًا، ينزل منها (فهمي) بهدوء على العكس مما يحسّه.. يتحسس خطاه بمحاذاة الجدران، يدخل البناية ببطء شديد، يصل إلى أحد الأبواب بالطابق الأرضي، يضع أذنه عليه، فيسمع صوت (صابر) بالداخل. يتوقّف قليلًا، يستلّ مسدسه، يضع أذنه ليتنصت.

الجار (حسن) يفتح بابه ليخرج كيس القمامة، يقع بصره على الملتصق بالباب وعلى المسدس في يده، يعود بهدوء للداخل، يكاد لا يلامس الأرض، يسرع نحو هاتفه ليبلغ الشرطة بما رآه وأوصاف حامل السلاح.

يلتفت (فهمي) فيجد باب الشقة خلفه مفتوحًا، يدرك أن الوقت يداهمه، يصوّب مسدسه على مقدمة الباب أمامه، والذي لم يتحمل إلا طلقة واحدة، يتملّك الذعر كل مَن بالداخل من تلك الهجمة المفاجئة.. يصيح بهم:

ـ كلٌّ يلزم موقعه وإلا فجّرت رؤوسكم جميعًا، لا تظن أنّك نجوت يا (صابر)، فكما قلت لك سابقًا يدي ستطالك أينما كنت.

تتحاضن (هناء) و(رحاب) بقوة يكاد الرعب أن يوقف نبضاتهما.

(عمر) و(جلال) يقتربان من (صابر) وقد أفلحت الهجمة المفاجئة في تبيان اضطرابهما.

يستعيد (صابر) جلسته:

ـ افعل كل ما يحلو لك بي، ولكن احذر أن تؤذي أحدًا آخر. ولعلمك كلّ هذا لن يفيدك، فالأوراق التي كانت بين يديك أمس طارت نسخة منها إلى الشرطة قبل أن تصلك على يد أحدهم، وبين لحظة وأخرى سيصدر الأمر بالقبض عليك.

يهتز المسدس في يده، تنتقل الهزّة إلى صوته:

ـ ما أنت إلا كاذب خسيس، لا تظن أن قولك هذا سينقذك من ...

يقابله (صابر) بضحكات عالية تقتل بداخله الشك فيما قاله، ينطق (فهمي) بغلٍ قبل أن يضغط على الزناد:

ـ إذًا، فلا حياة لك بعدي.

تندفع (هناء) نحو (صابر) تدفعه بعيدًا، فتستقر الرصاصة في صدرها.. يتعالى صراخ الفتاة الأخرى:

ـ هنااااء! لاااا.

يهرع نحوها (عمر) يتفقد موضع الرصاص، يمزق بعض ملابسه، يسد بها منبع الدم.

تخرج الأم المريضة من غرفتها فزعة، تقوم وتسقط على أصوات الصراخ، تُبصر مَن لا يزال المسدس في قبضته، تصيح بفزع:

ـ (فهمي عبد البديع)!

تبرق عيناه بالدهشة، يتصفح أوراق ذاكرته المهترئة، ينطق بذهول ألجمه:

ـ مَن! أنتِ! أنا أعرفكِ! نعم أعرفكِ! كنتِ تعملين في أحد مصانعي! أنتِ أنتِ...!

تلقي نظرة على الأرض فترى الدماء تتدفق من ابنتها، تسقط من فورها تصرخ بصوت يدمي القلوب:

ـ قتلت ابنتي يا لعين! أما كفاك أنك قتلتني شر قتلة فيما سبق!

ينطلق نحوها يقبض على ذراعيها وكلّ ما فيه ينتفض، يهزها بعنف:

ـ انطقي يا امرأة، ما الذي حدث بعد أن طردتكِ من مصنعي؟ هيا انطقي يا ابنة الحرام.

تمسك الدهشة بتلابيب البقية من هذا الحديث الذي يفتت العقول.

هنا يظهر (خالد) بصحبة (لطفي) عند الباب، يفرّ (لطفي) لا يلوي على شيء عندما رأى المضرّجة بدمائها تصارع الموت.

يتقدم (خالد) نحو (هناء)، يجثو على ركبتيه، يستوثق من ملامحها، تكاد أنفاسه تموت بداخله، دموعه ترفض إطفاء نيران اشتعلت بأحشائه.

تشهق (هناء) شهقة كأنّها الأخيرة، عندما أبصرته:

ـ أنت! يبدو أنّ اليوم يوم القتلة!

تغيب بعدها عن الواقع.

تسرع (رحاب) نحو الهاتف تطلب الإسعاف، تكاد لا تنطق بعبارة متكاملة من لهيب أنفاسها المتلاحقة.

صوت الأم وهي تقصّ خبر الماضي على القاتل يأخذ بأسماع الجميع:

ـ أتذكر يا شيطان ما كان بيننا من اتفاق، حين استغليت سذاجتي وضعفي وفقري العاتي، وأقنعتني بأن أنجب لك طفلًا من حرام، لتعطي ذلك الطفل لزوجتك العاقر وتنسبه لها زورًا؛ لتلهيها به ولتضمن أنها لن تخرج أبدًا من قبضتك حتى تستكمل الاستيلاء على أموال أبيها.

حينها وعدتني بأنه ما إن يخرج الطفل من بطني، إلا وستتزوجني سرًّا، وتأخذني إلى قصركِ لأعيش معك كأنّي مربية للطفل حتى لا يغيب عنّي، لكنك بعد أن نلت مني مبتغاك العفن، نقضت كل عهودك لي وفجعت قلبي بحرمانك لي من رؤية ولدي، وطردتني ككلاب السكك فاقدة للشرف والكرامة.

لم أجد أحدًا يلمّ لحمي؛ غير (سعيد) ـأحد العاملين عندكـ الذي كان يكنّ لي حبًا عظيمًا فيما مضى، قصصت عليه الخبر، فوجدته يعرض عليَّ الزواج سرًّا، فوافقت.

مرارًا حاولت دفعه لترك العمل عندك، لكنه كان دومًا يجيب بأنه طالما هو قريب منك، سيعلم إن كنت عرفت بزواجنا أم لا، وليته استجاب لي.

عشنا هكذا كالفئران سنوات طوال نخشى من كل الغرباء اعتقادًا بأنهم رسل منك حتى أصيب سعيد بالصمم، وأعلم أنك ما قتلته إلا لأنك اكتشفت أمر زواجنا، ووجدتها أيضًا فرصة لتُخرس كل الألسنة التي طالبت بحقه.

وهبت حياتي بعد رحيله لتربية (هناء) وأخيها الصغير (حسام). وبعد كل هذا تأتي لتقتلها بعدما قتلت كل ما هو جميل في تلك الحياة.

تمتد يد (خالد) لتمسك بخناق أبيه ودموعه كفيضان حطم سدًّا ليطيح بكل ما يعترضه:

ـ قاتلك الله يا أبي! قاتلك الله! أتعلم ما الذي صار بيني وبين أختي التي لم أعرفها؟

يكاد يزهق أنفاسه:

ـ قدمتها لأشقياء كانوا برفقتي ليمزّقوا شرفي على مرأى ومسمع منّي، وبتدبيري!

ذهول يلجم البقيّة، تكاد عقولهم تطير من تلك الأحاديث التي تشبه أحاديث الأساطير، وتبحر في سماء الخرافات، يبدو أن الحياة بها ما هو أغرب وأشنع!

ترفع (ألفت) بصرها لأعلى تتطلع لوجه الشاب:

ـ أنت (خالد)؟ أنت مَن فعلت بـ(هناء) كل هذا؟ أنت يا بنيّ تقتل أختك قبل أن يجهز عليها أبوك!

تشهق شهقة عظيمة:

ـ هذا قصاص جرم دنّس الماضي، تغافلت عنه، ظننته قد وئد للأبد، تناسيت أنه ما من شيء في الحياة يحدث، إلا وقد أحصته دفاتر القدر يا ولدي.

تُهزي بكلمات غير مفهومة، كأنها أصيبت بمسّ من الجنون، ينكبّ الابن يحتضن أمه الحقيقية بقوة، وإذ بيد أبيه تجذبه بعيدًا، يمسك بمسدسه، يصوّبه نحوها وأعضاؤه تكاد تتساقط منه:

ـ أنتِ مَن فعلت كلّ هذا، ولا جزاء لكِ سوى الموت.

يقفز (خالد) يقي أمه الحقيقية بجسده، فتخترق الرصاصة عنقه.

يوجّه بصره نحوها يُلقي نظرة أخيرة على وجهٍ لطالما حُرم منه، يسقط أرضًا بلا حراك، صراخ الأم يصم الآذان.

(فهمي) كجبل يتهاوى من الداخل، ركبتاه تصطدمان بالأرض، يقلّب ابنه بمشقّة، دموعه تغسّله، نحيبه يطغى على ما عاداه.

(صابر) يخفي وجهه بيديه، عيناه التي أدمنت البكاء لم تتمالك كبح الدموع.

(ألفت) تستند إلى الجدار، كل ما فيها يتثبت، تغيب عن الوعي.

(رحاب) بشهقاتها ونحيبها تتحسس (هناء) ربما لا تزال على قيد الحياة.

(جلال) متثبت كصنم... عيناه جامدة ثابتة، وملامحه فرّت منها المشاعر.

(عمر) لا تزال يداه تحكم الخناق على الجرح وقلبه يسحّ دمعًا يترقرق بمقلتيه.

أقدام ثقيلة تطأ الدرجات، تعلن عن جمع كثيف سيحضر العزاء، سرعان ما يمتلئ المكان بذوي الملابس السوداء، يقترب قائدهم الضابط (عماد) من (فهمي) المحتضن ابنه المفارق للحياة:

ـ أرأيت الآن حصاد ما زرعت! هل ستفيدك الآن تلال المال وسطوة النفوذ! أأدركت الآن أنّ الحياة مهما اتسعت لا تكتمل، وأن الموت ختام كل شيء!

طفل يحاول المرور بين كتل الأجساد بمشقة، يحمل ورقة في يده، ينطلق نحو أخته المغطاة بدمائها، وبكلمات أثخنت قلوب الجميع ينطق:

ـ (هناء)! (هناء)! انظري، تلك شهادتي فأنا الأول على الفصل، ها أنا يا أختي أسعى جاهدًا لأفي لكِ بالعهد، (هناء)، لماذا لا تجيبين؟ ردّي عليَّ أنا (حسام) لا تغضبي فلن أطالبكِ بالحلوى بعد الآن، هنااااء، هنااااااء!

السيرة الذاتية للكاتب

أحمد شافعي

مواليد/ الإسماعيلية.

حائز على عدة جوائز في القصة القصيرة والمقال الصحفي من وزارة الثقافة.

أعمال منشورة للكاتب:

- رواية (خارج نطاق الحلم) صدرت عام ٢٠١٤ عن (دار مير للنشر والتوزيع).
- رواية (وداعًا أيها السفلة) صدرت عام ٢٠١٩ عن (دار أكتب للنشر والتوزيع). وصدرت طبعتها الثانية في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠٢٠ عن نفس الدار.
- أعمال للكاتب صدرت بالمشاركة مع آخرين:
- كتاب (شغف الحروف) صدر عام ٢٠١٧ عن (دار الزيات للنشر والتوزيع).

- كتاب (هذا أنا) صدر عام ٢٠١٧ عن (دار الزيات للنشر والتوزيع).
- كتاب (كوكب العزلة) صدر عام ٢٠١٨ عن (دار جولدن بوك للنشر والتوزيع).
- كتاب (أهو دا اللي صار) صدر عام ٢٠١٨ عن (دار الشهد للنشر والتوزيع).

كاريزما
للنشر والتوزيع